تاريخ الكتب والمكتبات
عبر الحضارات الانسانية

د. سيِّد حسب الله   د. محمد جلال غندور



تاريخ الكتب والمكتبات

عبر

الحضارات الانسانية

تاريخ الكتب والمكتبات
عبر
الحضارات الانسانية

د. سـيِّد حسب الله
عضو هيئة التدريس
قسم علوم المكتبات والمعلومات - كلية الآداب
جامعة الملك سعود - الرياض

د. محمد جلال غندور
عضو هيئة التدريس
قسم المكتبات والوثائق والمعلومات - كلية الآداب
جامعة القاهرة - القاهرة



ص. ب : ١٠٧٢٠ - الرياض : ١١٤٤٣ - تلكس ٤٠٣١٢٩
المملكة العربية السعودية - تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ - ٤٦٤٧٥٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمـــة

قصـة الكتـابـة وأدواتهـا، وقصة الكتاب والمواد التي يُكتب عليها، وقصة المكتبات على مختلف تسمياتها، هي قصة الحضارة الإنسانية نفسها. إذ بدون كتـابـة لاتـوجـد كتب، وبـدون الكتب وأوعية المعلومـات الأخـرى لا توجد مكتبات، فتاريخ الكتابة، إذن، أقدم بكثير من تاريخ الكتب والمكتبات، إذ لها تاريخ موغل في القدم يرجعه البعض إلى المجتمعات الإنسانية البدائية، حين كان يشعر الإنسان الأول بحاجته إلى تسجيل الظواهر الطبيعية المحيطة به، وتسجيل الأحداث التي يمر بها، وخبراته التي كان يمارسها. فكان التسجيل على جدران الكهـوف التي يسكنها، وعلى الصخور، وعلى جذوع الأشجار وعظام الحيوانـات، التي اتخـذ منها مادة لكتـابـاتـه، أو بالأحـرى لتصاويره ونقوشه المتواضعة. وبذلك نستطيع القول أنه إذا كانت الإنسانية قد عاشت في العصور البدائية جداً، بدون المكتبات، فليس معنى ذلك أنها عاشت بدون الكتابات والمعلومات. فالإنسان، وهو أذكى الكائنات على وجه الأرض، يستقي القدرات التي ميزه الله بها، كقـدرات التحليل والمقـارنـة والاستنتـاج في تزويد نفسـه بالمعلومـات الضرورية لمعيشته كإنسان، وكان من الضروري أن يسجل هذا الإنسان، بالصور والأشكال أول الأمر، ثم بالحروف والكلمات فيما بعد، ما يمثـل الخـبرات التي اكتسبها أو ورثها، وذلك على الوسائط المادية في بيئته، كالحجارة والطين، وأجزاء النبات، وعظام الحيوانات وجلودها.

وإذا كانت الكتابة قد مرت بمراحل مختلفة، بدءاً من الكتابة التصويرية، والكتابة الرمزية، والكتابة الصوتية، حتى التعبير عنها بالحروف الهجائية، التي نعرفها الآن، فإن أدوات الكتابة مرت بالطور نفسه، وكانت مرتبطة بالمادة التي استخـدمت كوسيط كتـابي. فاستخـدم في الكتابة: الإزميل، والوتد، وأقلام مدببة مصنوعة من المعدن للحفر بها على الأحجار والألواح الخشبية، ثم أقلام البوص والغاب للكتابة بها على أوراق البردي، . . . وكان تباين أدوات الكتابة

مرتبطاً دائما بالوسيط الذي تتم الكتابة عليه.

مرّ الكتاب، كوعاء للمعلومات، خلال تاريخه الموغل في القدم بالعديد من التغييرات التي طورت من شكله المادي، ومحتواه الموضوعي. فقد عُرف الكتاب في الحضارات القديمة كلفافة بردي، أو رُقُم من الطين، أو طيّة رق، أو نسيج من حرير،... وبعد اكتشاف الورق كمادة للكتابة في الحضارة الصينية، بدأت تظهر ملامح الكتاب، على مر العصور، في صورته التقليدية المعروفة، وإن لم يأخذ شكله الدفتري المعروف إلا حديثا. بدأ الكتاب، في صورته المعروفة، مخطوطاً إلا أنه انطلق، بعد اكتشاف التقنيات الحديثة، وعلى رأسها الطباعة، ليكون مطبوعاً في آلاف النسخ بعد أن كان مستنسخاً في آحاد النسخ. وبعد أن كان اقتناء الكتاب قاصراً على طبقات معينة من المجتمع، أصبح الكتاب متاحاً لجميع فئات المجتمع، فالأعداد الهائلة التي ساعدت الطباعة على انتاجها، شجعت حركة الإبداع والتأليف والترجمة والنشر، مما أدى بدوره إلى التوسع الكبير في الموضوعات المعالجة، بحيث أصبح الكتاب، بمفهومه الأوسع، قوة مؤثرة إعلاميا وفكريا وثقافيا واقتصادياً.

اشتقت «المكتبة» إسمها من «الكتاب». وهو أشهر أوعية المعلومات التي تعتمد عليها أكثر المكتبات في الوقت الحاضر إعتماداً كبيراً في مقتنياتها كي تخدم به المستفيدين منها. ولكن المكتبة، في المدلول الأوسع، غالبا ما تتجاوز الكتب المطبوعة، حتى بمدلولها الأوسع الذي يضم المواد الورقية الأخرى، كالجرائد والنشرات وبقية الدوريات على اختلاف أنواعها، وكذلك الخرائط والأطالس والرسمات الهندسية، كما أنها قد تضم أيضا المخطوطات التراثية القديمة، والمراسلات والمذكرات الحديثة، وغيرها من المواد الورقية غير المطبوعة. بل إن هناك من المكتبات في الوقت الحاضر، ما يضيف إلى كل ذلك المواد غير التقليدية، ومنها التسجيلات الصوتية في أشرطة، أو أقراص، أو اسطوانات، منفردة أو في البومات. ومنها أيضا التسجيلات المرئية الثابتة والمتحركة، كالشرائح، والأفلام الروائية، والأفلام العلمية. ومنها كذلك التسجيلات الألكترونية التي تختزن محتوياتها، وتسترجع وتُقرأ بواسطة الحاسوب، على أشرطة أو أقراص أو اسطوانات كذلك. ومنها كذلك المليزرات التي يمكن بواسطة

أشعة الليزر أن يختزن الواحد منها قدراً من المعلومات يساوي عشرات الآلاف من الصفحات. وهكذا قُدِّر لهذه الكلمة «مكتبة»، رغم استنادها في الاشتقاق إلى نوع معين من مواد المعرفة، أو إلى وعاء من أوعية المعلومات، وهو الكتاب، قُدّر لها أن تمتد في مدلولها الأوسع، إلى كل الوسائط التي ابتدعها الانسان ـ عبر حضاراته، ليسجل عليها خبراته وتجاربه ووقائع حياته.

وتاريخ المكتبات كان ولايزال مرتبطاً بالعوامل السياسية والاقتصادية، والمناخ الفكري السائد. ومن الملاحظ أن إنشاء المكتبات الكبرى في العالم، تم في عصور الازدهار الحضاري، والاستقرار السياسي، والتنوير الفكري، أما تدمير المكتبات، فعادة ما تم على مر الحضارات الإنسانية في عهد القلاقل السياسية، والنزاعات العسكرية، والتدهور الاقتصادي، بل ارتبط في فترات كثيرة بالتعصب العقائدي والديني. وتاريخ الكتب والمكتبات ملىء بالشواهد التي تؤكد ذلك.

بدأ الكتاب بالفصل الأول الذي خُصِّص لتحديد المفاهيم التي تتعلق بتاريخ الكتب والمكتبات، فتم التعرف على مصطلحات: «الكتابة» و «وسائط الكتابة» و «أدوات الكتابة»، و«الكتاب» و «المكتبات»، بل والتأريخ لها، وذلك بعرض سريع لنشأتها وتطورها عبر الحضارات الإنسانية المختلفة.

بدءاً من الفصل الثاني، خصص كل فصل لمجموعة من الحضارات، ففصل للحضارات القديمة، التي تجمع حضارة مصر القديمة، والحضارة السومرية والحضارة البابلية والحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية، ثم الحضارة الصينية، فالهندية. وفصل للحضارات الوسيطة، التي تجمع الحضارة اليونانية، ثم الحضارة الرومانية، وأخيراً الحضارة الإسلامية. وفصل للحضارة الغربية الحديثة، بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي حتى القرن العشرين. وقد تناولنا ، في كل حضارة من هذه الحضارات، تاريخ الكتابة بها، وأدوات الكتابة والوسائط المادية التي كتبت عليها، وأخيراً تاريخ المكتبات بها، وربما أشهر الشخصيات الفكرية والمكتبية بهذه الحضارة.

وهنا لابد من ملحوظة عند التأريخ للكتب والمكتبات عبر الحضارات

الإنسانية إذ يعمد المؤرخون، عند دراستهم للأحداث التاريخية، إلى تقسيم التاريخ إلى حقب تاريخية تغطي كل منها مساحة زمنية محددة، غالبا ما يطلق عليها مسمّى العصور، مما يساعدهم على دراسة معطيات كل فترة (عصر) على ضوء الأحداث التي مرت بها. وبما أننا في عملنا هذا، نقوم بالتأريخ لظواهر بحثية (الكتابة/ الكتاب/ المكتبات) خلال فترات زمنية متعاقبة، في إطار المعطيات التاريخية لحضارت تزامنت أو تعاقبت عبر التاريخ، فقد كان من الصعب، بل من المستحيل، في بعض الأحيان أن نضع فواصل زمنية قاطعة، بين عصر وآخر خلال تأريخنا للظواهر موضع البحث. فمن الطبيعي أن تتداخل معطيات كل عصر مع ما يسبقه، أو مايليه من عصور، تتمثّل تلك التداخلات في الفترات التي تمتزج فيها الأحداث، وتختلط فيها المفردات، وتعد بمثابة وشائج تربط ما بين النسيج التاريخي لتجعل منه وحدة مترابطة الأحداث تجري في مسار منطقي وطبيعي عبر الأزمنة. وهي بهذا تُعد مرحلة إنتقالية وسيطة بين عصر وآخر. فمثلا، عند تعرضنا لدراسة الحضارة الأوروبية الحديثة، وجدنا أمامنا التقسيم التاريخي لها ، والذي يتلخص في ما قبل التاريخ Pre history ، وهو العصر لم يتعرض له بحثنا، فنحن في دارستنا هذه نتعامل مع التاريخ المكتوب؛ وعصر ما بعد التاريخ Post history وهو مابدأنا به دراسة أهم الحضارات القديمة في الشرق والغرب، والذي ينتهي حسب التقسيم التقليدي في عام ٤٧٦م؛ ثم العصور الوسطى .Midde Ages والذي يؤرِّخ له عادة من منتصف القرن الخامس الميلادي إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر ميلاديا (وقد يؤرخ له أحيانا بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي حسب رؤية المؤرخ وأغراضه البحثية)، ثم عصر النهضة Renaissance الذي يبدأ عادة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، وقد يجري تقسيمه أيضا إلى مرحلتين أولها مابين ١٤٠٠-١٦٠٠م ويطلق عليها عصر النهضة Renaissance ، والأخرى مابين. ١٧٠٠-١٨٠٠م، وتعرف بفترة مابعد عصر النهضة Post Re-naissance . وقد رأينا لأغراض بحثنا، وحتى نتمكن من دراسة تطور ظواهرنا بدقة، أن نقوم في بعض الأحيان بدراسة فترات زمنية متداخلة نغطيها بأكثر من حضارة، وهو ماحدث عند دراسة الحضارات القديمة، وفي أحيان أخرى نحدد

فترة زمنية انتقالية نتمكن من خلالها متابعة التسلسل المنطقي للتطور، إذا ما رأينـا أن هذه الفترة تتميز بخصائص تنفرد بها عن سواها وهذا ماحدث عند دراستنا للحضارة الأوربية التي قمنا بتقسيمها إلى فترة العصور الوسطى، وفترة المرحلة الانتقالية، وفترة عصر النهضة.

إن هذا الكتاب، الذي يعتبر مدخلا تاريخياً للكتب والمكتبات، كُتب أساسا لطلاب أقسـام علوم المكتبـات والمعلومات، وطلاب أقسام التاريخ والحضارة بالجـامعـات العربية. ونأمل أن يرى فيه زملاؤنا رؤية جديدة وتناولاً مختصراً لموضـوع طالما تطلعنـا فيه إلى كتـاب يوجز هذا التاريخ، ويبيِّن دور الكتابة والكتب والمكتبات عبر الحضارات الإنسانية. وأيا كان الأمر فإن هذا الكتاب موجـه، أيضـا، للجمهور الأوسع من القراء الذين يودون التعرف على قصة الكتـاب والمكتبات عبر الحضارات الإنسانية. نأمل أن تتحقق الفائدة المرجوة التي نبتغيها منه، والله من وراء القصد.

سيِّد حسب الله ـــ محمد جلال غندور

العليا ـ الرياض

في
٢ رمضان ١٤١٦هـ
٢٢ يناير ١٩٩٦م

الفصل الأول
دراسة تحليلية للمفاهيم الأساسية

تمهيـــد :

لقـد وجـدنا من الضروري قبل الخوض في دراسة ظاهرة الكتابة، وموقف الكتاب، ونشأة المكتبات عبر الحضارات، أن نقوم بإلقاء الضوء على المفـاهيم الأساسية التي تتعلق بهذا الموضوع، ونعني بها «الكتابة» و«الكتاب»، و «المكتبات». وسوف نحاول في هذا الفصل أن نتعرف على جوهر هذه المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بها، مع عرض سريع لنشأتها في المجتمعات، والتطورات التي مرت بها من خلال رؤية تأصيلية شاملة، وغرضنا من ذلك هو إتاحة فرصة أفضل للقاريء للتعرف على الأبعاد المختلفة للمصطلحات التي يدور حولها البحث، والمفاهيم التي ترتكز عليها الدراسة.

وبالرغم من أن التعرض لكل مصطلح منها سيتم في دراسة منفصلة، إلا أن القاريء سيلاحظ وجود خط فكري موحد يربط فيما بينها، وأن المفاهيم التي طُرحت فيها تمثل نسيجاً واحداً مترابط الخيوط، يجعل منها وحدة بحثية واحدة، تؤدي في نهاية الأمر إلى إعطاء صورة واحدة متكاملة المعالم، ذات إطار واحد يضم المصطلحات الثلاثة.

الكتــابة :

يرجع تاريخ الكتب والمكتبات إلى الوراء فيما يقرب ثلاثة آلاف سنة أو يزيد، ويُعـد هذا التاريخ ـ بحق ـ مرآة تعكس تاريخ الكتابة في الحضارة الانسانية. فواقع الأمر أنه بدون كتابة لا توجد كتب، وبدون

الكتب، لن توجد المكتبات. ولذا لن نجافي الحقيقة، إذ قلنا أن تاريخ الكتابة يُعد أقدم بكثير من تاريخ الكتب والمكتبات.

والكتابة لها تاريخ موغل في القدم، يرجع إلى العصور الأولى من التاريخ الإنساني، منذ بداية قيام المجتمعات الإنسانية البدائية، وشعور الإنسان بحاجته إلى تسجيل الظواهر الطبيعية المحيطة به، والأحداث التي يمر بها، وأفعاله الحياتية التي يمارسها، فكان التسجيل على جدران الكهوف التي يسكنها، وعلى الصخور وجذوع الأشجار، وعظام الحيوانات التي اتخذ منها سطوحا لكتاباته، وبالأحرى تصاويره ونقوشه المتواضعة. ورغم بساطة التسجيلات وبدائية الوسائط، حيث أنها لم تتعدّ مرحلة النقوش والرسومات التي تمثل الحياة في ذلك الوقت، إلا أنها كانت وسيلة ناجحة يعبر بها الانسان عن نفسه بشكل مكتوب، وتجسيداً حقيقيا لرغبته في مد قنوات الإتصال مع أفراد مجتمعه - من جهة - وشعوره الخفي المستند على طبيعته البشرية - من جهة أخرى - في أن يترك أثرا ما بطريقة ما يخلد بها وجوده المادي المتصف بالفناء، ويستطيع عن طريقها الإتصال بالأجيال اللاحقة التي سوف تأتي من بعده، حيث يترك لهم رسالة تمثل أنماط الحياة في بيئته وعصره، وتحفظ لهم تاريخهم.

بداية من تلك الممارسات الكتابية البدائية، بدأ التاريخ للكتابة في الحضارة الإنسانية وبدأت الكتابة مسيرتها التطورية لتمر بمراحل عدة لتصل إلى ماهي عليه في عصرنا الحديث. والمتتبع لمسار المعرفة المسجلة يجد أنها مرت بالمراحل التالية: نقوش وتصاوير تطورت إلى رموز، ثم تحولت إلى حروف بدائية، نشأت عنها أبجديات صوتية، أدَّت في النهاية إلى الكتابة الحديثة العصرية.

يُعرِّف العلماء «اللغة» بأنها وسيلة الإتصال بين الجنس البشري تأخذ شكل الأصوات المنتظمة، وبالرغم من أننا لا نعلم شيئا عن الأصول الحقيقية لنشأة اللغة، إلا أن العلماء لا يختلفون في كونها وسيلة إتصال

أقدم بكثير من وسائل الإتصال المكتوب. بعبارة أخرى، إن نشأة اللغة سبقت كثيراً نشأة الكتابة في المجتمعات البشرية، وهي - أي اللغة - خاصية فريدة يتميز بها بني البشر. ويقسِّم العلماء اللغة إلى مجموعات متشابهة في خصائصها، ويطلقون عليها أسم الفصيلة، حيث تجسد كل فصيلة أصلا لغويا مختلفا عن الفصائل الأخرى، وتُعد الفصائل السامية، والهندية، والأوروبية من اكبر الفصائل وأكثرها أهمية.

أما الكتابة فتعرَّف بأنها التدوين المرئي للغة، وتستند في ذلك على المعيار الصوتي، وقد ابتدعها الإنسان في محاولة منه لوضع الرموز التي تعبر عن جميع الأصوات التي يصدرها عندما يتكلم لغة دون غيرها، ولذا نجد أن لكل لغة أبجدية مكتوبة خاصة بها، تُجسد عن طريق التدوين المنظور، المفاهيم المرتبطة بالأصوات التي يصدرها المتحدثون بهذه اللغة. ويقوم العلماء بتقسيم الكتابة إلى ثلاثة أنواع رئيسية، تمثل كل منها حقبة زمنية ومرحلة تطورية في تاريخ الكتابة منذ نشأتها في المجتمعات الإنسانية:

١ - الكتابة بالصور (أو الكتابة التصويرية) PICTOGRAPHIC

وهو مصطلح مركب من لفظين PICTO ويعني صورة أو رسم، و GRAPHIC ويعني مكتوب أو مرسوم أو منقوش، وهي كلمات من أصول لاتينية قديمة. ويعني هذا المصطلح الكتابة التي تعتمد على التصاوير، وفيها يقوم الحرف بتمثيل شيء أو مفهوم، والتصاوير هنا قد تتعلق بأشياء حقيقية متواجدة في الطبيعة المحيطة بالإنسان، أو أشياء مُتخيله أفرزتها العقلية البشرية لتُعبر عن شيء ما وتجسدة. وهذا النوع من الكتابات، هو ما كان مستخدما في المجتمعات الإنسانية الأولى. وينتمي إلى هذا الشكل الكتابي التصاوير، والنقوش المختلفة، التي وجدت على جدران الكهوف والصخور وجذوع الأشجار، وبعض المواد البدائية كالعظام، التي استخدمها الإنسان الأول كمواد كتابية. وبالرغم من بدائية وبساطة هذه الوسيلة كأسلوب كتابي للتعبير عن المفاهيم بالظواهر الاجتماعية

المختلفة؛ إلا أنها تُعد الأساس الذي استند عليه تطور الكتابات في العصور اللاحقة. وعندما نمت المجتمعات البشرية وتطورت، وقامت الحضارت بكل ما يحيط بها من ممارسات اجتماعية أكثر تعقيدا وتشابكا من تلك التي كانت تمارس من قبل، أصبح ذلك الأسلوب الكتابي غير صالح للتعبير عن كل هذه المفاهيم والمعطيات الاجتماعية الجديدة، وغير قادر على أن يكون لغة اتصال مكتوبة ناجحة، وأدى ذلك إلى محاولة الإنسان لاستنباط أُسلوب أكثر تطوراً لمقابلة احتياجاته المعرفية الجديدة، مما أوجد الظروف المناسبة لظهور المرحلة الثانية من تطور الأسلوب الكتابي.

٢ ـ الكتابة الرمزية IDEOGRAPHIC

وهو ـ أيضا ـ مصطلح مركب من لفظين IDEO وهو بادئه معناها فكرة أو رمز، أما الجزء الثاني (GRAPHIC) فقد سبق لنا شرحه، وترجع أصولها ـ أيضا ـ إلى اللغة اللاتينية القديمة. يقوم الحرف أو الرمز فيها بتمثيل كلمة كاملة وتجسيد مفاهيمها، وهي درجة أكثر تطوراً ورُقيا لتعبير الإنسان عن ذاته وبيئته، فهي تُعد نوعاً من التجريد والرمزية في التعبير عن المفاهيم المادية والمعنوية في المجتمع. وقد بدأ هذا النوع من الكتابة مع قيام الحضارات الإنسانية الكبرى، حيث زادت المعارف الإنسانية وتنوعت، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود سجلات ووثائق مدونة للمساعدة في إدارة شئون الدولة السياسية والاقتصادية وتنظيمها، بالإضافة إلى كتابة النصوص الدينية والتعاليم العقائدية، وصياغة المفاهيم الفكرية والفلسفية وما يصاحبها من مفاهيم، عجزت الكتابة التصويرية عن تجسيدها والتعبير عنها. ومن أهم كتابات الحضارات القديمة التي تنتمي إلى هذا الشكل الكتابي، اللغة الهيروغلفية التي استُخدمت في الحضارة المصرية القديمة، في العصر الفرعوني، والكتابة الصينو ـ تبتية التي استُخدمت في الحضارة الصينية في الشرق الأقصى. أما الكتابة المسمارية التي استُخدمت في الحضارة السومرية، فيعدها العلماء الحلقة

الـوسيطة ما بين الكتابة الرمزية والمرحلة التي تليها التي استخدم فيها الكتابة الصوتية.

٣ ـ الكتابة الصوتية PHONO GRAPHIC

وهو مصطلح مكون من لفظين PHONO وهي بادئة معناها صوتي، و GRAPHIC سبق شرحها. ويتم تعريفها لغويا بالرسم الصوتي، ويعني رسم الكلمات وفقـا للفـظها. ويتم، باستخدام هذا الأسلوب، كتابة الكلمات بحروف وفقا لطريقة لفظها، وتُعد الكتابة الصوتية، المنشأ والمرتكز الذي قامت عليهِ الكتابة في العصر الحديث. وحقيقة فإن الكتابة الصوتية لها عميق الأثـر في اكتشـاف الأبجـديات، فعنـدمـا يكون الهدف من الكتابة، هو كتابة حرف واحد، لكى يرمز إلى ملفوظة صوتية واحدة، تكون النتيجة ظهور أبجدية كاملة.

ويُرجع الكثيرون، الفضل في وضع أُسس اللغة الصوتية إلى الحضارة الفينيقية، التي قامت شعوبها، بتطوير لغات الشعوب المعاصرة لها لتخرج لنا بأبجدية تُعد أساساً للكتابة الصوتية. وإن كان البعض يشير إلى أن فضـل الفينيقيين يقتصر على تقنـين استخـدام الكتابة الصوتية ووضع قواعدها، أما الكتابة الصوتية في حد ذاتها فقد بدأت في زمن سابق لهذه الحضارة، فالكتابة المسمارية كانت تحتوي على خصائص الكتابة الصوتية، كما أن الأبجدية القديمة للغة السنسكريتيه ـ وهى سابقة للغة الفينيقية ـ قد حققت نجاحا كبيرا في هذا الإتجاه، وتُعد بحق كتابة صوتية متطورة. وأيا كان ترتيب جدول الأسبقية، فقد لعب الفينيقيون دوراً مقدّرا ومهماً في إيجاد كتابة صوتية، استندت عليها شعوب الحضارة اليونانية فيما بعد، لتـطوير الأبجـدية اللاتينية القديمة، لتنشأ في العالم أول كتابة صوتية حقيقية بمقاييس العصر الحديث.

الوسـائط الكتـابية :

١ ـ مادة الكتابة :

ارتبـطت الكتـابـة ارتبـاطـا وثيقـا بالمـواد الكتـابية التي استخدمت

لتسجيلها، ولهذا، تُعد الأشكال المادية للوسائط الكتابية، بمثابة الوعاء الحافظ للفكر المكتوب، ومن البديهي أنه كلما ارتفعت صلاحية الوعاء وقدرته على حفظ المعلومات سليمة وواضحة ومقروءة لفترة زمنية أطول، كلما زادت قيمته لمجال الكتابة والتسجيل والحفظ، إلا أن هنالك عوامل أخرى قد تتدخل لتقييم الوعاء كشكل مادي للتسجيلات المكتوبة. إذ لو أخذنا بالمعيار السابق وحده، وهو صلاحية الوعاء وقدرته على حفظ المعلومات سليمة وواضحة ومقروءة، لوجدنا أن الحجارة والرُقم الطينية والمعادن والأخشاب، والعظام، هي أصلح أنواع الوسائط الكتابية لحفظ المعلومات، حيث أنها أكثر قدرة وتحملاً لعوامل الزمن والظروف الطبيعية والمناخية التي تعمل على إتلاف وتدمير الوسائط الكتابية بمرور الوقت، ولكننا نجد أنه بالرغم من تلك الخاصية المميزة لهذه الأنواع من الوسائط، إلا أنها لم يكتب لها البقاء، ولم تستطع منافسة الوسائط الجديدة التي ظهرت واكتُشفت في الحقب الزمنية اللاحقة، فقد ظهرت وسائط أخرى، وإن كانت أقل منها ـ بكثير ـ فيما يتعلق بقوة تحملها وعمرها الافتراضي، إلا أن الإنسان فضل استخدامها لميزات أخرى فيها تتعلق بالشكل الخارجي، والليونة والنعومة، وقابليتها للتشكل، ومظهرها الجمالي، وسهولة حملها ونقلها، ويسر تنظيمها وترتيبها، ومميزات أخرى كثيرة، رأى الإنسان أنها تسهِّل مهمته في الأعمال الكتابية التي يقوم بها.

وكما ارتبطت الكتابة، بالوسائط الكتابية، فتلك الأخيرة ارتبطت بدورها ارتباطا قويا بالبيئة التي تنتج فيها المعلومة وتسجلها. فنجد أن المادة الكتابية ارتبطت دائما بالبيئة المحيطة بالمجتمع المنتج للكتابة، ففي المجتمعات البدائية الأولى، قبل أن يكتسب الإنسان أي مهارة حرفية أو يدوية يُعتد بها، كان الإنسان يستخدم الوسائل البدائية غير المصنعة المتاحة له. وكانت المواد المستخدمة تعكس مفردات بيئته، فكان يبحث حوله عن الوسائط المتوافرة التي تصلح أن تكون مادة للكتابة عليها، فحينما توجد الكهوف يسجل على جدرانها، ومتى وجدت الحجارة

يستخدمها، وإذا أُحيط ببيئة نباتية يقوم بالكتابة على جذوع الأشجار ولحائها، وإن وجدت حيوانات يكتب على عظامها، وإن كانت بالقرب منه مصادر للمياه استخدم عظام الحيوانات البحرية كالسلاحف وغيرها. وعندما ارتقى الإنسان بفكره وبمهارته أصبح أكثر قدرة على استنباط مواد جديدة، نتيجة لزيادة مهاراته الحرفية واليدوية، وبدأ في تصنيع مواد للكتابة تتناسب ومقدراته الجديدة، ولكنه ـ أيضا ـ لم يذهب بعيداً عن بيئته. ففي الحضارة المصرية القديمة، قام المصريون باستخدام أوراق نبات البردي، الذي كان ينمو بكثرة على ضفاف النيل، بينما اتجه السومريون والبابليون والآشوريون إلى استخدام أقرب الوسائط إليهم وهي تربة أرضهم الطينية الغنية بالمواد المعدنية التي تصلح لصناعة أجود أنواع الصلصال المحروق، ليخرجوا إلى العالم بالرُقم الطينية، التي استخدموها كوسيط رئيسي للكتابة في حضارتهم، في حين نجد استخدام عظام درقة السحلفاة وشرائح البامبو المقطعة طوليا، التي وجدت بكثرة على ضفاف أنهار يانسه كيانغ، وهو وانغ ـ فو في الحضارة الصينية، وعندما ارتفعت مهاراتهم الصناعية بدرجة اكبر بدأو يكتبون على الحرير المصنع، نتيجة لوجود دود القز الذي أمدهم بالمادة الأولية لصناعة الحرير، ثم توجوا ذلك في النهاية بصناعةالورق الذي ظل قصراً عليهم ردحاً من الزمن قبل انتشاره فى العالم.

وكما ارتبط الوسيط الكتابي بالبيئة وتطور المجتمعات، فإنه إرتبط أيضا، بالاتصالات والعلاقات التجارية، والاحتكاك الدولي السلمي والعسكري. وفي هذه الحالة نجد أن استخدام وسيط الكتابة لم يعد مرتبطا بالبيئة التي أنتجته، بل أصبح يتعداها إلى مناطق جغرافية أخرى، وأصبح يستخدم مع بيئات أجنبية عنه من حيث النشأة والتصنيع. وقد أدت تلك الظاهرة المتعلقة بانتقال الوسيط الكتابي من بيئته الأصلية إلى بيئات أجنبية عنه، إلى عدة تعقيدات، أثَّرت على استخدامه وصلاحيته، وبالتالي على الإنتاج الفكري المدون عليه. ولتفسير هذه الظاهرة، نرجع

إلى المسلّمة العلمية التي تقول بأن المادة المصنعة تتصف بطبيعتها المؤقتة، فإذا إرتبط تصنيعها بتقنية غير متقدمة، أدى ذلك الى قصر عمرها الافتراضي، حتى لو استُخدمت في بيئتها الطبيعية، فإذا أُضيف إلى هذه المسلمة خروج المواد إلى بيئات أجنبية عنها، وخاصة إذا لم تكن معالجة بطريقة جيدة، بحيث تستطيع مقاومة العوامل الطبيعية المختلفة، فإن قدرتها على مقاومة عوارض الزمن وتقلبات الأجواء تصبح في الحد الأدنى لها.

وهذا ما حدث بالفعل مع الكثير من الوسائط الكتابية التي استُخدمت في الحضارات القديمة، فعندما استخدم اليونانيون أوراق البردي التي استجلبوها من مصر عن طريق التجار الفينيقيين، لم تتحمل لفائف البردي العوامل الجوية في بلاد اليونان التي تتميز بالبرودة وارتفاع درجة الرطوبة، مما أدى إلى تلف أوراق البردي، وبالتالي إلى ضياع الكثير من التراث الفكري اليوناني المكتوب على هذا الوسيط. كما أن التقنية غير المتقدمة التي استخدمت لصناعة الرق من جلود الحيوانات أدت بدورها إلى فساد معظم قطع الرق التي أنتجت في الحضارات القديمة، خاصة في الحضارات الكلاسيكية،اليونانية والرومانية، ولم يتبق منها إلا القليل، وكان هذا أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى أن الانتاج الفكري اليوناني لم يصل إلينا كاملا.

ولذا نجد أن ما وصلنا من إنتاج مكتوب من الحضارات القديمة ارتبط ارتباطا وثيقا بنوعية المادة الكتابية، والبيئة التي نشأت فيها، وطريقة تصنيعها، ومكان استخدامها، وكيفية حفظها. وعموما نستطيع القول بأن ما وصلنا من تراث مكتوب، أيا كان الوسيط المادي المستخدم، قد توافر له العوامل البيئية، والتقنية، والرعاية البشرية التي ساعدت على بقائه.

وقد استخدم الإنسان مواد كتابية كثيرة، منها الذي استخدم بصورته الموجود بها في الطبيعة كالحجارة والأخشاب وعظام الحيوانات، ومنها ما

عولج معالجات بدائية، كالرُّقم الطينية، والبامبو ولحاء الأشجار، ومنها ما تم تصنيعه بطرق تقنية أكثر تعقيداً كالبردى، والرق، والأنسجة الحريرية، والكتابية، والورق. وقد اخترنا أربعة أشكال من هذه المواد، لنقوم بدراستها بشيء من التفصيل، وتوخينا في اختيارنا أن تكون من أشكال المواد الكتابية الرئيسية التي شاع استخدامها في أكثر من حضارة، واستمرت على الساحة الحضارية حقباً زمنية طويلة، ووصل إلينا منها في العصر الحديث، ما يؤكد أهميتها ومكانتها في مجال الكتابة على مر العصور.

٢ - الرُّقم (الألواح) الطينية CLY TABLETS

يرجع تاريخ الرُّقم الطينية إلى عدة آلاف من السنين قبل الميلاد. وبالرغم من أن المصادر التاريخية لم تحدد،بطريقة قاطعة،متى بدأت صناعة الرُّقم الطينية، إلا أن عددا من المراجع يشير أن بداية استخدام هذا الوسيط الكتابي ارتبط بشعوب انتمت إلى حضارات الشرق الأوسط، كانوا يقطنون المناطق التي تعرف الآن بالعراق وسوريا وتركيا، أطلق عليها المؤرخون إسم شعوب إقليم ميسوبوتاميا: MESOPOTAMIA. يُعزى إلى هؤلاء القوم الاستخدام الأول للكتابات أو بالأحرى للنقش على الرُّقم الطينية، وكانت طريقتهم في ذلك تتلخص في صناعة ألواح من الطين النييء، ويبدأون في النقش عليه وهو لا يزال طريا، ويتركونه حتى يجف طبيعيا، أو يسارعون بتجفيفه عن طريق الحرق، وقد اكتُشفت عدة آلاف من هذه الرُّقم، ولازالت محفوظة في المتاحف ومراكز الآثار في العالم، وبالرغم من المحاولات الجادة التي قام بها المتخصصون والعلماء، إلا أنهم لم يستطيعوا إلى الآن حل طلاسم الرموز المنقوشة عليها.

ومن الواضح أن هذه التقنية انتقلت عن طريق التجاور الجغرافي والتزامن الحضاري الى شعوب الحضارة السومرية المنتمية الى الرقعة الجغرافية نفسها بحيث كانت تعيش في جنوب أقليم «ميسوبوتاميا»، وقد استخدم السومريون الرُّقم الطينية كوسيط لكتابة معارفهم وعلومهم، بعد

إدخالهم بعض التعديلات على طريقة صنعة، فقد كان السومريون يقومون بطلاء الألواح الطينية باللون الأبيض ويتركون الطلاء حتى يجف ثم يبدأون بالكتابة على الألواح بأداة حادة مدببة الطرف. بينما تؤكد بعض المراجع أن السومريين ومن بعدهم البابليين والآشوريين كانوا يستخدمون في كتاباتهم كلا التقنيتين، حيث أنهم كانوا يقومون ـ أيضا ـ بالحفر على الألواح الطينية وهي لم تزل بعد لينة رطبة، وذلك باستعمال آلة غير حادة مثلثة الشكل، وبعد الانتهاء من الكتابة على الألواح، كانت توضع كاللبن المجفف في أفران كى تجف وتكتسب الصلابة. وقد وجد على أسطح بعض الألواح الطينية الكبيرة ثقوب صغيرة، يقال إنها كانت تسمح بخروج البخار منها أثناء عملية التجفيف في الأفران. وأُنتجت الرُّقم الطينية بأحجام متفاوتة، وإن كان أغلبها ينتج في أحجام صغيرة يبلغ في حجمه بضعة بوصات مربعة.

يرجع تاريخ أقدم رُّقم طيني عُثر عليه في الحضارة السومرية إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، وقد اكتشف هذا اللوح في أطلال مدينة «نيبور: NIPPUR» الأثرية، وقد عُثر في أوقات لاحقة على ألواح طينية مشابهة في الحفريات الأثرية التي أُجريت في مدن سوريا وتركيا.

قام عالم أثري بريطاني في عام ١٨٥٠ باكتشاف آلاف الرُّقم الطينية في منطقة نينوى (الموصل حاليا)، ويطلعنا التاريخ أن نينوى هذه كانت عاصمة المملكة الأشورية، والتي كانت تحتل الجزء الشمالي من إقليم ميسوبوتاميا، ويرجح المؤرخون أن هذه الرُّقم الطينية كانت جزءا من مقتنيات المكتبة الملكية التي أنشأها «سنا شريب: SENNACHERIB» الملك الآشوري، الذي حكم المملكة الآشورية خلال الأعوام ٧٠٤ إلى ٦٨١ق.م. وبحلول عام ١٨٥٣، تم العثور على مجموعة أخرى من الرُّقم الطينية في نفس منطقة الحفريات السابقة، ويرجح العلماء أن هذه المجموعة الجديدة ـ وهي تفوق سابقتها عددا ـ قد جمعها الملك «آشور

بانيبـال» حفيد «سنا شريب» السابق الذكر . وتفيد المصادر أن الملك «آشـور، بانيبال» اشتهر بولعه بالثقافة وحبه للأدب والعلم، وقد جمع مجموعة مقتنيات هائلة من الرُّقم الطينية التي كانت تمثل أوعية المعلومات والمعرفة في عصره، ووضعها في مكتبته بقصر الحكم في عاصمته نينوى. وأطلق على هذه المكتبة مسميات عدة منها مكتبة القصر ، ومكتبة آشور بانيبـال، وغيرها من المسميات، ويقال أنه جمع في هذه المكتبة كل ما تراكم من رُقم طينية في المكتبات الملكية للملوك الآشوريين، بجانب ما جمعه بنفسه من جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك.

واستمر استخدام الرُّقم الطينية كوسيط كتابي حتى بضع مئات من السنـين قبـل الميلاد، ولكن انتشـار ورق البردي في العالم وانتقاله من الأراضي المصرية عبر الموانيء الفينيفية أدى إلى تقلص استخدام الرُّقم الـطينية، والحد من انتشارها في الحضارات اللاحقة كالحضارة اليونانية والرومانية. ولذا فمن المرجح أن آخر حضارة كبيرة وعظيمة استخدمت الرُّقم الطينية كوسيط كتابي كانت الحضارة الآشورية.

٣ ـ ورق البردي PAPYRUS

ارتبـطت نشأة وصناعة ورق البردي كوسيط ومادة للكتابة بالحضارة المصرية القـديمـة في العصر الفـرعـوني. والبردي فصيلة من النباتات المفصلية الذي يصل طوله في بعض الأحيان إلى عدة أمتار ، وكان ينمو بكثـرة على ضاف النيل ومستنقعـات دلتا النيل في مصر القديمة. أما مصطلح الـ Papyrus فقد أطلقه الإغريق على هذا النوع من الوسائط الكتابية، ويقال أنه مأخوذ من إسم الميناء الفينيقي ببيلوس PAPYLUS الذي يعد المركز الرئيسي لتصدير أوراق البردي إلى البلاد اليونانية.

كان قدماء المصريين يقومون باستخدام ساق نبات البردي وهي مثلثة الشكـل، لصناعة الورق، حيث يشقون لباب هذا النبات إلى شرائح طولية رقيقـة، وبعد ضغطها تصف الواحدة بجانب الأخرى، ويوضع

فوقها طبقة أخرى من الشرائح، بطريقة متعامدة مع الأولى. ويقومون بطرق هاتين الطبقتين المتعامدتين من الشرائح بمطرقة خشبية خاصة إلى أن تلتصقا معاً. وقد يعمدون إلى استعمال صمغ خاص ليساعد على عملية الالتصاق، أو يعتمدون على العصارة الصمغية الكائنة في هذه الشرائح. وأيا كانت وسيلة الالتصاق فإن لفائف البردي التي وصلتنا من هذه الحضارة لا تزال محتفظة بمتانتها رغم مرور عدة قرون على إنتاجها. ومن المرجح أنهم كانوا يطلونها بنوع من الصمغ الشفاف حتى يصبح سطحها أملساً ولا تنتشر الأحبار عليه، ثم تجفف بتعريضها لأشعة الشمس، ويتم صقلها حتى يصبح سطحها لامعاً براقا، بعدها تلصق هذه الشرائح الطولية بعضها ببعض من اليسار إلى اليمين في قطع طوليه، وقد امتاز ورق البردي بالليونة والنعومة والجودة. مما جعل منه وسيطا كتابيا ممتازا في عصره. وتعد البردية التي سميت «ببردية حورس ١ HORRIS PAPYRUS I:» التي يرجع تاريخها إلى ١١٠٠ق.م من أطول البرديات التي عثر عليها في أرض الفراعنة، إذ بلغ طولها حوالي ٤١ مترا، وهي محفوظة الآن بالمتحف البريطاني بلندن.

وبالرغم من وصف البعض للبردى، بأنه وسيط كتابى هش وقابل للتلف، إلا أن الآلاف من أوراق البردي قد قاومت عوامل الزمن لعدة آلاف من السنين (اكثر من أربعة الاف سنة)، ووصلتنا سليمة وفي حالة جيدة. وأقدم بردية عثر عليها من الحضارة الفرعونية يرجع تاريخها الى حوالي ٢٧٠٠ق.م، وتشير بعض المراجع إلى احتمال رجوع تاريخ هذه البردية إلى أبعد من ذلك بكثير، وهي تدعى بردية «برس : PRISSE PAPYRUS» وتحتوي هذه البردية على حكم وأمثال بتاح حوتيب PTAH HOTEP ، وهي محفوظة الآن في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

استُخدم ورق البردي كمادة كتابية ليس في الحضارة المصرية القديمة فحسب، بل امتد استخدامه إلى الحضارات الأخرى المعاصرة لها، وتشير المصادر أن أول استخدام للبردي في الحضارات الأخرى كان في حوالي

سنة ٥٠٠ق.م، واستمر هذا الاستخدام حتى سنة ٣٠٠م، في حين استمر إستخدامه في مصر حتى سنة ٩٠٠م.

ومهما قيل عن عيوب ورق البردي كمادة للكتابة، فهو يعد واحدا من أهم وأعظم الوسائط الكتابية في التاريخ، وليس أدل على ذلك، من استخدامه في الحضارة المنتجة له لأكثر من خمسة آلاف سنة، وفي الحضارات الأخرى لفترة تقدر بثمانية قرون.

٤ - جلود الحيوانات: الرق ANIMALS SKINS: PARCHMENT

يُعد الرق الذي يصنع من الطبقات الرقيقة لجلود الحيوانات واحدا من أهم الاكتشافات في مجال الوسائط الكتابية بعد ورق البردي. وقد استُخدم في العديد من الحضارات في العصر الكلاسيكي سواءً من الحضارات الوسيطة كاليونانية والرومانية، أو من الحضارات القديمة التي عاصرت العصر الكلاسيكي كالحضارة المصرية القديمة، والحضارة الآشورية، والحضارة الفارسية. وقد كان في بدايته يعتمد على تصنيع جلود الماشية، وعُرف في الحضارة اليونانية أول ماعُرف بمصطلح DIPHTERAI ، وهي تعني دفتر باللغة الفارسية، وهي كلمة من أصل عربي، أخذها الفرس عن العرب. على أن استخدام جلود الحيوانات كوسيط معروف وشائع للكتابة، لم يبدأ إلا في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وارتبطت نشأته آنذاك بمدينة برجاموم (برجاموس) (PER-GAMOM PERGAMOS) ولذلك رواية سنوردها في حينها.

وكانت جلود الضأن والماعز والعجول، الأكثر شيوعاً في صناعة الرق، وكانت تُنقع بعد تنظيفها من الشوائب، في ماء قلوي، حتى تزول عنها بقايا الشوائب الدهنية، ثم يعاد تجفيفها طبيعيا (أي بنشرها في الهواء تحت أشعة الشمس)، ثم تبدأ مرحلة الصقل، بأن تحك الجلود بمسحوق الطباشير الناعم، ثم تصقل بحجر الطلاء، حتى يصير سطحها مصقولا ناعما، وصالحاً للكتابه عليه من كلا الوجهين، وقد عُرف

عن الرق المتانة، والجودة، والقابلية للتشكل، بجانب إمكانية كشطه بسهولة، وإعادة الكتابة عليه مرة أخرى، وهي مزية لم تكن متوافرة في أوراق البردي، وقد سميت المخطوطات المكشوطة بإسم "PALIMPSESTES" وهي تعني في اللغة اليونانية القديمة «الحفر من جديد».

وقد حيكت حول نشأة الرق الروايات والأساطير، أشهرها الرواية التي تحكي قصة المنافسة الحادة بين مدينة الإسكندرية ومدينة برجاموم في الحضارة الهيلنسية، والتي تمحورت حول المكانة العلمية والثقافية لكل منهما، فالإسكندرية بأكاديميتها المعروفة (الموسيون)، ومكتبتها الشهيرة (المكتبة الكبرى) (٢٨٢ق.م)، كانت تحتل مكانا بارزا في العالم كمنارة للعلم والثقافة، وبوضعيتها هذه كانت قبلة المثقفين والعلماء في العالم الهيليني، أما مكتبة برجاموم فكانت حديثة العهد مقارنة بمكتبة الأسكندرية فقد قيل أن مؤسسها «أتالوس الأول: ATTALE 1» قد أسسها في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وقد بدأت تشق طريقها إلى الشهرة والمعرفة، بفضل اهتمام حكام برجاموم ورعايتهم لها. ويقال أن القائمين على شئون مكتبة الإسكندرية، خشوا المنافسة التي يمكن أن تؤثر على المكانة التي تحظى بها مكتبة الاسكندرية وخاصة في العالم الهيليني، من جراء ظهور مكانة مكتبة برجاموم ورفعتها، فأوعزوا إلى بطليموس الثالث، حاكم مصر في ذلك الوقت، أن يوقف شحن لفائف البردي إلى برجاموم، حتى يحرمها من الحصول على الوسيط الكتابي الرئيسي المعروف آنذاك، وبذلك يمكن أن يُحد من نمو هذه المكتبة الجديدة وتطورها. وقد استجاب ملك مصر لمطلبهم بعد اقتناعه بوجهة نظرهم، وعندما شعر أهالي مدينة برجاموم بالخطر المحيق بمكتبتهم، قاموا باستنباط مادة كتابية جديدة، وخرجوا إلى العالم بالرق كوسيط كتابي بديل للفائف البردي، وروجوا له ونشروه في أنحاء العالم المعروف آنذاك، ولذا فإن مصطلح PARCHMENT ويعني الرق، مشتق ـ حسب

الرواية ـ من أسم مدينة PERGAMON ، ولكن استخدام الرق لم يعم إلا بعد فترة طويلة، ظل خلالها يكافح منافسه العتيد ورق البردى، ولازمه مدة ثلاثة قرون ، قبل أن ينتصر على البردي تماما.

ونظرا لعدم صلاحية الرق من الناحية العملية لأن يأخذ شكل اللفافة SCROLL ، وهو الشكل المتعارف عليه في ورق البردي، فقد ابتدع النساخون وأمناء المكتبات القدامى شكلا جديداً يتناسب وطبيعة الرق، فقاموا بعمل طيات من الرق يقومون بحياكتها من المنتصف، فتأخذ شكل الصفحات المسطحة المتتابعة، وقد يعمدون إلى حياكتها وتضبيرها من أحدى نهاياتها فتعطيهم شكل الدفتر، وأوجدوا بذلك أول شكل من أشكال الكتاب المتعارف عليه حاليا. ومن الغريب في الأمر، أنه بالرغم من التنافس الحاد بين الوسيطين البردي والرق، إلا أن هناك من استخدمهما معا في إنتاج شكل جديد من أشكال الأوعية لم يكن معروفا من قبل، فقد عمد البعض، كما تشير المصادر، إلى استخدام الرق في تجليد لفائف البردي، مما أدى إلى ظهور شكل جديد تماما، وربما يُعد ذلك أول محاولة لتجليد الكتب في العالم.

ومن المرجح أنه مع بداية عصر الامبراطورية الرومانية حوالي عام ٤٧٦م، كان الرق الذي أسماه الرومان بأسم MEMBRANA ، قد أصبح الوسيط الكتابي الأول في أوربا، وحل تماما محل لفائف البردي.

٥ ـ الـورق PAPER

اشتُق المصطلح الأنجليزي Paper ، من كلمة البردي Papyrus ، وهو اللفظ الذي أطلقه اليونانيون على الورق الذي كانوا يستجلبونه من مصر عن طريق الفينيقيين، والبردى ـ كما ذكرنا من قبل ـ فصيلة من النباتات المفصلية، استخدمها قدماء المصريين لصناعة الورق، الذي عُرف بإسم ورق البردي.

ويقتصر ـ عادة ـ إطلاق مصطلح «الورق» على الألياف النباتية

المسحوقة أو المعجونة، المعالجة بالماء أو المواد الكيميائية، حيث يُعمل على تشكيلها، وتجفيفهما بتقنية خاصة، لتأخذ الشكل المسطح، ويُنتج الورق بتخانات (سماكات) مختلفة، تتوقف على نوع الورق المطلوب تصنيعه. وقد مرت صناعة الورق، منذ اكتشافه في الحضارة الصينية، بتطورات كثيرة، سواء من زاوية المواد الخام التي تدخل في صنعه، أو التقنيات المستخدمة في صناعته.

عرف الصينيون في الأزمان السحيقة، وقبل إكتشافهم لصناعة الورق عن طريق الألياف النباتية، نوعا آخر من الورق كان يُصنع من معالجة شعر الحيوانات المسحوق والمعجون بالماء، ويتم تشكيله ليأخذ الشكل المسطح، وكانوا يستخدمونه كمادة للكتابة، إلا أن هذا النوع من الورق كان يتطلب إجراءات معقدة في صنعه وتجهيزه، كما أنه لم يكن بالجودة المناسبة كوسيط كتابي، ولذلك لم ينتشر استخدامه. ويرجع الفضل في اكتشاف الورق المصنع من الألياف النباتية إلى شخص يدعى «تساى لون: Tsai Lun»، وذكرت بعض المصادر أنه كان يشغل منصب وزير الأشغال العامة، بينما ذكرت مصادر أخرى أنه كان يشغل منصباً في البلاط الأمبراطوري، في عهد الأمبراطور «هو تي: Ho - ti»

وتتلخص طريقة «تساى لون» في صناعةالورق، التي قدمها عام ١٠٥م، بالقيام بفصل الأجزاء الداخلية للحاء شجرة التوت، وطحنها ثم تحويلها إلى عجين بعد مزجها بالماء، ثم تشكيلها على شكل فرخ، وذلك عن طريق تسطيحها على سطح أملس مستوٍ، وتركها حتى تجف، لنحصل في النهاية على فرخ ورق، يمكن الكتابة عليه. وفي وقت لاحق، اكتشف الصينيون كيفية تصنيع الورق من مواد خام أخرى، مثل نبات القنب، والكتان، والأسمال البالية والشباك القديمة بعد طحنها وتحويلها إلى عجينة ورقية، ثم معالجتها بنفس الطريقة السابق شرحها.

استمرت صناعة الورق قاصرة على شعوب الحضارة الصينية لمدة

تقارب الخمسة قرون. بدأت بعدها في الانتشار تدريجياً في المجتمعات الحضارية المحيطة بهم، وهناك دلائل تاريخية تشير إلى دخول مخطوطات تنتمي إلى طائفة كهنة العبادة البوذية (نسبة الى بوذا)، مصنوعة من ألياف شجر التوت، ويرجع تاريخها إلى ٦١٠م.

ولم يبدأ إنتشار صناعةالورق خارج حضارات وشعوب الشرق الأقصى، إلا بعد مرور اكثر من ستة قرون على اكتشافه في الصين. ومن الطريف أن انتشار صناعة الورق، أخذت مساراً، يطابق إلى حد بعيد، ذلك الذي أخذه مسار مايسمى بـ «طريق قوافل الحرير» وهو المصطلح الذي يطلق على الطريق الذي سلكته المصنوعات الحريرية عبر العالم الشرقي إلى أن وصلت إلى أوربا.

وتحكي المصادر التاريخية، عن كيفية انتقال أسرار صناعةالورق من الحضارة الصينية إلى العالم، وترجعُ بنا إلى عام ٧٥١م، حين وقعت معركة حربية بين المسلمين والجيوش الصينية في سمر قند، بمناطق التركستان الروسية، كان من نتائجها وقوع العديد من الأسرى الصينيين في الأسر، وكان من بينهم صناع ورق مهرة، وقد شجَّع المسلمون الأسرى الصينين على تصنيع الورق وتعليمهم أسرار صناعته. وقد كان لتوافر المواد الخام الأولية اللازمة لصناعة الورق بسمر قند، مثل ألياف وخيوط الكتان، ونبات القنب، ومصادر المياه، أكبر الأثر في نجاح هذه الصناعة وتطورها في سمرقند.

انتقلت صناعةالورق عن طريق سمرقند إلى بغداد عام ٧٩٥م، ومنها إلى دمشق ومصر، والمغرب. وكنتيجة لاحتكاك الشعوب الأوربية بالحضارة العربية خلال الحروب الصليبية، ووجود دولة الأندلس وحضارتها في أوربا، بدأت المجتمعات الأوربية في التعرف على هذه الصناعة. ومن المرجح أن دخول صناعة الورق إلى الحضارة الأوروبية بدأ منذ القرن الثاني عشر الميلادي، أي بعد مرور حوالي أحد عشر قرنا من اكتشافه في الصين.

تم إنشاء أول مصنع للورق في أوربا، في مدينة «جاتيفا: Jativa» ، في اقليم «فالنسيا: Valencia» بأسبانيا عام ١١٥٠م. وتوالت بعد ذلك اقامة مصانع للورق في أوربا. ففي عام ١٢٧٦م، اقيم مصنع للورق في «فابريانو: Vabriano» بايطاليا، وآخر في فرنسا عام ١٣٣٨م بمدينة «تروية: Troyes». وقام رجل الصناعة الألماني «أولمان ستورمر : "Ulman Stormor" بإقامة مصنع ورق بمدينة «نور نبرج» بألمانيا عام ١٣٩٠م. أما في انجلترا فيرجع الفضل إلى «جون تات: John Tat» ، في إقامة أول مصنع ورق في الجزيرة البريطانية عام ١٤٩٤م. وانتشرت بعد ذلك صناعة الورق في أوربا بشكل كبير، فدخلت إلى بولندا عام ١٤٩١م، والنمسا عام ١٤٩٨، وروسيا عام ١٥٧٦م، والدنمارك عام ١٦٣٥، أما النرويج فلم تدخلها هذه الصناعة إلا بنهاية القرن السابع عشر عام ١٦٩٠م.

أما في العالم الجديد، فيُرجع الفضل في دخول هذه الصناعة إلى «سبانياردز: Spaniards » الذي أقام أول مصنع للورق في «مدينة مكسيكو: Mixico City »، في أمريكا الشمالية، عام ١٥٧٥م. أعقبه قيام مصنع آخر قام بإنشائه «ويليام ريتنهاوس: William Rittenhouse عام ١٦٩٠م، في مدينة «جيرمان: Germantown ». وكان على كندا أن تنتظر حتى عام ١٨٠٣م لتعرف صناعة الورق، حيث قام «سانت أندريه دي أرجنتيه: St. Andre d Argenteuil» في هذا العام بإنشاء أول مصنع للورق على الأرض الكندية في أقليم الكيوبك: Quebce »

ظلت صناعة الورق لعدة مئات من السنين وحتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، تعتمد على الأساليب اليدوية التقليدية، وعلى تقنيات صناعية بسيطة، لم تتطور كثيرا عما كانت عليه صناعة الورق في العصور القديمة، فكان كل فرخ من الورق يصنع يدويا عن طريق طحن الخرق والأسمال البالية، وقطع القماش القديم، وتحويلها إلى عجين ورقي سائل، داخل راقود ضخم مخصص لهذا الغرض، ثم يقوم الصانع

بغمس غربال في السائل الورقي، ثم تصفيته من المياه، وترك المادة الورقية حتى تجف. وكانت تلك التقنية باهظة التكاليف وتأخذ وقتا طويلا، فأفضل العمال المهرة، لم يكن ليستطيع أن ينتج يوميا أكثر من (٧٥٠) فرخاً من الورق. وحدث أول تطوير لهذه الصناعة عام ١٧٥٠م، حين قام مخترع فرنسي بانتاج آلة تقوم بتقطيع وطحن الأقمشة والأسمال البالية وغيرها من المواد الخام، وتحويلها إلى عجينة ورقية بطريقة آلية. وأدى هذا الكشف إلى اختصار الزمن الذي كانت تستغرقه هذه العملية عندما كانت تُجرى يدويا، إلا أن هذا التطور لم يكن كافيا، ولا مرضيا للقائمين على أمر هذه الصناعة.

وحدث التطور الحقيقي والأكثر أهمية في هذه الصناعة، عندما قام المخترع الفرنسي «نيكولا لويس روبير: Nicholas Louis Robert » عام ١٧٩٨م، باختراع ماكينة تقوم بصناعة الورق على شكل بكرات، عوضا عن الشكل المسطح الذي كان يُصنع به من قبل. وعُد هذا الاختراع - في ذلك الوقت - تطوراً هائلا في صناعة الورق، منذ بداية اكتشافه في الحضارة الصينية، حيث أمكن عن طريق هذه التقنية الجديدة، مضاعفة الكميات المنتجة من الورق، وبذلك زادت إنتاجية المصانع وتراجعت تكلفة الإنتاج.

كان الاختراع الفرنسي بداية لمزيد من التطورات والتعديلات في مجال صناعة الورق في أوربا، حيث قام كل من «جون جامبل: John gamble »، والأخوان «فوردرينر: Fourdrinier » في انجلترا بإجراء تعديلات على ماكينة «روبير: Robert» الفرنسية، وطرحوا ماكينتهم المعدلة في الأسواق عام ١٨٠١م، ولكنها لم تكن بالكفاءة المطلوبة، فأعادوا التجربة مرة أخرى، بعد استعانتهم بالمخترع الإنجليزي «بريان دانكن: Brian dan-kin »، وأنتجوا هذه المرة ماكينة ناجحة صناعيا وتجاريا، وطُرحت في الأسواق عام ١٨٠٥م، ولاقت رواجا كبيراً في مجال صناعة الورق.

قام مخترعون آخرون من جنسيات أوربية مختلفة باختراع العديد من الماكينات المشابهة في تقنياتها لتلك التي أُنتجت من قبل، ولم تتغير بذلك تقنيات صناعة الورق لفترة طويلة، حتى بداية اكتشاف صناعة الورق من لُب الأخشاب المُعالج بالمواد الكيميائية. وقد قام بأولى المحاولات الناجحة لتصنيع الورق بتقنية لُب الأخشاب المعالج كيميائيا، المخترعان «هوج بيرجس: Huge Buress ، وتشارلز وات: Charles Watt » عام ١٨٥١م. ثم طور كل من «بنيامين سى. تيلجهمان: Benjamin C. Tilghman» الأمريكي الجنسية، ومن بعده «كارل داهل: Carl F. Dahl: الكيميائي الألماني، هذه التقنية باستخدام عجينة ورقية مصنعة من لب الأشجار المعالج كيميائيا بحامض الكبريتات. وقد طبقت هذه التقنية بنجاح عام ١٨٨٤م، وأثبتت صلاحيتها كتقنية معتمدة لصناعة الورق بطريقة أقل تكلفة وأكثر جودة من كل التقنيات السابقة، ولا تزال أساسيات تلك التقنية مستخدمة إلى الآن في صناعة الورق في القرن العشرين.

أدوات الكتابة:

تباينت الأدوات المستخدمة في الكتابة، على مدى العصور التاريخية، ولم يكن لهذا التباين علاقة برغبة الإنسان في التجديد أو التطوير ـ فتلك كلها ظواهر مرتبطة بالعصر، بل كان دائما على علاقة وثيقة بالمادة التي استُخدمت كوسيط كتابي، فكل شكل من أشكال المواد الكتابية القديمة، تميز بطبيعة خاصة من زاوية الصلابة ونعومة السطح أو خشونة ملمسه، ولذا فكل منها كان يحتاج إلى أدوات خاصة للكتابة عليها. ولذلك نجد أن الاختلاف في أدوات الكتابة كانت له مبرراته العملية والتطبيقية، فألواح الطين ـ مثلا ـ كانت تتميز بصلابتها وخشونة سطحها، ولذا كانت تحتاج إلى أداة كتابية حادة ومدببة، بينما كانت وسائط أخرى كأوراق البردي لم تكن لتتحمل تلك الأدوات الحادة نظراً لرقة سطحها مقارنة بالرُّقم الطينية، في حين أن وسيطاً كالحرير، برقة

نسيجه ونعومته، لم يكن ليتحمل بأي حال من الأحوال أي حدة في الأداة المستخدمة للكتابة عليه. وعند ظهور الورق كان لزاما على النسَّاخين إيجاد الأداة الكتابية المناسبة للكتابة عليه سواء باستنباطها، أو بتطوير ماهو كائن من أدوات. وهكذا نجد أن استخدام أدوات الكتابة كان ـ دائماً ـ متوقفا على الوسيط الكتابي المستخدم في الحضارة أو الحضارات التي كانت تستعمل مثل هذه المواد كوسيط كتابي.

وقد استخدم قدماء المصريين سوقا من الغاب (البوص) الرفيع، وكان يبرى بريا مائلا بحيث يمكن الكتابة به بالصورة التي يريدها الناسخ، ويستطيع أن يستخدمها للخطوط الغليظة أو الدقيقة تبعا لنوع الخط المطلوب. وقد استخدم قدماء المصريين أيضا نوعا من الأقلام الخشبية المبرية بريا مدببا، ويسمح هذا الشكل بالحصول على كتابات أكثر دقة، وقد استخدمت هذه الأدوات للكتابة على أوراق البردي، وكانت هي الأداة المناسبة لها. أما الأحبار التي كانت تستخدم في هذه الحضارة، فقد روعى فيها أن تكون مناسبة للأداة والوسيط، فكانت تصنع من الصناج أو الفحم النباتي مخلوطا بالماء والصمغ، ومن الواضح أن صناعة الأحبار في الحضارة الفرعونية كانت متقدمة للغاية، فقد حافظت كتابات الفراعنة على ألوانها الناصعة الجميلة لعدة آلاف من السنين. واستخدم قدماء المصريين أدوات كتابية مساعدة، مثل المسطرة التي كانت تصنع من مادة الخشب، وكانت تستخدم في تسطير أوراق البردي ولفافاته، حتى يمكن الكتابة عليها بخطوط مستقيمة ومعتدلة، كما أنهم استعملوا المقلمة وهي قطعة مستطيلة ورقيقة من الخشب، كانت تستعمل لحفظ الاقلام والأحبار، وكان يوجد بها مجرى للقلم، وفجوتان أو أكثر للأحبار، كما كان لديهم أوعية خاصة تصنع من الخشب أو الفخار، تُستخدم بمثابة أوعية خارجية للفائف البردي، بغية المحافظة عليها من التلف.

أما في حضارات مابين النهرين، حيث كان وسيطهم الكتابي الرُّقم والألواح الطينية التي امتازت بالصلابة والقوة، فكانت الكتابة تتم

باستخدام قلم يأخذ شكل الوتد أو الإسفين، يصنع من المعدن أو العاج أو الخشب، يحفر به الناسخ على اللوح أو الرُّقم الطيني غير الناضج ثم يتركه حتى يجف ويصبح يابسا كالحجر .

وفي الحضارة الصينية، حيث كانت الوسائط والمواد الكتابية متنوعة، فقد أختلفت بالتالي الأدوات التي تستخدم للكتابة عليها، فكانوا يستخدمون أقلاماً مدببة الأطراف مصنوعة من المعدن للحفر على الألواح الخشبية، ثم استخدموا فيها بعد أقلاما من الغاب الرفيع يبرى بشكل مائل ويغمس في الأحبار ثم يكتب به على الخشب. وعند استخدامهم للحرير كانوا يستعملون فرشاة من وبر الجمل، أُطلق عليها باللغة الصينية أسم «بي»، واستمر استخدام هذه الأداة أيضا مع الورق بعد اكتشافه في عام (١٠٥م)، بجانب استخدامهم لأقلام الغاب السابق ذكرها في الكتابة على الورق. أما الأحبار فكانوا يصنعونها من السخام أو أسود العاج، مع إضافة الصمغ أو الغراء. وفي القرن الثاني الميلادي بدأوا يستخدمون نوعا من الأحبار يدعى بالحبر القياسي، الذي كان يحتوي على حامض التانيك. وقد صار هذا النوع اكثر استخداما وشيوعا منذ ذلك التاريخ. هذا وقد عرفت الحضارة الصينية أيضا الأقلام المصنوعة من ريش الطيور والعظام في الكتابة. والجدير بالذكر أن بعض الأدوات الكتابية التي كانت تستخدم في الحضارات القديمة مثل أقلام البوص، والغاب، والفرشاة، والأحبار الصينية لايزال يستخدم إلى وقتنا الحاضر .

الكتاب :

١ ـ لمحة تاريخية :

يُعد الكتاب المرحلة الوسيطة بين نشأة اللغة المكتوبة وقيام المكتبات، ولذا فمن المنطقي أن يبدأ التأريخ للكتاب في فترة زمنية لاحقة للتأريخ للكتابة. وكما ذكرنا من قبل ـ فلا وجود لكتاب في مجتمع من المجتمعات أو حضارة قديمة كانت أو حديثة، بدون أن يكون هناك أولا شكل ما

من أشكال الكتابة المتطورة، التي تصلح أن تكون وسيطاً مناسبا لتسجيل المعرفة وتدوينها. وبالتالي تساعد على إنتاج أوعية المعلومات المتضمنة لهذه المعرفة، وببداية إنتاج هذه الأوعية يبدأ التأريخ للكتاب الذي يُعد واحدا من أهم أوعية المعلومات المتعارف عليها.

تعرض الكتاب، كوعاء معرفي، وكوسيط للمعلومات والاتصالات المكتوبة،خلال تاريخه الموغل في القدم للعديد من التغييرات التي طوَّرت من شكله المادي، ومحتواه الموضوعي، وبالتالي من المفاهيم التي ارتبطت به. فالكتاب الذي بين أيدينا الآن، ليس وليدا للصدفة، ولانتاجا لفكرة عبقرية لعالم منفرد خرج علينا بها بين عشية وضحاها، بل يعد المحصلة النهائية للعديد من التجارب الإنسانية المضنية، والممارسات الفكرية والتقنية المتميزة، خلال حقب زمنية طويلة، بذل فيها الإنسان الكثير من الجهد والمال، ليحصل على هذه النتيجة.

عُرف الكتاب ـ كشكل مادي ـ في الحضارات القديمة، كقطعة خشب، أو عظام حيوان، أو لفافة بردي، أو رُقم طيني، أو طية رق، أو نسيج قماش. . الخ، وبعد اكتشاف الورق في الحضارة الصينية في بداية التاريخ الميلادي، بدأ الكتاب يأخذ ـ في تلك الحضارة ـ شكله الورقي الجديد. وبعد معرفة الطباعة (البدائية) في نفس الحضارة، بدأ التغيير في شكل الرموز والعلامات والحروف، نتيجة لتغيير تقنية الانتاج. إلا أنه من الصعوبة بمكان تحديد التاريخ الذي بدأ فيه الكتاب يأخذ الشكل الحديث المتعارف عليه حاليا، ونقصد به مجموعة الأوراق المطبوعة المجمعة معا، الموصولة من حافة واحدة، والمضبرة، والمجلدة، مضافاً إليها غلاف سميك لحمايتها وحفظها.

وتذكر المراجع أن الشكل الدفتري للكتاب لم يكن معروفاً في الحضارات القديمة، فكان الكتاب يأخذ شكل القطع المنفصلة مثل: الرُّقم، والخشب، والعظام، أو شكل اللفة والطية إذا كان مصنوعا من مادة لينة قابلة للف أو الطي مثل: ورق البردي، والحرير، والرق. أما

الشكل الدفتري للكتاب فلم يكن معروفا في الحضارات القديمة، إنما يرجع إلى نهاية الحقبة التاريخية للحضارة اليونانية، وإن كان لم يأخذ حظه من الانتشار إلا إبّان الحضارة الرومانية، وتحديدا في القرن الأول الميلادي. وأصبح شائع الاستعمال بحلول القرن الثاني الميلادي. ويعزى الفضل في ذلك إلى أتباع الديانة المسيحية والمبشرين، الذين وجدوا صعوبة في استخدام الشكل المألوف للكتاب في ذلك الوقت لكتابة الإنجيل والتعاليم الدينية، مما جعلهم يستنبطون شكلا أفضل ليخدم أغراضهم التبشيرية، والتي تتطلب حمل كتبهم وأسفارهم، والترحال بها من مكان لآخر، بغرض التعريف والترويج لدينهم الجديد. وتوصلوا إلى شكل الكتاب الدفتري لسهولة حمله واستخدامه والرجوع إليه عند الحاجة. ومن المرجح أنهم استخدموا لذلك مادة الرق لقابليتها للطى، وقوة تحملها، وطول عمرها الافتراضي. وظل استخدام كتاب الرق بشكله الدفتري كوسيط كتابي متداول حتى ظهور الورق، وانتقاله من الحضارة الصينية إلى منطقة الشرق الأوسط في الحضارة العربية الإسلامية، فعُرف الورق في بغداد حوالي سنة ٨٠٠م وانتقل منها إلى مصر بعد حوالى المائة عام في حوالى ٩٠٠م، وعن طريق دولة الأندلس وصلت صناعة الورق إلى أوربا في نهاية القرن الميلادي الحادي عشر حوالي عام ١١٠٠م، وكان لاكتشاف الطباعة في أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي، على يد «يوهان جوتنبرج» في المانيا، الأثر الكبير في تغيير الأشكال والمفاهيم التي ارتبطت بإنتاج الكتاب، سواء من زاوية الشكل المادي، أو كم وأنواع الكتب المنتجة. ولم تتوقف منذ ذلك الوقت التطورات التقنية في مجال صناعة الكتاب. ويعد دخول التقنيات الحديثة في مجال صناعة الكتاب ونشره خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بمثابة ثورة حقيقية في مجال تاريخ الكتاب منذ نشأته في العصور الأولى من التاريخ. وبذلك يمكننا تقسيم المراحل التاريخية التي مر بها تطور الشكل المادي للكتاب إلى ثلاث مراحل رئيسية:

الأولى: من بداية التأريخ للكتاب وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي.

استمرت هذه المرحلة منذ أقدم العصور وحتى منتصف القرن الميلادي الخامس عشر، تاريخ اكتشاف «يوهان جوتنبرج» للتقنيات الأولى للطباعة بألمانيا. وهي تمثل مرحلة إنتاج الكتاب المخطوط الذي كان يُصنع ويُستنسخ يدويا، حيث كان إنتاج الكتاب فيها يعتمد على تقنيات بسيطة سواءً فيما يخص وسيطه المادي أو أدوات إنتاجه. وقد ظل الكتاب فترة طويلة خلال هذه الحقبة (قرابة الثلاث آلاف سنة) يأخذ شكلا أبعد ما يكون عن الشكل الحالي المتعارف عليه للكتاب، حتى كان منتصف القرن الأول الميلادي، عندما بدأ الكتاب يأخذ الشكل الدفتري الذي يُعد ـ بحق ـ الشكل التجريبي للكتاب المعاصر. وبدائية الشكل هذه، صاحبتها ـ أيضا ـ بدائية في تقنيات الاستنساخ والطباعة، حيث كان الكتاب طوال هذه الفترة ينتج ويستنسخ بأساليب يدوية، ولم تكن الطباعة بأي صورة من صورها قد اكتشفت في معظم أنحاء العالم المعروف، باستثناء الطباعة البدائية التي اكتشفت في الحضارة الصينية في القرن الثاني الميلادي، والتي كان استخدامها قاصراً على تلك الحضارة فقط.

ونستطيع أن نلخص موقف الكتاب في هذه المرحلة، بأنه بدأ ككتاب منتج بمواد ووسائط بدائية التصنيع، تأخذ شكل الوثائق المنفردة المنسوخة بخط اليد، وتطور في نهاية هذه الفترة ليأخذ الشكل الدفتري، الذي اعتمد في بدايته على الرقوق الجلدية، ثم تحول عنها إلى الشكل الدفتري الورقي المنسوخ يدويا.

الثانية: من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وحتى منتصف القرن العشرين.

وهي المرحلة التي تمتد منذ اكتشاف الطباعة التقليدية في أوربا، وحتى ماقبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩). مر الكتاب خلال هذه الفترة بعدة

تطورات في غاية الأهمية، تعلق أولهـا بالتقنيات التي استخـدمت في إنتاجه، والتي أفرزت شكلا جديدا للكتاب لم يكن معروفا من قبل، وثـانيهـا، تتصل بالمفاهيم التي ارتبطت بإنتاجه، فقد تحول من حرفه تمتهنها طبقة من رجال الدين والرهبان في أوربا، أو المدوِّنين والورَّاقيين في العالم العربي، الى صناعة متطورة بكل أبعادها التقنية والاقتصادية، مما أوجد للكتاب دورا مهما في المجتمعات المعاصرة لهذه الفترة. وأصبح يمثل شيئا ذا قيمة اقتصادية وعلمية وثقافية عالية في المجتمع.

الثالثة : العصر الحديث.

أمـا الجـانب التـطوري الثـالث، فكـان مرتبطا بإستخدام الكتاب وانتشـاره، فبعـد أن كان استخدام الكتاب وشراؤه واقتناؤه قاصرا على طبقات معينة في المجتمع، يتم تداوله فيما بينها، أصبح الكتاب مُنْتَجاً مُتاحا لجميع فئات المجتمع، فالأعداد الهائلة من الكتب التي تطبع وتنشر وتـوزع عن طريق المؤسسـات المتخصصـة في مجال صنـاعـة الكتاب، شجعت حركة الابداع والتأليف والترجمة والنشر، مما أدى ـ بدوره ـ إلى التـوسـع الكبـير في المـوضوعات المعالجة في الكتب. وأصبحت تغطي ـ تقريبا ـ كل احتياجات القراء المعرفية بجميع فئاتهم وطبقاتهم وإنتماءاتهم العلمية والثقافية والاجتماعية. وقد ساعد ذلك على رواج صناعة الكتاب في المجتمعـات. ويقـال أن النجاح يحفز على التطوير، ولذا، كنتيجة حتمية لهذا الرواج، بذل المزيد من المساعي العلمية والبحثية والتطبيقية، لتـطوير تقنيات صنـاعـة الكتـاب وتحـديثهـا، شملت كل حلقـات إنتـاجـه، بداية بالتأليف ونهاية بالتوزيع والاستخدام. واستمرت هذه الجهود حتى بداية الحرب العالمية الثانية، حيث دخلت معظم الأنشطة الصناعية والتجارية في المجتمع الدولي في حالة ركود نسبي، ووجهت الـطاقـات والإمكـانـات الإنتاجية إلى تدعيم العجلة الحربية، والجهود العسكرية، لتلبية احتياجات المؤسسات العسكرية وآلية الحرب الدائرة آنذاك.

ويمكننا القول بأن الكتاب قبل الحرب العالمية الثانية، كان قد وصل إلى مرحلة جديدة تماما في تاريخه الطويل، سواء من ناحية الشكل المادى أو المحتوى الموضوعي، أو من زاوية المفهوم الاجتماعي. وقد تميز الكتاب في تلك المرحلة بخصائص، لم يكن معروفاً بها خلال المرحلة السابقة، حيث حدثت له تحولات جذرية شملت شكله المادي ونوعية الورق المستخدم، وطرق التجليد، وتعدد الأحجام، وكيفية تنظيم وترتيب المعلومات، وتصميم الأغلفة، وغيرها من التحولات الشكلية التي أضافت إلى شكل الكتاب قيما جمالية وعملية، جعلته أكثر قبولا لدى جمهور القراء والمستفيدين. وقد شملت تلك التحولات تقنية الانتاج أيضا، حيث تحول الكتاب من الشكل المخطوط إلى الشكل المطبوع مما أحدث تغيرا في شكل الحروف وأحجامها، وقد ساعد ذلك ليس على تحسين نوعية الكتابة وقابليتها للقراءة فحسب، بل ساعد أيضا وإلى حد كبير على الإقلال من الأخطاء الكثيرة التي كانت تصاحب النسخ المنتجة عن طريق النسخ اليدوي.

اشتملت تلك التحولات ضمن ما اشتملت عليه، المهن المرتبطة بالكتاب؛ فكان لتحول الكتاب من حرفه إلى صناعة متكاملة، تأثير كبير على المهن التي ارتبطت به، فقد أدى هذا إلى الغاء بعضها مثل مهنة الورّاقين، والنساخ، وظهور مهن جديدة متخصصة في المجالات الادارية، والتسويقية، والفنية، بمسميات أخرى تتناسب مع المهام الجديدة والأنشطة المستحدثة في هذه المجالات الصناعية الحديثة. شملت تلك التحولات أيضا نوعية المستفيدين، من حيث تميز الكتاب باتساع قاعدة المستفيدين منه، لتشمل جميع فئات المجتمع بجميع مستوياتها، بدلا من اقتصاره على طبقة أو طبقات معينة من المجتمع. شملت أيضا تلك التحولات الموضوعات التي تعالجها الكتب، فقد شمل الانتاج الفكري المنشور، جميع المجالات المعرفية، وتناول جميع الموضوعات، ليقابل جميع احتياجات القراء وأذواقهم المعرفية، بعد أن كان مقتصرا على

موضوعات محددة، تفرضها أذواق طبقات معينة ورغبات تلك الطبقات التي كانت تمثل شريحة المستفيدين من الكتاب في المجتمعات السابقة. وبذلك تغير المفهوم الاجتماعي تجاه الكتاب، فبعد أن كان دوره محدوداً كقيمة إجتماعية ومعنوية ومادية، لارتباطه بمصالح فئة محددة في المجتمع، غدا دوره أكثر فعالية وتأثيرا بعد ارتباطه بالجماهير العريضة، بحيث أصبح قوة اجتماعية مؤثرة فكريا وثقافيا واقتصاديا.

٢ ـ المدلول اللغوي والاصطلاحي للكتاب:

يرتبط استخدام الكلمات في المجال العلمي بمجموعة من المفاهيم، يتعلق جزء منها بالمفهوم اللفظي أو اللغوي للكلمة. وهو يمثل المفهوم الشائع لها، بينما يتعلق الجزء الآخر بمفهوم المعنى والمصطلح للكلمة، وتلك المجموعة الأخيرة هي التي أدت إلى أن الكلمات المستخدمة للتعبير عن المفاهيم الأساسية للمجالات العلمية المتخصصة، تتحول من مجرد كلمات مفهوم شائع،إلى مصطلحات ذات مفاهيم محددة، ترتبط بالمجال العلمي والبحثي المستخدمة في إطاره، ولذا فقد رأينا أن نقوم بدراسة لتحديد المفاهيم المتعلقة «بالكتاب»، كمصطلح أساسي تدور حوله العديد من الموضوعات المطروحة في هذا العمل.

المفهوم اللغوي للكتاب :

أوردت المراجع اللغوية والموسوعية العربية، الكثير من الألفاظ والمعاني المختلفة لكلمة كتاب، وهي في ذلك تتفق أحيانا وتختلف في أخرى، ويورد كل منها اللفظ ومعناه، ومرادفه بناء على زاوية الرؤية اللغوية لواقع المؤلَّف. وباستعراض سريع لتلك الرؤى المختلفة يتضح لنا من خلال تحليلها أن هناك عدة مفاهيم، ارتبطت بكلمة كتاب من الزاوية اللغوية، وقد تم صياغة هذه المفاهيم بألفاظ مختلفة، نستطيع تلخيصها في الآتي:

المفهوم	الألفاظ
كتاب سماوى	كتاب الله، المنزل، القرآن الكريم، التوراة، الإنجيل.

عقيدة دينية	الغرض، الحكم، القدر، الأجل.
وسيط اتصالي عام	الصحف، الصحيفة
وسيط اتصالي خاص	الرسالة، ما يكتبه الشخص ويرسله، مكتوب، ما يراد ابلاغه للغير
وسيط كتابه (مادة)	ما يكتب فيه، خط على القرطاس
وسيط كتابه (أداة)	الدواة
تخزين معلومات (ذاكرة خارجية)	مايراد حفظه من النسيان
منظور مُغرق في التخصص	مؤلف سيبويه في النحو

ويمكن تقسيم الألفاظ التي استخدمت للتعبير عن مصطلح كتاب إلى ثلاث مجموعات مصنفة بناء على المفاهيم العامة التي تربط بين مفرادت كل مجموعة:

١. المفهوم الاجتماعي الديني كتاب الله المنزل، القرآن، التوارة، الانجيل، الفرض، الحكم، الأجل.

٢. المفهوم الاجتماعي لظاهرة الاتصال صحف، صحيفة، مايكتبه الشخص ويرسله، مايراد إبلاغه إلى الغير، رساله، مكتوب مايراد حفظه من النسيان.

٣. المفهوم المادي كوسيط للكتابة مايكتب فيه، خط على القرطاس، الدواة.

أما التعبير عن الكتاب كمؤلف سيبويه في النحو، فهو مفهوم منفرد، لم يرد إلا مرة واحدة، ولذا، لا نستطيع اعتباره تعبيرا عن مفهوم شائع لمصطلح كتاب.

يتضح من التحليل السابق أن البعد الإجتماعي الديني والبعد الإجتماعي الاتصالي للمعلومات المكتوبة، يمثلان المفاهيم الأكثر ارتباطاً بمصطلح «كتاب» ويجسّدان رؤية ومنظور علماء اللغة لهذا المصطلح والمفاهيم المرتبطة به. ويعد مفهوم الكتب السماوية، في إطار البعد الإجتماعي الديني، أكثر المفاهيم التصاقا بالمصطلح، أما في إطار البعد الاجتماعي الاتصالي للمعلومات المكتوبة، فالكتاب يمثل وسيلة إتصال

(رسالة/ صحفية)، كما يعبر عن الوسائط الكتابية المادية للاتصال المكتوب (ما يكتب عليه (مادة الكتابة)، الدواة (أداة الكتابة).

نخلص من العرض السابق، أن مصطلح كتاب من زاوية الاشتقاق اللغوي يعني: إسم ما يكتب مجموعاً، وبالكسر مصدراً، وما يكتب عنه نسميه بالمصدر، والجمع كُتبُ، وكَتَب الشيء كتبا، وكِتاباً، وكِتابه، ويأتي مذكرا، وقد يأتي مؤنثا. أما من زاوية المعنى اللفظي، فالكتاب **يعني - في الغالب الأعم - كتاب الله، أو وسيلة ووسيط للاتصال المكتوب.**

٣ - المفهوم الأكاديمي والمهني المتخصص للكتاب

بالرغم من البساطة الظاهرية لكلمة كتاب، التي تستخدم كمصطلح متداول بين جمهرة المثقفين، وكمفرد لفظي مُتعارف على معناه بين عموم الناس، إلا أن الباحث المتعمق، في المفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة سيجابه بخضم متلاطم من المفاهيم المتباينة في بعض منها، والمتجانسة في البعض الآخر، وقد تختلف وتضطرب حينا، وتلتقي وتتآلف أحيانا، ولا يُعد هذا بالشيء الغريب، فالكتاب عالم متكامل ملىء بالخصائص والمزايا، ولا يخلو من النقائص والعيوب، أو، إن شئت، فهو أشبه بجرم سماوي بجوانبه المضيئة الوهاجه، وتلك المظلمة المُعتمة، وهو في هذا وذاك لا يُستطاع الإحاطة به ورؤيته من خلال منظور محدد أو زاوية ثابتة. ومحاولة حصر هذا العالم وتحجيمه ووضعه في عبارة أو عدة عبارات، ضرب من المستحيل، ولا نعتقد أن في قولنا هذا شيء من المبالغة، فغيرنا كُثر، يرون هذا الرأي، ولديهم نفس المُعتقد، «فروبير سكاربية: ``Robert Escarpit`` العالم الببليوجرافي الفرنسي أوضح تلك **الفكرة في كتابه الشهير «ثورة الكتاب: La Revolution du liver» قائلا** «الكتاب هو ككل شيء حى، يتعذر تحديده. تحديدا ثابتا جامعا، وذلك لأن الكتاب ليس كسائر الأشياء، فإذا ما احتوته اليد، فإنها تحتوي ورقا لاغير، أما الكتاب فشيء آخر». ولذا فمن الطبيعي الا نجد تعريفا

واحدا، أو حتى مجموعة من التعريفات، قادرة على ا لإحاطة والتعريف بالكتاب بصورة فعالة. وبألفاظ أخرى، لن نجد تعريفاً منفرداً يحيط بكل ما يرتبط بالكتاب من مفاهيم، وأقصى ما يستطيعه التعريف الجيد، أن يلقى الضوء على جانب أو عدة جوانب. ويترك لغيره مهمة إضافة الجوانب الأخرى. ويعتمد كل تعريف على رؤية الباحث «للكتاب»، ومدى توظيفه للتعريف الذي وضعه في إطار بحثه الذي يُجريه. وهو في ذلك - أي الباحث - يركز على الجانب الأكثر ملائمة لموضوع دراسته. ولذا فإن الإجابة على سؤال، ماهـو الكتاب ؟ تتوقف على مدى الاهتمام بالخصائص المادية .والخصائص الوظيفية للكتاب» ويتوقف ذلك - طبعا - على طبيعة الرسالة التي يود الباحث توصيلها إلى قارئه، من خلال تعريفه لهذه المجموعة من الخصائص أو تلك.

من أولى التعريفات الحديثة التي نشرت عن الكتاب، تعريف وضعه «بول أوتليه : Paul Otlet» أورده في عمل له صدر عام ١٩٣٤، عرَّف فيه الكتاب بأنه دعامة من مادة وحجم معين، قد يمكن طيه، أو لفه بطريقة معينة، تُنقل عليه رموز تمثل محصولا فكريا معينا. ويبدو واضحا من صياغة هذا التعريف، والمفاهيم التي وردت فيه، تعمّد «أوتليه» أن يركز في تعريفه على بعض الخواص المادية والشكلية التي كان يتميز بها الكتاب في الحضارات القديمة، قبل اكتشاف الورق واختراع الطباعة، ولذا نجد كلمة مثل «دعامة»، ويعني بها «وسيط»، وكلمة «طية» أو «لفافة»، وهو غالبا ماكان يوصف به الكتاب الذي كان يصنع من أوراق البردي، أو الرق في العصور السابقة. ومن جهة أخرى نجد التعريف يشتمل على خواص وظيفية، وردت في عبارة، «تنقل عليه رموز»، أي يقوم بدور اتصالي في نقل المعلومات المكتوبة. أما الخصائص الموضوعية للكتاب فتمثلت في عبارة «تمثل محصولا فكريا»، أي يحتوي في جوهره على إنتاج فكري في مجال ما. وعموما فلأوتليه تعريف أشمل وأعمق، ورد في كتابات له في نفس الفترة أو في فترات لاحقة، إلا أننا أوردنا هذا التعريف لأنه رغم بساطته - يمثل مرحلة وسيطة

ما بين تعـريفـات الكتاب فيما قبل اكتشاف الورق والطباعة في الحضارات القديمة، وما يوصف به الكتاب الحديث، بعد اختراع الطباعة الحديثة في القرن الخامس عشر، كناقل للإنتاج الفكري الانساني.

بعد حوالي خمسة عشر عاما من تعريف أوتليه، صدر أول تعريف من قبـل هيئة عالمية متخصصة كان نتاجا لاستبيان إحصائي يتعلق بإنتاج الكتب. قام بتصحيحـه وتـوزيعـه «اليونسكو: UNESCO» ، بناء على توصية صدرت من «الاتحاد الدولي للمكتبات: IFLA» ، تنص بضرورة القيام بدراســات إحصــائية للمـواد المطبوعة، مع حتمية وضع المعايير والمقاييس الموحدة التي تحدد مواصفات كل نوع من أنواع المطبوعات، وقد عَرَّفت اليونسكو الكتاب في هذا الاستبيان، بأنه «عمل يتكون من ٤٩ صفحـة أو أكثـر» وبعد مرور خمس سنوات من وضع هذا التعريف، وبمبادرة أخرى من «الاتحاد الدولي للمكتبات IFLA»وخلال الجلسة التي عقدها المؤتمر العام للمنظمة في بروكسل عام ١٩٥٥م، تبنى المؤتمرون التعريف التالي للكتاب «مطبوع غير دوري يحتوي على ٤٩ صفحة أو أكثر بخلاف صفحات الغلاف»

ويلاحظ هنا الفرق بين التعريفين، حيث تمت إعادة صياغة التعريف الأول (١٩٥٠)، إذ أضاف التعريف الجديد (١٩٥٥)، عدة مفاهيم لم تكن مذكورة في التعريف القديم مثل: كلمة «مطبوع غير دوري»، بدلا من «عمـل»، و«يحتـوي على» بدلا «يتكـون من»، مع اضـافـة فقـرة جديدة تمامـا «بخـلاف صفحـات الغـلاف،» وتدل هذه التغييرات على تطور المفــاهيم المـرتبـطة بالكتـاب خلال تلك السنـوات الخمس (١٩٥٠/ ١٩٥٥)، وأن رؤية المتخصصين للكتاب بدأت تأخذ أبعادا أكثر عمقا، وإن كان التعريفان يتفقان في كونهما مجرد وصف للخصائص المادية أو الشكلية للكتاب بدون التعرض للخصائص الوظيفية والموضوعية له.

ببـداية الستينات من هذا القرن، بدأت تظهر في كتابات الباحثين مجموعة من التعريفات تحمل في ثناياها مفاهيم جديدة تماما للكتاب،

تعكس من جهة، التطور الذي طرأ على رؤية ومنظور المتخصصين للكتاب، وتعكس من جهة أخرى تأثير تلك الحقبة الزمنية (الستينات) التي اتسمت ببداية المسيرة الصناعية الكبرى، والتطورات الهائلة في العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها في المجالات العلمية المختلفة، وشيوع مفاهيم التقنية ومصطلحاتها، ليس فقط في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، بل أيضا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية. ولذا نجد «إريك دي جروليه: Eric de Grolier» في كتابه «تاريخ الكتب» يصف الكتب قائلا «نوع من الذاكرة الموضوعية للإنسانية، اكتسب صفة الدوام والأمانة، وأتت لتحل محل الذاكرة الذاتية العابرة، غير الأمينة للناس، فالكتاب أذن أداة ابتكرها الإنسان لتكون عونا لذاكرته» بينما يصرح «سكاربيه» في كتابه «ثورة الكتاب» الذي نشره عام ١٩٦٥، بأن «الكتاب آلة وأداة للمطالعة».

يلاحظ في التعريفين السابقين استخدام مصطلحات «آلة» و «أداة» للتعبير عن الخصائص الوظيفية للكتاب، وإضفاء صفة الديناميكية عليها، باستخدام ألفاظ وتعبيرات مستعارة من المجالات الهندسية والصناعية والتقنية، كما يلاحظ في تعريف «جروليه: Grolier »، إبرازه لمفاهيم تتناسب ومعطيات العصر، تتعلق بتطبيقات الحواسيب في مجال المعلومات من تخزين واسترجاع لمعلومات في «نوع من الذاكرة الموضوعية (الذاكرة الخارجية)، حيث لا تتمكن «الذاكرةالذاتية العابرة (الذاكرة الداخلية) من الاحتفاظ بها والابقاء عليها للاستخدام في المستقبل.

تميز العقد الثامن من القرن العشرين بالمراجعة الشاملة لكثير من المفاهيم المرتبطة بكافة الأنشطة والمجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والثقافية.. الخ، على ضوء المتغيرات التي حدثت في العالم منذ النصف الثاني من القرن العشرين، بداية بالآثار التي ترتبت على الحرب العالمية الثانية، ومروراً بالثورة الصناعية الكبرى، والتطورات

التكنولوجية السريعة المتلاحقة. وكان للمجالات العلمية والأكاديمية النصيب الوافر في هذه المتغيرات، التي استوجبت إعادة النظر في كثير من المعطيات والنظريات والمسلمات التي كانت قائمة عليها ومرتبطة بها، وخاصة بعد التأكد من الاستحالة العلمية لما يسمى بنظرية «استقلالية المجالات العلمية»، وظهور مبدأ "Inter disciplinary System" ، «نظام تداخل العلوم»، القائل بحتمية تداخل المجالات العلمية، وتأثيراتها التفاعلية المشتركة. وقد أدى ذلك إلى اندماج بعض الأفرع العلمية، وانفصال أخرى، وظهور علوم جديدة، وبالتالي تغيُّر وتبدل الكثير من المفاهيم العلمية السائدة من قبل. ولدفع مسيرة هذا التغيير الشامل، تم عقد الكثير من المؤتمرات والندوات العالمية والإقليمية التخصصية، لمناقشة هذه القضايا العلمية الحيوية. وفي إطار هذه الظاهرة العلمية، قامت «اليونسكو: UNESCO » عام ١٩٧٢، بالتحضير للسنة العالمية للكتاب، وسعت في هذا الأمر إلى استطلاع رأي المختصين في مجال نظم المعلومات والاتصالات حول تعريف مصطلح كتاب. ومن الجلي أن هذا الاستطلاع جاء عن رغبة أكيدة للمنظمة العالمية في التوصل الى تعريف جديد للكتاب يتماشي ومعطيات العصر، ويبرز التطورات الجديدة التي طرأت على المفاهيم التي ارتبطت بهذا المصطلح بعد مرور إثنين وعشرين عاما من صدور أول تعريف لليونسكو عن الكتاب (١٩٥٠م). ونتيجة لهذا الاستطلاع، أصدرت اليونسكو التعريف التالي، الذي تم تبنيه من قبل الخبراء المختصين في المجال: «كلمة كتاب، تغطي كل أشكال الكتابات المطبوعة، التي تحث على التأمل والتفكير، وهذا يشمل أيضا الدوريات والأنماط الأخرى من مواد القراءة».

وأول ما يلاحظ على هذا التعريف هو التغيير الواضح الذي طرأ على تعريف الكتاب، واختفاء مفهوم أساسي كان مرتبطا به، بل واستبدل به العكس تماما. ونقصد بذلك مفهوم «المطبوع غير الدوري»، الذي استبدل به مفهوم مغاير تماما، وهو «كل أشكال الكتابات المطبوعة. . .

ويشمل أيضا الدوريات»، وبناء على وجهة النظر هذه، فإن مصطلح «كتاب» يشمل الدوريات، والتقارير، والأطروحات، ووثائق عمل المؤتمرات.. الخ، أو أي شكل آخر من «الأنماط الأخرى من مواد القراءة».

ونجد صدى لهذا الرأي، وتأكيدا له، فيما نشرته دائرة المعارف الأمريكية عام ١٩٧٢، حيث أوردت التعريف التالي «يمكن أن نطلق كلمة كتاب على أي شيء يحتوي على أوراق مجمعة معا، وملصقة من جانب واحد من جوانبها الأربعة، ومحمية من الأمام والخلف بغلاف من مادة أكثر صلابة»، ويستطرد واضع التعريف معترضا على هذه الصياغة قائلا «في إطار هذا المفهوم غير المحدد، نستطيع أن نطلق كلمة كتاب - ليس فقط - على القصة والإنجيل، بل أيضا على دفتر الشيكات، ودفتر المحاسبة، ودفتر المذكرات»، ولذا يضيف قائلا «إذا ما استقرأنا التاريخ نجد أن المفهوم السابق، يهمل العديد من أنواع السجلات المهمة التي تتمتع بمزايا وظيفية وطبيعية متوافقة ومتآلفة مع مفهوم الكتاب، مما يجعلها مؤهلة تماما ليطلق عليها كلمة كتاب».

هنا نجد أن اعتراض واضع التعريف، لا ينصب على توسيع مفهوم قاعدة المطبوعات التي يجب أن تنتمي إلى مصطلح كتاب، بقدر اعتراضه على صيغة التعريف المستندة على الخصائص «المادية والشكلية» للمطبوعات المنتمية إلى هذه المجموعة، وهو بذلك يتفق في الرأي إلى، حد بعيد، مع تعريف اليونسكو لعام (١٩٧٢م)، بأن هناك العديد من أنواع السجلات (المطبوعات)، التي تتمتع بمزايا (خصائص) وظيفية وطبيعية (موضوعية وشكلية)، متوافقة ومتآلفة مع مفهوم الكتاب مما يجعلها مؤهلة ليطلق عليها كلمة أو مصطلح «كتاب».

تميزت التعريفات التي صدرت في هذه الفترة (السبعينات)، بملمحين أساسيين، أولهما اتفاق معظمها على توسيع قاعدة المطبوعات التي يشملها مصطلح «كتاب»، وثانيهما إبرازها لمفاهيم جديدة تتعلق بالكتاب، سواء

من زاوية مكوناته الشكلية أو وظيفته ودوره في المجتمع. فنجد «و. جيرو نت: W. Geront »، و «ى نيفلنج: U. Neveling» ، يضعان تعريفا للكتاب عام ١٩٧٦م، يصفانه بقولهما «عدد كبير من الصفحات الورقية المكتوبة أو المطبوعة، مجلدة معا من جانب واحد، بين أغلفة تشير إلى محتواها، وتُنشر كوحدة واحدة» والجديد في هذا التعريف أنه يحتوي على إشارة الى صفحة العنوان في الكتاب، وما تحتويه من معلومات استقبالية عن العمل والموضوعات المطروحة فيه، وبالتالي تؤكد مدى أهمية صفحات العناوين كإحدى مكونات الكتاب الرئيسية. بينما نجد في التعريف الذي وضعه «ب أثيرتون: P. Atherton:» عام ١٩٧٧م، تركيزا على مفاهيم جديدة تماما، حيث عرَّف الكتب على أنها «المرحلة الأولى لتكوين المجموعات، وتشتمل على المعارف التي نشرت في المجالات التي تغطيها» وهنا نجد أن التعريف يركز على أهمية الكتاب كجزء رئيسي من مقتنيات المكتبات، كما يحتوي على المفاهيم الموضوعية والوظيفية للكتاب كوعاء للتخزين المقنن من مقتنيات المكتبات ، كما يحتوي على المفاهيم الموضوعية والوظيفية للكتاب كوعاء للتخزين المقنن للمعرفة التراكمية (مفهوم الذاكرة الخارجية).

أما أبو الحسن، فقد أحتوى كتابه «الكتب في البلدان المتعددة اللغات»، الذى نشر عام ١٩٧٨، على كثير من المفاهيم التي ترتبط بالخصائص الوظيفية للكتب، والدور الذي تقوم به على المستوى القومي. وقد استهل الكاتب أولى مفاهيمه بالتعريف التالي «تُعد الكتب أكثر الأوعية تميزا في نقلها للمعرفة، لبساطتها وتنوعها وسهولتها في التناول، وأقلها تكلفة، وهي ليست مجرد أداة متميزة، تعكس وتعبر عن المعرفة فحسب، بل إنها تلعب دورا لا غنى عنه في دفع التنمية القومية، وفي نقل وتأكيد القيم الثقافية للشعوب والأمم. ولهذا، فإن الكتب لا غنى عنها في أي برامج تتعلق بالتوسعات التعليمية. وتُعد الكتب منهلا للموروث الثقافي». وهذا التعريف يتضمن مجموعة من المفاهيم تؤكد في

مجموعها على «الخصائص الوظيفية» للكتاب ودوره القومي والاجتماعي في مجالات التنمية المختلفة في المجتمع، وكوعاء خازن للمعرفة التراكمية، وحافظ للتراث الثقافي والفكري القومي، كما يؤكد تميز الكتاب مقارنة بوسائل الاتصال الأخرى، أي تميز الكتاب كوسيط وناقل للمعلومات المكتوبة.

وفي نهاية العقد الثامن من هذا القرن، قام «روبير إستيفالز: Robert Estivals"، العالم البيبليوجرافي الفرنسي، وهو من المختصين والمهتمين بالكتاب وقضاياه، بوضع تعريفين للكتاب، ضمنهما في كتاب له بعنوان «البيبليولوجيا La bibliologie علم الاتصال المكتوب: مقدمة تاريخية لعلم الكتابة» نشر عام ١٩٧٨، حيث وصف أول تعريفاته بأنه «التعريف البنيوي واللغوي الأدنى للكتاب»، قال فيه «الكتاب هو تسجيل للفكر عن طريق تقنيات الكتابة، أيا كان الوسيط أو إجراءات التسجيل المستخدمة». أما ثاني التعريفين، فقد وصفه «بالتعريف الديناميكي (الحركي) الاجتماعي السياسي الشامل للكتاب»، وفيه عرَّف الكتاب بالآتي: «يتجلى الكتاب كوسيلة يستخدمها جمهرة المؤلفين والقراء، عبر المسافات والأزمنة، ليشبعوا رغباتهم في الاتصال المكتوب، حيث تعد تلك الرغبات ـ بعينها ـ تجسيد للقوى السياسية والاجتماعية المعاصرة، وخاصة تلك التي تتعلق بالسياسات التعليمية والثقافية، المرتبطة بالطبقة الاجتماعية التي تمثل السلطة، ويتم إشباع هذه الرغبات عن طريق الكوادر المهنية المتخصصة، المعنية بانتاج واستنساخ وتوزيع الوثائق المكتوبة»

وهنا نتوقف قليلا عند هذين التعريفين، لنستقرأ المفاهيم التي وردت فيهما، فالتعريف الأول يحدد الكتاب ويعرفه من خلال المنظور البيبليوجرافي للمؤلف، كمتخصص في الاتصال المكتوب، حيث يضع الكتاب في إطاره المهني كوسيلة من وسائل الاتصال المكتوب، أو ما يسمى «بالمنظور الساكن: Static Perspective »، كناقل للمعرفة

المكتوبة، أو ببساطة أكثر، كوعاء للمعلومات ينقل المعارف المكتوبة، عن طريق وسائط الكتابة المختلفة، قديمها كالبردي، والواح الطين، والرق، والحرير. الخ»، باستخدام أساليب بدائية كالحفر، والنقش، والنسخ اليدوي . . الخ، وحديثها عن طريق الوسيط الورقي، وتقنيات الطباعة المتطورة. أما التعريف الثاني، فالجديد فيه، أن المؤلف حاول من خلاله معالجة مفهوم الكتاب في إطار علاقته التفاعلية بالمجتمعات التي ينتج فيها (الكتاب/ المجتمع)، أو مايسمى بالمنظور الحركي أو الدينمي: Dynamique Perspective ، وهو بذلك يحيل الكتاب من الشكل المادي الجامد إلى كائن حي متفاعل. بألفاظ أخرى، من وسيط غير متفاعل لنقل المعلومات إلى مادة حية تتفاعل مع المعطيات السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية. . . الخ المحيطة به، يؤثر فيها ويتأثر بها، وهو بذلك ـ أي المؤلف ـ يضع الكتاب في مكانه الحقيقي كرمز من رموز العوامل الإجتماعية الفعالة والمؤثرة.

بانتهاء العقد الثامن من هذا القرن، وبداية العقد التاسع منه، بدأت أغلب التعريفات حول الكتاب تتصف بالتكرار، سواء من زاوية الصياغة أو من زاوية المفاهيم التي وردت بها، ولا نجد فيها إلا القليل مما أورد مفاهيم جديدة تضاف إلى ما سبق طرحه، عن طريق الباحثين في الفترات السابقة. ولذا نجدها متشابهة في كثير من الأحيان. ومن أمثلة هذه التعريفات، ما أوردته موسوعة المورد في طبعتها لعام ١٩٨٠ «الكتاب مجموعة الصحائف المحفوظة، أو المطبوعة، يُضَم بعضها إلى بعض بالخياط والتغرية أو بواسطة أسلاك معدنية، يكون عادة ذا غلاف ورقي، أو غلاف كرتوني، وقد يجلد بالقماش».

أما الموسوعة العربية الميسرة فقد ذكرت عن الكتاب أنه «مجموعة من الصفحات المخطوطة أو المطبوعة، موصلة أو مثبتة أو خيط بعضها في بعض فأصبحت وحدة قائمة بذاتها» على نفس المنوال قام «سى. جينشت C.Ghinchat» و «هـ. مينو: H. Menou ، عام ١٩٨١ بوضع

تعريف للكتاب جاء فيه «مجموعة من الصفحات ملحقة معا، ومضبرة أو مجمعة في مجلد واحد» ومن بين التعريفات الأربعة التي وردت في «المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات» الصادر عام ١٩٨٨ للشامي وحسب الله، نجد تعريفا متميزا عما ذكرناه من تعريفات جاء فيه «الكتاب، مجموعة المواد المطبوعة المجلدة معا لتكون مجلدا أو مجلدات تشكّل وحدة ببليوجرافية»، والجديد في هذا التعريف أنه يربط مابين الكتاب والعمل الببليوجرافي، ويصف الكتاب بأنه جزء من هذا العمل، حيث يمثل «وحدة ببليوجرافية». أما عبد الوهاب أبو النور، فنجد تعريفه لعام ١٩٩٣م ينص على «كلمة كتاب تتسع لتشمل كل ماهو مكتوب أو مدون أياً كان الشكل الذي ظهر به»، وهو بهذا يردد ما جاء من تعريفات سابقة، من مفهوم توسيع قائمة المطبوعات التي تشملها كلمة كتاب، لتتسع لجميع أنواع المطبوعات وأشكال الاتصال المكتوب.

يتضح من العرض السابق أن تعريف الكتاب والمفاهيم التي ارتبطت به، مرت بعدة مراحل وكل منها تتواءم والفترة التي صدرت فيها:

المرحلة الأولى: في بداية التعريفات، كانت معظمها تتميز بالمفاهيم الوصفية للشكل المادي للكتاب، مع وجود بعض الرؤى الشخصية لبعض المتخصصين، أمثال «بول أوتليه» الذي تعرض في تعريفاته لبعض المفاهيم المتعلقة بالكتاب كناقل للمعرفة، ووسيلة اتصال إجتماعي مكتوبة

المرحلة الثانية: اشتملت على مفاهيم اكثر عمقاً، تتعلق بمحتوى الكتاب وجوهرة، والموضوعات التي يتناولها كوعاء معرفي، ودوره في حفظ المعلومات وتخزينها، وكحافظ للتراث الفكري والقومي، وأنه جزء رئيسي من مقتنيات المكتبات.

المرحلة الثالثة: بدأت بإضافة مفاهيم جديدة، تتعلق بدور الكتاب الاجتماعي وتأثيره وتأثره بَالبيئة المحيطة به والمجتمع المنتج له، وخواص الكتاب الديناميكية والحركية كوسيط للاتصال المكتوب والخروج به من

إطار «الوسيط غير المتفاعل» إلى مفهوم «المادة الحية الحيوية».

ويبدو أن مفهوم الكتاب «كمطبوع غير دوري»، لم يلق قبولا لدى العلماء والمتخصصين في مجال المعلومات والاتصالات ا لمكتوبة، وتوقف التعامل بهذا المفهوم من نهاية العقد السادس من هذا القرن، وبدأ ظهور تعريفات توسع من مفاهيم الكتاب لتشمل جميع أنواع المطبوعات الدوري منها وغير الدوري. ومن الملاحظ أن معظم المفاهيم الحديثة التي ارتبطت بالكتاب في شكله الحالي المتعارف عليه، تم وضعها وصياغتها منذ نهاية الثلث الأول من هذا القرن إلى نهاية ا لعقد الثامن منه، بعدها بدأت مرحلة التكرار للمفاهيم والصياغات، وأصبحت إضافات المتخصصين إلى ماسبق طرحه مُقلة للغاية. وهذا يعنى بداية استقرار المفاهيم وثبات المنظور الأكاديمي والعلمي للكتاب.

ولا نستطيع القول بأن ما حدث على المفاهيم كان مرتبطاً بالكتاب وحده، كوعاء للمعرفة، أو كوسيط للاتصالات المكتوبة، بل ارتبط ـ أيضا ـ إلى حد كبير بمتغيرات العصر والتطورات التكنولوجية وبالبيئة الاجتماعية التي ينتج ويوزع ويقرأ فيها الكتاب. وهو ما عبر عنه «روبير أسكاربية» بقوله «**ميزة الكتاب هي أن الغرض من وجوده هو الاستعمال وأساليب العمل التي تلتقي لتحديده، تظل بعيدا عن الظاهرة التي هي الكتاب نفسه، بل تتجاوزها إلى حد بعيد، محتفظة نوعا ما باستقلالها، متطورة وفق الأحداث التاريخية، متفاعلة مع بعضها البعض، مغيرة بالتبادل فحواها، مُبدلة تبديلا لا نهاية له. إن الكتاب لا يحدد ذاته فقط، بل أيضا مكانته ودوره في حياة الناس أفرادا وجماعات**».

مما سبق نستطيع أن نضع تعريفا تأسيسيا: Conistitiutional Difin-ition للكتاب، مستوحى من الصياغات المختلفة التي وضعت من قبل المتخصصين عبر حقب زمنية مختلفة، تقع ما بين الثلث الثاني من هذا القرن وحتى بداية العقد العاشر منه، وذلك في إطار مناطق جغرافية وبيئات إجتماعية، وأنظمة سياسية متباينة. وهو، كالآتي:

«الكتاب كمكونات مادية في شكله الحالي: يتألف من بعض المواد التي تأخذ في الغالب الشكل الورقي، وينتج بأبعاد مختلفة، في هيئة مقاطع ورقية ذات أربعة زوايا قائمة، يتم تجميعها في شكل دفتري، يحتوي على العديد من الصفحات، المجمعة والمخيطة والمضبرة، يتم تجليدها بغلاف لتشكل مجلدا، أو عدة مجلدات، ذات عنوان محدد. تسجل على هذه الأوراق رموز، وعلاقات حرفية أو رقمية، ورسومات أيضاحية، وتصاوير ذات معنى ومدلول إجتماعي وثقافي وعلمي، ويتم معالجة هذه الرموز والعلامات، لتأخذ الشكل المخطوط أو المطبوع، بناء على المرحلة أو الفترة التي أنتجت فيها، حيث تتجسد فيها الأعمال الإبداعية والمواصلة الفكرية، لبيانات ومعلومات ومعارف عقلانية. وهو ما يطلق عليه الفكر المكتوب، وتنتج هذه الرموز والعلامات على وسيط يتألف من مطبوعات دورية أو غير دورية، يتكون من عدد من الصفحات تحدد بأكثر من ٤٨ صفحة، وتكون مسئولية التأليف منفردة أو تضامنية بين عدة مؤلفين، أو يكون في شكل مطبوع رسمي أو مطبوعات لجمعيات علمية، أو صادرة من قبل هيئات، ولذا فهو مرتبط بمكان نشر. ويعبر عن قيم اجتماعية تُجسد المفاهيم السائدة للبيئة المحيطة به. ويتم عرضه وتوزيعه على جمهور القراء عن طريق البيع كخدمة مدفوعة الأجر، أو يوزع مجانا كخدمة إجتماعية ثقافية وعلمية. وسواء كان توزيعه تجاريا أو غير تجاري، فهو أداة معرفية تنتقل من يد إلى أخرى عبر الأزمنة والمسافات، وتنتج بنوايا مختلفة، لتحمل معارف، وتُبرز ردود أفعال تجاه قضايا إجتماعية وعلمية وثقافية، تتيح التعليم والتعلم، وتنشر الفكر والثقافة، ولذا فهو يتجاوز جميع القيود والمحددات المادية ويتعامل بحرية كاملة مع العقل، والفكر والمشاعر، والأخيلة والمعلومات أيا كانت طبيعتها، ويفترض لانتاج الكتاب وجود حضارة راسخة، ومجتمع ناضج مُنتج للعلوم والفنون والآداب، وقاريء مستوعب لها، ومجتمع يؤمن بالمعرفة كقضية، وبالمعلومات كضرورة، وبالكتاب

كقيمة إجتماعية فعالة، يتيح لها التطور ويتحمل مسئولية نقلها من جيل إلى جيل».

المكتبات:

لمحة تاريخية:

كان ولا يزال ـ للعوامل السياسية ـ والاقتصادية والمناخ الفكري، الأثر الكبير في تحديد مسار المكتبات وتطورها عبر الحقب والعصور التاريخية المختلفة. ومن الملاحظ أن إنشاء المكتبات الكبرى في العالم، تم في عصور الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي، والتنوير الفكري. أما ظاهرة تدمير المكتبات وهلاكها، فكان ـ دائما ـ مرتبطا بالقلاقل السياسية، والنزاعات العسكرية، والحروب، والتدهور الإقتصادي. ومن الملاحظ ـ أيضا ـ عند اقتران الأحوال السياسية والاقتصادية المتردية بالتعصب العقائدي الأعمى، يبدأ تقهقر المجتمعات وتراجعها الحضاري، حيث تتوارى في ظُلمات الجهل ويخيم عليها الركود الثقافي والعلمي، ويكون ـ غالبا ـ أكثر القطاعات تأثرا بذلك هو قطاع الثقافة، والتعليم والتعلم، والكتاب والمكتبات، حيث يبدأ أولا بظاهرة الإهمال وعدم الرعاية، وينتهي ـ غالبا ـ بالتدمير والإبادة. وتاريخ الكتب والمكتبات ملىء بالشواهد التي تؤكد صحة هذه المقولة.

بدأت المجتمعات المتحضرة في تسجيل معارفها وتراثها في حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد، وتميزت كتاباتهم الأولى بالصبغة الدينية والسياسية والإدارية. وفي البداية حُفظت تلك السجلات والوثائق في أماكن خاصة داخل المعابد والقصور، وهي ما أطلق عليها المؤرخون ـ تجاوزا ـ مسمى مكتبات المعابد والقصور، وحقيقة كانت تلك الأماكن وما تحتويها من مقتنيات، أشبه بمراكز الأرشيف منها بالمكتبات. وتدريجيا بدأ التوسع في مجال الكتابات، فشملت موضوعات متباينة، تسمى الجوانب الحياتية الأخرى في المجتمع، وتتعامل مع مجالات العلم والفكر المختلفة، غير تلك الموضوعات التقليدية التي كانت تُعنى بشئون الدولة

أو العقيدة الدينية. وعندما بدأت تلك الكتابات الجديدة، في التوسع والانتشار، وأصبحت تمثل زخما فعالا في الإنتاج الفكري المكتوب، عندها فقط بدأت أول أشكال المكتبات الفعلية بالظهور في المجتمعات، لتحتضن هذه النوعية الجديدة من الإنتاج الفكري وتحتويه بين جدرانها. وتمثل حضارات الشرق القديم في مجموعها ـ بحق ـ التاريخ التليد للمكتبات، ليس فقط في منطقة الشرق فحسب، بل في العالم أجمع، ففيها أُنتجت أقدم النصوص المكتوبة، وعليها أُقيمت أقدم المكتبات وأعرقها تاريخا على الأطلاق.

أكدت الشواهد التاريخية على أن البداية الحقيقية للمكتبات في العالم القديم، ارتبطت بإحدى حضارات الشرق القديم، وإن كان من الصعب علينا، عندما نؤرخ لتاريخ المكتبات، أن نفرق بين تلك الحضارات فيما يتعلق بأسبقية إحداها في مجال إنشاء المكتبات وإقامتها، وخاصة في غياب المصادر والدراسات المؤكدة التي تحسم هذه الفرضية البحتة بصورة قاطعة، وتزودنا بالبراهين والأدلة الدامغة لتفضيل حضارة شرقية على أخرى،لكي يعزى إليها قصب السبق في هذا الأمر، إلا أن جُل المصادر أكدت ـ بصورة شبه قاطعة ـ على أن البدايات الأولى للمكتبات ترجع إلى أحدى الحضارات التي وجدت في المنطقة، إما على ضفاف نهر النيل في مصر، أو في بلاد الرافدين (دجلة/ الفرات). وأيا كان الأمر، فالمعطيات التاريخية عن هذه الحضارات تجعلنا نجزم بأن الظروف السياسية والاقتصادية في هاتيك الحضارات كان أكثر من ملائمة لنشأة المكتبات وازدهارها، فقد كانت حضارات ذات سيادة ومنعة، تتمتع بمناخ سياسي مستقر، واقتصاد قوي مزدهر، وبيئة علمية وثقافية متفوقة بكل مقاييس عصرها، لها لغات مكتوبة، ومواد كتابية مناسبة صالحة كوسيط كتابي لمعارفها وعلومها وتراثها الفكري.

وتؤكد كتابات المؤرخين القدماء على وجود مكتبات منذ آلاف السنين في حضارة مصر القديمة، حين وجدت «دار للكتب» في الحضارة

الفرعونية قبل الميلاد بحوالي ثلاث آلاف عام، كما دلت الآثار المكتشفة عن هذه الحضارة على وجود مكتبات في منطقة طيبة. يرجع تاريخها إلى أكثر من ١٢٠٠ سنة ق.م تعزى إلى رمسيس الثاني، (وتذكر بعض المراجع رمسيس الثالث)، وقد وصفت هذه المكتبات في كتابات «ديودورس سيكولوس: Diodorus Siculus» المؤرخ الأغريقي القديم.

أما في حضارات مابين النهرين، فقد تم العثور على بقايا مكتبات، ومراكز للوثائق، في أطلال المدن السومرية الكبرى، وأشهر مكتبة وأقدمها عثر عليها في هذه الحضارة، هي مكتبة «تلو: Telloh »، التي يقال أنها أُنشئت في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، ونجد البعض يحدد تاريخ إنشائها بالعام ٢٧٠٠ق.م. وتعد أقدم المجموعات التاريخية المعروفة في الحضارة البابلية، تلك المجموعة من الرُّقم الطينية التي وجدت في آثار هذه الحضارة، والتي يرجع تاريخها الى ٢١٠٠ق.م، بينما تعد مكتبة الملك الآشوري «آشو بانيبال» التي وجدت آثارها في مدينة نينوى (الموصل حاليا)، من أقدم المكتبات الكبرى في الحضارة الآشورية، حيث يرجع تاريخها حسب المصادر - إلى عام ٦٢٧ق.م وإن كان بعض المؤرخين يرون أن أقدم المكتبات الآشورية أنشئت في عهد الملك سينا شريب - Sennacherib (جد آشور بانيبال) الذي حكم المملكة الآشورية خلال الأعوام ٧٠٤ إلى ٦٨١ ق.م.

وتزامن مع حضارات الشرق الأوسط، وجود لحضارات شرقية أخرى، تقع في الشرق الأقصى، أهمها حضارة الصين العظيمة التي يرجع تاريخها إلى خمسة الاف سنة قبل الميلاد، ويحدثنا المؤرخون عن قيام بعض أنواع المكتبات التي كانت تأخذ شكل مراكز الوثائق والسجلات والارشيفات الرسمية في الحضارات الصينية منذ أكثر من أربعة الآف سنة قبل الميلاد، إلا أنهم يؤكدون أن المكتبات بشكلها المتعارف عليه، والتي تحوي مقتنيات ذات طبيعة فكرية وعلمية وثقافية، بدأت في الظهور حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، ويحدد بعضهم العام ١٥٠٠ ق.م تاريخا لنشأة

هذا النوع من المكتبات في الحضارة الصينية.

استمر تاريخ المكتبات في العالم مرتبطا بتلك المكتبات المنتمية إلى الحضارات الشرقية لفترة طويلة، حتى بدأ ظهور مجتمعات أخرى على خريطة الحضارات الإنسانية. ومن بواكير هذه الحضارات، تلك التي قامت في الجزء الغربي من العالم، والتي تعرف بالحضارة اليونانية القديمة. ويؤكد المؤرخون أن الحضارة في بلاد اليونان يرجع تاريخها إلى الألف الثانية قبل الميلاد، كما تشير الدلائل التاريخية إلى أن المكتبات بدأت في اليونان مابين القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وتُعرف مكتبة «ميليت: Mellete» كأحدى أقدم مكتبات هذه الحضارة، ويقال أنها كانت تحوي كتب ومؤلفات باللغة اليونانية ولغات بقية الشعوب المتحضرة في ذلك الوقت. وتؤكد المصادر أن هذه المكتبة قد دُمرت على يد الغزاة الفرس، بعد دخولهم إلى مدينة «ميليت» وتدميرها عام ٤٩٤ق.م. وبتدمير مدينة ميليت، بدأ صعود نجم مدينة «آرثينا»، التي أصبحت قوة سياسية، واقتصادية وثقافية في العالم الهيلنسى، وغدت بنهاية القرن الخامس قبل الميلاد أهم مركز للكتاب في العالم اليوناني (الهيلينسى)، ويرجع تاريخ أول مكتبة عامة أثينية إلى عهد الطاغية «بيزستراقوس» في القرن السادس الميلادي، إلا أن المكتبات الأثينية الكبرى لم تبدأ في القرون اللاحقة الخامس والرابع قبل الميلاد، حيث يُعزى إلى هذه الفترة، قيام المكتبات العامة الكبيرة ومكتبات المفكرين والفلاسفة اليونانيين من أمثال أفلاطون وأرسطو، تلك المكتبات التي ألحقوها بمؤسساتهم ومدارسهم التعليمية التي أنشأوها للدرس والتحصيل في مدينة أثينا.

أما أشهر المكتبات التاريخية على الإطلاق، ليست فقط في الحضارة اليونانية بل في التاريخ الحضاري بأكمله، فهي «مكتبة الأسكندرية الكبرى»، التي أنشئت في العصر الهيلنسى، في مدينة الأسكندرية، في قلب أكاديمية الأسكندرية الشهيرة (الموسيون)، التي أنشأها بطليموس

الأول ملك مصر حوالى عام ٢٨٥ق.م. والتي دمرت على عدة مراحل أولها بدأ في عام ٤٨ق.م على يد جنود «يوليوس قيصر» في رواية حرق الاسطول الشهير، ثم توالت الكوارث على هذه المكتبة سواء بالنهب أو التدمير، حتى كان عام ٣٩١م حيث أسدل الستار على تاريخ أعظم مكتبة عرفها التاريخ.. ويليها في الأهمية مكتبة مدينة برجاموم (ويقال أيضا برجاموس). التي أنشأها الملك «تالوس الأول» في القرن الثاني قبل الميلاد، لمنافسة مكتبة الأسكندرية على مركز الصدارة، ومحاولته تحويل مدينته إلى مركز ثقافي وعلمي يجذب به أهتمام العالم الأغريقي، ويصرفه عن مدينة الأسكندرية وأكاديميتها ومكتبتها الشهيرتين (أنظر المادة العلمية المذكورة حول هذه الرواية في الجزئية الخاصة بإكتشاف الرق)، ويقال أن هذه المكتبة فقدت أهميتها وتوارت في غياب النسيان بعد وفاة الملك إتالوس الثاني، واستيلاء الرومان على مدينة «برجاموم»، ومصادرة مقتنيات هذه المكتبة وشحنها إلى روما. وهناك رواية أخرى تفيد بتحول جزء كبير من مقتنيات هذه المكتبة إلى مدينة الإسكندرية في عهد «ماركوس أنطونيوس»، و «كليو باترا السابعة» في رواية شهيرة في تاريخ مكتبة الاسكندرية تعرف بـ «رواية التعويض»، سيرد ذكرها عند التعرض لتاريخ مكتبة الاسكندرية في جزء لاحق من هذا العمل.

أما تاريخ المكتبات في الحضارة الرومانية، فقد بدأ مابين القرن الأول والثاني قبل الميلاد، واعتمدت تلك المكتبات في بداية إنشائها على ما كان يجلبه القواد العسكريون الرومان من غزواتهم الحربية من كتب ومخطوطات ووثائق، كانوا يحصلون عليها كغنيمة حرب من الشعوب المهزومة، وقد جلب الكثير من الكتب والمخطوطات عن هذا الطريق، بعضها من آسيا الصغرى والبعض الآخر من سوريا، وقد شكلت تلك المقتنيات مجموعة المكتبات الخاصة التي كانت ملحقة بقصور حكام روما وقادتها العسكرين، وطبقة علية القوم فيها. ويعزى إلى «كايوس أسينيوس بوليو: Caius Asinius Pollio تأسيس أول مكتبة عامة في روما، في معبد الحرية

حوالي عام ٣٩ق.م في حين تُعد «مكتبة أوكتافيا: Octavia » التي أُنشئت في معبد الإله مارس من أكبر المكتبات العامة التي أُقيمت في مدينة روما، إلا أنها دمرت عام ٨٠م. ومن المكتبات العامة الشهيرة في روما تلك التي أنشـأها الملك أغسطس، وسميت «بالمكتبة البلاتينية: .:Palatine lib» ودمـرت ـ أيضـا ـ في عام ١٩٠م. وتعـد المكتبتـان اللتـان أنشـأهما الإمبراطوران، تراجان (ومكتبته تعرف بمكتبة البيان ULPIAN أنشئت عام ١٠٠م) وهـارديان (ومكتبتـه تعـرف بمكتبة هارديان HARDIAN أنشئت عام ١١٧م) من أهم مكتبات الحضارة الرومانية.

ويبدأ تاريخ المكتبات المسيحية منذ النصف الثاني من القرن الميلادي الأول، والتي كانت ملحقة في بدايتها الأولى بالأديرة والكنائس المسيحية، وكانت مقتنياتها بطبيعة الحال. تتمحور حول الكتابات العقائدية للديانة المسيحية. ومن أوائل المكتبات المسيحية الكبيرة، تلك التي قام بجمع مقتنياتهـا «بنـدكتن: Pendictine »، وهي مجمـوعـة قيمـة وثمينـة من المخطوطات والوثائق، وضعت في دير «مونت كاسينو: Monte Cassino» ، بإيطاليا. وتـطالعنـا المصادر، بأن الفضل يرجع للرومان في استجلاب المكتبـات ومجمـوعات الكتب إلى الجزيرة البريطانية عن طريق «سانت كولـومبـا: St. Colomba» الـذي جلب المكتبـات ومقتنياتهـا ليس إلى الجزيرة الـبريطانية، بل أيضـا على مستـوى القـارة الأوربية، وكـان ذلـك في القـرن السادس الميلادي. ولذلك فإن التأريخ للمكتبات في المجتمعات الأوربية الحـديثـة يبـدأ منذ هذا القرن، فقد كان للجهود الذي بذلها «سانت كولومبا St. Colomba» والتي تابعها من بعده العديد من الملوك والحكام في القـارة الأوربية، من أمثـال «تشـارلز الخامس Charles v في فرنسا «لورنزو دي ميد نشى: Lovenzo de Medici في إيطاليا، و «فردريك دوق أوربينو : Fredenic Duk of Urbino وغيرهم في القرون اللاحقة، الفضل في إيجاد الكثير من المكتبات المهمة في المجتمعات الأوربية.

أما على صعيد الدول ـ في القارة الأوربية ـ فقد بدأ إنتشار المكتبات

الأكاديمية في بداية عصر النهضة في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد أُنشئت مكتبة جامعة السوربون في باريس عام ١٢٥٧م، ويبدو أن إنشاء الغالبية العظمى من المكتبات الأكاديمية في أوربا، تم في الفترة مابين القرن الثالث والرابع عشر الميلادي، فقد وجدت في هذه الفترة، المكتبات الجامعية، لجامعات بولونيا، وبراغ، واكسفورد وهايدلبرج، ثم بدأت المكتبات الوطنية في الظهور في البلدان الأوربية، فكانت فرنسا سباقة في هذا المجال، حيث أقامت مكتبتها الوطنية Bibliotheque Nationale de France في باريس، ثم تلتها مكتبات المتحف البريطاني في فلورنسا، و «لينين: Lenin» في موسكو. أما مكتبة «الفاتيكان: Vatican» التي تُعد واحدة من أقدم المكتبات الوطنية في أوربا فقد أُنشئت عام ١٤٧٥م، والجدير بالذكر أن جزءاً كبيراً من مقتنيات مكتبة «أوربينو: Ur-bino» أُلحقت إلى مكتبة الفاتيكان عند إنشائها في المقر البابوي في روما.

وتزامن القرن السادس الميلادي مع قيام الحضارة الاسلامية في القرن الهجري الأول، وقد بدأت مسيرة المكتبات في الحضارة الإسلامية بإنشاء مكتبات ترتبط في معظمها بقصور الخلفاء والحكام والمؤسسات الدينية، حيث ضمت الجوامع والمساجد ـ التي كانت تُعد بمثابة مؤسسات تعليمية ـ مجموعات من الكتب والمقتنيات والمؤلفات المتصلة بالعقيدة الإسلامية والتراث الإسلامي. أما ظهور المكتبات الكبرى في المجتمعات الإسلامية، فقد تأخر ظهوره حتى القرن الثاني الهجري (حوالي السابع الميلادي)، وقد شهد القرنين الثالث والرابع الهجري حركة متطورة في مجال المكتبات في الحضارة الإسلامية. قامت في تلك الفترة مكتبات كبرى، كبيت الحكمة في بغداد التي أنشئت في عهد الخليفة هارون الرشيد، في أواخر القرن الثاني الهجري التي دمِّرت إبان الغزو المغولي للدول الإسلامية، ودخول جحافل التتر بقيادة هولاكو إلى بغداد عام ٦٥٦هـ، ومكتبة دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في مصر على عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥هـ، والتي يقال ببيع مقتنياتها في عهد

صلاح الدين الأيوبي، وانتقال معظم مقتنياها إلى مكتبة المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل بالقاهرة، ومكتبة الأمويين في قرطبة والتي سميت بمكتبة الحكم، نسبة إلى الحكم الثاني، المستنصر بالله، وإن كان من أنشأها هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام. وانتهت مكتبات الأندلس بتشتت محتوياتها وتفرقها على دويلات الأندلس في نهاية الدولة الأندلسية، وقضي على مابقي فيهابعد دخول الأسبان إلى الأندلس عام ١٥٠٠م، وقيامهم بتدمير ما وجدوه من مكتبات أسلامية قائمة عند دخولهم.

فإذا انتقلنا إلى العالم الجديد، في القارة الأمريكية، فنجد «مكتبة الكونجرس Library of Congress التي أنشئت عام ١٨٠٠م في مدينة واشنطون العاصمة الأمريكية، والتي تعد بمثابة المكتبة الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية. وهي من أقدم المكتبات التي أُنشئت على الأرض الأمريكية. كما تُعد «مكتبة نيويورك العامة: New York Public librory التي أنشئت عام ١٨٩٥م، من أقدم المكتبات العامة الأمريكية. وتمثل مكتبات «جامعات كولومبيا: Colombia ، «وهارفارد: :Harvard و «وييل: Yale «وبرنستون Princeton و «شيكاغو: Chicago الأمريكية، والتي أقيمت في سنوات متفرقة من القرن التاسع عشر الميلادي، من أقدم جامعات أمريكا الشمالية.

كان هذا عرضا موجزا وسريعا لتاريخ المكتبات في العالم منذ الحضارات القديمة وحتى العصر الحديث، وإذا ما أستقرأنا معطيات وحقائق هذا التاريخ، فسنجد أن تاريخ المكتبات بدأ في الحضارات القديمة، حيث كانت مجموعات المخطوطات والوثائق المكتوبة في لفافات البردى، أو الرُّقم الطينية، وطيات الرق، والمنسوجات الحريرية، ونهاية بالوسيط الورقي، تحفظ في المعابد وقصور الحكام. وهذه العلاقة الوثيقة الواضحة التي ربطت بين القدرة المعرفية التي تمثلها المكتبات وبين السلطة الدنيوية والدينية التي تمثلها القصور والمعابد، علاقة ذات مغزى عميق،

وفي غاية الخطورة والأهمية، فهذا يعني، أن السيطرة على مصادر المعرفة وخـزائن المعلومات في عالم تسود فيه الأمية ويخيم عليه الجهل بالحرف المـطبـوع، وما يحمله من مفاهيم وأبعاد حضارية، يشكل قوة غامضة ومقـدسـة لا يستـطاع مقـاومتهـا، حيث يصبح الكتاب مُهماً أكثر من السلاح، ويكون للحرف قوة السحر . والكتاب أداة فعالة في إخضاع البشر والسيطرة عليهم، ويعني هذا في النهاية أن للمكتبات العظيمة، قوة أعتى من جيوش العالم، وهذا بالفعل ما تمثله المكتبات منذ أن وجدت على الأرض.

الفصل الثاني
الحضارات القديمة

الحضارة المصرية القديمة (الحضارة الفرعونية)

تعتبر الحضارةالمصرية القديمة من أقدم الحضارت الإنسانية في العالم، ويرجع تاريخها إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وكان للمصريين تاريخ عريق في مجال الكتابة والكتب والمكتبات. وليس هذا بمستغرب في حضارة كان لها قصب السبق في ميادين المعرفة البشرية، والتي لازالت بعض مكتشفاتها العلمية لغزا محيرا لعلماء العصر وبُحاثه، فمنها وصلنا أقدم النصوص المكتوبة، وعليها أقيمت أقدم مكتبات التاريخ. تلك هي حضارة الفراعنة، حضارة المصريين القدماء.

والمصريون، لا يغلب عليهم أصل معين، فبعض أصولهم من بلاد النوبة في الجنوب، أو من ليبيا في الغرب، أو من الفئات السامية في الشرق، أو الحامية في الشمال، إمتزجت وانصهرت كلها في وادي النيل، فكونت شعباً لايزال حتى اليوم محافظا على توازنه الحضاري وميزاته الثقافية. بل ولا يزال هذا الشعب يصهر بداخله أي عنصر غريب، فيصير مصرياً بثقافته ولغته وحضارته المميزة.

شعر المصريون القدماء بالحاجة إلى تدوين أفكارهم خوفا عليها من الإندثار، فتضيع الفائدة من استمرار المعرفة. ولما كان الفكر في بداياته الأولى مسخرا للدين والعقيدة، بدا طبيعيا أن تتخذ الكتابة صبغة مقدسة، فكانت الكتابات الدينية تكتب باللغة الهيروغليفية، وهي تعني بصورة أو بأخرى النقش (أو الحفر) المقدس، وقد ظلت تلك اللغة لغة

لقدماء المصريين فـي الدولتين القديمة والوسطى (٣٢٠٠/٢٢٤٠ ق.م، ٢٢٤٠/١٧٤٠ق.م)، ويرجع أقدم نصوصها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. واستمر استخدام هذه اللغة إلى الدولة الحديثة (أي حوالي ألفـين قبـل الميلاد). ويمكن تقسيم الهـيروغليفية إلى فئتـين: أيدوجـرامية (IDEOGRAMIC) وهي رمـوز تدل على رسم الكلمات، وفونوجرامية (PHONOGRAMIC) تدل على الأصوات، باستخدام رموز تدل على تعيين المعنى. وقـد أُتخـذت تلك الأخـيرة أسـاسا للأبجدية الهيروغليفية التي بلغ عدد حروفها (٧٠٠) حرف.

يرجع الفضل في معرفة أسرار الكتابة الهيروغليفية إلى اكتشاف حجر رشيد، أثناء حمله نابليون على مصر عام (١٧٩٩)، حيث عثر أحد صغار ضباط الحملة على هذا الحجر أثناء حفره لبعض الخنادق الدفاعية في منطقة رشيد شمال الدلتا. وقد قام بتسليمه إلى قائده العسكري «الجنرال جان فرانسوا شامبليون» الذي تصادف أن كان مهتما بالآثار وعالما فيها. وكان الحجر عبارة عن قطعة من البازلت تحمل نقوشا متوازية، باليونانية القديمة، والهيروغليفية، والديموطيقية (وهي أحدى لغات مصر القديمة، سنـذكـرها في وقت لاحق). ويقال أنه بعد هزيمة الأسطول الفرنسي والقوات الفرنسية في مصر أمام القوات البريطانية، حدث نزاع على ملكية الحجر، وحُسم هذا النزاع في النهاية لصالح بريطانيا. وتم نقله إلى لندن حيث ظل محفوظا في المتحف البريطاني إلى وقتنا هذا. ولكن ذلك لم يمنع «شامبليون» من تصوير الحجر بدقة وتحديد معالمة ونقوشه، وانكب على دراستها، إنطلاقا من فرضية آمن بها، وهي أن اللغات الثلاث التي كتب بها الحجر، ماهي إلا نص واحد كتب باللغات الثلاث. وبعد بحث دقيق استمر عدة سنوات صحّت نظريته، فنجح في قراءة وترجمة عدة فقرات من النصوص المكتوبة على الحجر عام (١٨٢٢م). وكانت تلك بداية المحاولات التي قام بها العلماء والآثاريون في جميع أنحاء العالم، حتى تمكنوا من حل رموز الحجر بالكامل. وبذلك فتحوا أمام الباحثين

بابا واسعا لدراسة الحضارة المصرية القديمة بعد فك رموز لغتها الأولى المكتـوبة «الهيروغليفية». والجدير بالذكر أن نقوش الحجر كانت تتعلق بقرار للكهنة المصريين صدر عام (١٩٦) ق.م لشكر بطليموس الرابع (أبيفـانس) على إعفائهم من الضرائب، مما يدل على أن هذه الكتابة ترجـع إلى العصر الهلينسى في الحضـارة اليونانية. ومما يدل أيضا على استمرار استخدام اللغة الهيروغليفية، كوسيط كتابي حتى ذلك العصر.

بالإضـافـة إلى «الهـيروغليفية»، التي كانت على مايبـدو لغة الكهنة والمثقفين، والمكاتبات الرسمية في الدولة، وجدت لغتين أخريتين عُرفتا بأسم (الـديموطيقية: Demotique) و (الهيراطيقية: Hieratique) وكانتا من اللغـات المكتـوبـة. وقد وجد العديد من النقوش ولفائف البردي المكتوبة بهذه اللغات، التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفي عام قبل الميلاد. وقد استخدم قدماء المصريين أوراق البردي كمادة للكتابة، وقاموا بتصنيع لفـائف الـبردي الشهـيرة، وقاموا ليس فقط باستخدامها. بل وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك (أنظر المادة العلمية في الفصل الأول حول «البردي»). وقد كانت أدواتهم الكتابية تتناسب مع هذا الـوسيط، حيث استخـدمـوا أقـلام البـوص، والخشب بعد بريها وتجهيزهـا بطريقة خاصة (أنظر المادة العلمية المتعلقة بهذا الموضوع في الفصل الأول، أدوات الكتابة)، كما كانوا يستخدمون معدات النقش والحفر على الأحجار والصخور، مثل: (الأزميل/ والقادوم)، للكتابة على جدران المعـابد، والمسلات، والألواح الصخرية والحجرية، وغيرها من الوسائط الصلبة.

وقد وجدت آثار الكتابات في أماكن مختلفة في مصر، بعضها وجد محفـورا على جدران المعـابـد والمسـلات، وبعضها مكتوب على لفائف الـبردي، موضـوعـة في جدار أو منظمة في رفوف. وقد كتب المصريون القدماء في شتى الموضوعات. وكانت أبرز كتاباتهم في المجال الديني، فكتب المـوتى تعـد من أشهر الكتابات الدينية في الحضارة الفرعونية،

وكتب الموتى تلك كانت على شكل لفافات من البردي مكتوب عليها مجموعة من التعاويذ السحرية، بدأت كتابتها على قراطيس البردي منذ أيام الأسرة الثامنة عشر واعتقد الفراعنة أن هذه الكتابات تحميهم بعد موتهم من ظلمات القبر وأهواله، وتتيح لهم رؤية النور، وهي، حقيقة، ليست كتـابـاً بالمفهوم العصري، أنما هي مجموعة من التعاويذ والرقي كانت توضع مع المومياء أو داخل التوابيت، وتصور حساب الميت ووزن أعمـالـه بالقسطاط، وفيها طائفة من الصلوات والتراتيل، تعين حسب أعتقـادهم على مواجهة الإله أزيريس، لكي يستطيع الميت أن يبرىء نفسه أمام الإله، ويكسب الحياة الأبدية. وكتب قدماء المصريين أيضا في الأدب، والقصـة والشعـر والملحمية، مثل «نشيد أمون» والأساطير الملحمية القديمة مثل «إيزيس و اوزيريس وقصة سنوحى، وقصة «القائد تحتوت»، وغيرها كثير.

أما في العلوم، فقد كتب قدماء المصريين في الفلك، وعرفوا التقويم منذ القرن الخامس والعشرين ق.م، وعرفوا الحساب والأعداد والأرقام، أما الهندسة، فهى أحد العلوم التي برع فيها قدماء المصريين، كما برعوا في الـطب الـذي قطعوا فيه أشواطا كبيرة، وحققوا فيه تقدما مذهلا، واقترن هذا التميز مع تفوقهم في علوم العقاقير والأدوية والكيمياء.

يرجـع بعض المؤرخـين قلة معـرفتنـا بالمكتبات في الحضارة المصرية القديمة إلى أن معظم مقتنياتها تكونت من لفائف البردي، الذي يعتبر وسيطا هشا معرضا للفناء والتلف بفعل العوامل الطبيعية والبيئية، وهذه الفرضية على صحتها النسبية تتنافى في بعض جوانبها مع نتاج المكتشفات الأثـرية، التي أدت إلى اكتشاف الآلاف من أوراق البردي ولفائفه في الحضارة المصرية القديمة، والتي وصلتنا بحالة سليمة وجيدة ومقروءة، بالـرغم من عمرها الذي يقدّر بآلاف السنين، وبالرغم من عدم بوح المكتشفات الأثرية عن الكثير من المكتبات في الحضارة المصرية القديمة، إلا أن المراجع المتأخرة، ذكرت وجود مكتبات في مناطق متفرقة في مصر،

يرجع تاريخها إلى العصر الفرعوني، منها ما وجد في (تل العمارنة)، وهي مدينة أثرية تقع بالقرب من الضفة الشرقية للنيل على بعد حوالي ١٩٠ ميلا جنـوب القـاهـرة بناها الملك أمنتحب الرابع حوالى ١٣٩٦ق.م، لتكون عاصمة لبلاده، وقد عثر فيها على دور تحتوي على ألواح طينية مكتوبة بالخط المسماري، ولفائف من البردي، مما يدل على أنها كانت مكتبة أو داراً للسجلات والوثائق. وتلك الآثار التي وجدت في مدينة (طيبة) عاصمة مصر العليا منذ الأسرة الحادية عشرة وبها أعظم مجموعة أثرية في العالم، إذ وجد بها آثار تدل على وجود دور الوثائق والسجلات من لفـائف الـبردي ترجع إلى حوالي ١٢٠٠ق.م، وبالرغم من وجود شواهد أثرية على قيام مكتبات، إلا أن المكتبات ذاتها لم يعد لها أثر.

وتدل الدراسات حول تاريخ المكتبات في الحضارة الفرعونية، أن قيام المكتبـات الخـاصة بالملوك والنبلاء والأقطاعيين، سبقت وجود المكتبات الملحقة بالمعابد، حيث أكدت الأبحاث أن علية القوم في هذه الحضارة كانـوا يمتلكون مكتبات يرجع تاريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد، من أمثلتهـا تلك التي كان يمتلكهـا الملك «رمسيس الثـاني» (تـوفي عام ١٢٢٥ق.م)، والتي تكـونت محتـوياتهـا من برديات تتناول الموضوعات الدينية المقدسة في ذلك العهد. وقد عُثر على كتابات تشير إلى وجود هذه المكتبة، وإن لم يعثر على المكتبة نفسها. كما عثر على آثار لمكتبات ترجع إلى العصر الفـرعـوني في منـاطق «دنـدرة» ويطلق عليهـا بالهيروغليفية (أيونـة ـ إن نتره) وتعني (رواق المعبـودة أو معبـدهـا)، وكانت عاصمة الإقليم السادس من أقاليم الصعيد، وتقع على الضفة الغربية من النيل على بعـد ٦٦٥كم جنـوبي القـاهـرة، ومنطقة «هليوبولس» Heliopolis ويطلق عليهـا باللغـة الفـرعـونية (آيونـو)، ويترجمهـا الأغـريق (مدينة الشمس)، أما العرب فيدعونها (عين الشمس)، ووجد بها لفائف من البردي، تؤكد أن كهنة معبد رع بهليو بولس، أول من قسموا السنة إلى إثنى عشر شهرا، ثم قسموا الشهر إلى ثلاثين يوما، ثم أضافوا إليها في

آخر العام خمسة أيام كى تصبح السنة (٣٦٥) يوما، كما عثر بها على لفـائف بردى تتنـاول الموضوعات الأدبية والفلسفية. وتُعد مكتبة معبد حورس Horus في مدينة «أدفو»، واحدة من أشهر المكتبات الدينية في حضارة قدماء المصريين، وقد احتوت هذه المكتبة، التي أطلق عليها مسمى «بيت البردي»، على لفـائف من الـبردي تتنـاول موضـوعـات متعلقة بالفلك، والـديانـات والصيد، كما وجـد بها فهرس منقوش على أحد جدرانها مدون عليه مقتنياتها. كما اكتشف في معبد الكرنك مكتبةً ملحقةً به أُطلق عليها «بيت الكتب». كما اكتشفت أيضا مكتبة فرعونية، أكدت نتائج الدراسات التي أُجريت عليها، أنها كانت مكتبة لأثنين من «أمناء المكتبة»، ينتمون إلى طبقة الكهنة، كما أثبتت الدراسات أنهما كانا أب وإبنة، مما يرجح أن مهنة أمين المكتبة، كانت من المهن المتوارثة في ذلك العصر بين طبقـة العـاملين في مجال الكهنـوت. وقد دلت المكتشفات الأثرية أن من قاموا بأعباء أمانة المكتبات كانوا ينتمون إلى طبقة الكهنة.

تعد «بردية برس: PRISSE PAPYRUS من أقدم البرديات المكتشفة في الحضارة المصرية القديمة، ويرجَّح أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة (٢٢١٢ ـ ٢٠٠٠ق.م)، ويرجعها البعض إلى ٢٨٨٠ق.م. اشتراها عالم فرنسي يدعى « "PRISSE D'AVENNER" : برس دى أفونيه»، من أحد الفلاحين بالأقصر، يبلغ طولها نحو ٨م. وهي في حالتها الراهنة تتألف من ثمانى عشرة صفحة، مكتوبة كتابة واضحة بالقلمين الأسود والأحمر، بالخط الهيراطيقي، يبدو فيها قدرا كبيراً من العناية، وإن كان بها بعض الأخـطاء، كأنها نقلت عن نسخة رديئة الخط، وتحتوي على حكم وأمثال بتاح حوتب، وهي محفوظة الآن في المكتبة الوطنية بباريس.
أمـا بردية تورين TURIN PAPYRUS ، فيرجـع تاريخهـا إلى الأسرة التـاسعة عشر الفرعونية (١٢٥٠ق.م)، وقد كُتبت بالهيراطيقية أيضا، وهي عبارة عن قائمة ملوك مصر تبين طول حكم كل منهم بالسنوات والشهور والأيام. ورغم ما لهذه البردية من قيمة تاريخية إلا أنها في حالة

سيئة من الحفظ، كما أن نصفها ضاع نتيجة سوء علاجها، فقد كانت أصـلا في جبـانـة ملك سردينيا، ثم أرسلت إلى تورين في تعبئـة غير سليمـة، أدت إلى تهشمهـا إلى قطع لا تُحصى، وبُـذل جهد كبير في إرجاعها إلى ماكانت عليه، إلا أنها بعد الترميم، لا يزال بها ثغرات كثيرة نتيجـة للأجزاء التي تلفت، وفُقد نتيجة لذلك تاريخ سبعة ملوك من السبعة عشر المسجلين عليها، وهي الآن محفوظة في متحف تورين. أما «بردية أيبرز: EBERES PARYRUS التي ترجع إلى العصر الفرعوني، فقد تم اكتشافها في مصر عام ١٨٦٢، وتحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم امنوفيس الأول ١٥٥٠ق.م، وشرحها الأثري الألماني «إيبز»، وهي تبدأ بديباجة سحرية كان الغرض منها تقديم حجة عن أصالة الكتب الإلهية، وعلى قوة السحر المستمد من إله الخير «تحوت» الذي كلفه رع بحماية البشر من الألم، وقد تم إستعمالها تعويذه شافية، وهي تصنف ضمن البرديات الطبية، وتعد أشهرها طولا. وهي محفوظة الآن في جامعة ليبزج بألمانيا. وتعد «بردية هيرست: HEREST PAPYRUS التي تقع في (١٨) صفحة، وتصف (٢٦٠) حالة وردت منها (٩٦) حالة في بردية إبـرس، من الـبرديات الـطبية المكتشفة في الحضارة الفرعونية، ويرجع تاريخهـا إلى الألف الثـانية قبـل الميلاد، وهي تحوي بابا عن العظام. وعموما فإنها أقل قيمة من سابقتها، وإن فاقتها في بعض فقراتها. أما الـبردية التي سميت «بـبردية حورس ١ HORRIS PAPYRUS 1 التي يرجع تاريخها إلى ١١٠٠ق.م، فتعد من أطول البرديات التي عثر عليها في الحضـارة المصرية القـديمـة، إذ بلغ طولها حوالى (٤١) مترا، وقد أشتهرت هذه البردية نتيجة لهذه الصفة، وهي محفوظة الآن في المتحف البريطاني بلندن.

ويمكننا تلخيص خصائص حضارة قدماء المصريين في النقاط التالية:

١ ــ أقدم حضارة في العالم إذ يبلغ تاريخها الحضاري أكثر من سبعة آلاف عام، وهي تتفوق في ذلك على أي حضارة أخرى في العالم.

٢ ـ اكتشافها لواحد من أعظم المواد الكتابية في العالم، واكثرها إنتشارا بين الحضارات، وهو ورق البردي.

٣ ـ تميزت الحضارة المصرية القديمة بوجود ثلاث لغات مكتوبة ومستخدمة في كتابة إنتاجها الفكري والثقافي، وهو الشيء الذي لا نجده في حضارة قديمة أخرى.

٤ ـ كثرة انتاجها في مجال الكتابات الدينية، وتميزها بنوعية خاصة في هذا الانتاج وهي «كتب الموتى».

٥ ـ معاصرتها لكل الحضارات القديمة على الأطلاق، بدءاً من الحضارة السومرية، ومروراً بالحضارات البابلية والآشورية، والصينية، والهندية، واليونانية ونهاية بالحضارة الرومانية، مما جعلها تؤثر ـ بمستويات مختلفة ـ على المسار الفكري لهذه الحضارات وتتأثر بها، وهي الخاصية التي أنعكست على الثراء الفكري والثقافي في حضارة مصر القديمة.

الحضارة السومرية

بين بادية الشام، ومرتفعات إيران، منخفض صحراوي يعبره نهرا دجلة والفرات، فيحولانه إلى سهل خصيب، وهو ما يُعرف اليوم بالعراق، شهد واحدة من أقدم حضارات العالم، عُرفت عبر التاريخ بالحضارة السومرية، التي أنشأها السومريون في الطرف الجنوبي من هذه الرقعة الجغرافية. ويرجع السومريون إلى إصول آرية، وهم أغراب عن شعوب بلاد ما بين النهرين التي ترجع أصولها إلى الجنس السامي. وقد حل السومريون في الجنوب عند مصب نهري دجلة والفرات حوالي العام ٣٢٠٠ق.م. وهناك أسسوا حضارتهم العظيمة، وكانوا يطلقون على بلدهم أسم شومر. وحضارتهم تمتد على مرحلتين، المرحلة الأولى تبدأ بنهاية عصر (حجده نصر). ويبدأ الثبت التاريخي السومري بالأسرة

الثـالثة بعد الطوفان المعروفة بأسم أسرة أور الأولى. وأول ملوك هذه الأسرة يدعى (مسياني باد) (حوالي ٢٩٠٠ ق.م)، وفي هذا العصر كانت (أور : Ur) ، هي العـاصمة المزدهرة في جنوب وادي بلاد الرافدين. وتمتـد حضـارة السومريين بعد ذلك زمنا يتراوح بين ثلاثة قرون وستة قرون، وتنتهي بقيام أمبراطورية (سرجون الأول: Sargon I) (٢٣٧٠ - ٢٣٠٥ق.م)، حيث حكمهـا الأكـاديون بقيادتـه. وبعد تلك السيادة السـامية، عادت سومـر إلى الـظهـور تحت أسرة أرو الثالثة ومؤسسها (أورنمو) (٢٠٥٠ق.م). ثم فتحها العيلاميون وأسسو عاصمة لهم في (لارسـا: Larsa) حوالي القـرن الثـامن عشر قبـل الميلاد. وهناك من المؤرخين ما يؤرخ لنهاية الحضارة السومرية، بدخول الأكاديين إليها عام ٢٧٢٥ق.م. ويستند في ذلك على الأصل السامي للشعوب الأكادية، وإن كان الكثير من البحاثة والمؤرخين، يعتبرون الحضارة الأكادية امتداداً للحضارة السومرية، وعليه فيؤرخون لنهايتها بحوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهو بداية عهد العيلاميون. وكان من أشهر مدنهم، (أور: Ur) ، (أرك: Urk) ، (أوما: Oumma) (لاغاش: Lagash) ، (لارسا: Larsa) ، وكانت مدينة (ماري: Mari) أبعدها إلى الشمال.

عندما أحس السومريون بالحاجة إلى تدوين أفكارهم، وضعوا أسس كتابة أخذها عنهم الأكاديون (الأشوريون والبابليون)، وطوروها فأضحت أيسر استخداما، وعُرفت بإسم الكتابة المسمارية. ويرجع تاريخ الكتابة المسـمارية إلى نهاية الألف الـرابع قبل الميلاد، وكانت تكتب بالطريقة التصويرية، وذلك باستخدام رموز المعاني، التي يكتفي فيها برسم صورة تُعـبر عن شيء معـروف، وتصوره على وجه التقريب. وتحتوي الكتابة التصـويرية السومرية على رموز، بعضها للمعاني، ويقصد منها الشيء المصور نفسه، أو ما يتعلق به، وتُعرف «برموز المعاني»، وبعضها له دلالة صوتية فقط، وتعرف «برموز الأصوات»، وبعضها الآخر يساعد على فهم المعنى المقصود، وتُعرف «بمخصصات المعاني» واللغة السومرية القديمة

بها كلمات مكتوبة كتابة صوتية وحيدة المقطع، لكون غالبية كلماتها ذات مقطع واحد، وعادة كان الرمز فيها مقطعا واحدا، سواء ذو معنى (Ideograms) أو رمز صوتي (بلا معنى).

استخدمت الكتابة السومرية رموز المعاني البسيطة والمركبة، وتبعها في ذلك البابليون والآشوريون اللذان ورثا عنها طريقتها في الكتابة، وطوراها وحولاها إلى كتابة مقطعية كاملة، وغيَّرا في حالات كثيرة رموز المعاني بما يناسب لغتيهما المتطورتين، وبالتالي في رموز الأصوات المأخوذة عنها. وهكذا نجد أن الشكل النهائي للكتابة (وبالأحرى للكتابات) السومرية لم يكن وليد فترة زمنية قصيرة، فهي بدأت مع الحضارة السومرية، ثم طرأ عليها التحوير والتطوير في الحضارات اللاحقة لها، ومرت بالمراحل التقليدية للكتابة التصويرية، والرمزية، والصوتية. ويتبين لنا من قراءة النقـوش المكتـوبـة بالمسـمارية (المسـمارية هي التـدوين المنـظور للغـة السومرية)، أنها لم تقتصر على لغة معينة، ولكنها استُخدمت في تدوين لغـات شعـوب حضارات عدة، أشهرها؛ شعوب الحضارة السومرية، والبابلية، والأشورية، والفارسية القديمة، والحيثية.

وقد بدأت الكتابة لدى السومريين، من اليمين إلى اليسار (كاللغة العربية)، ومن أعلى إلى أسفل (كاللغة الصينية)، ولكن لحقها التطور وبدأت تُكتب من اليسار إلى اليمين (كما في اللغات الأوربية). وقد أطلق على هذه الكتابة أسم (Cuneiforme) وهو مصطلح مركب من مقطعين (Cunei) ويعني وتداً إسفين، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية (Cuneus) ، والمقـطع الثـاني (Forme) ويعني شكـل. ولـذا فالكلمـة تعني الشكـل الوتدي أو الاسفيني. وقد أطلق عليها هذا الاسم، بسبب أن هذه اللغة تكتب باستخدام أداة غير حادة، تصنع عادة من المعدن، أو الخشب، أو العاج، وتأخذ الشكل المثلث ▼ ، كما أن حروف هذا اللغة، تأخذ شكـلا مقاربا للأداة المستخدمة لكتابتها، فتبدوا على شكل أسافين أو أوتاداً، مثل:

أ = a = ►►

ب = B = ▼▼

ج = G = ▼ ... الخ

وقـد سمِّيت بالعـربية، الخط المسماري، أوالكتابة المسمارية، لنفس الأسباب السابقة، لأنها تُكتب بأداة تأخذ شكل المسمار، كما أن حروفها تأخذ الشكل نفسه.

ونـظراً لأن الكتـابة المسمارية، كانت متداولة بين شعوب حضارات عدة، فقد تم حل طلاسم هذه الكتابة في فترات زمنية متفرقة، توقفت على الحقبة الزمنية التي عثر فيها الآثاريون على الألواح التي ساعدت في فك رموز الكتابة المسمارية التي نُقشت عليها بأساليب مختلفة. ويرجع تاريخ أول كشف أثـري إلى سنـة ١٨٤٤، عنـدمـا قام (سـير هنري رولنسون: Sir H. Rawlinson) الديبلوماسي البريطاني الذي كان يشغل منصب القنصل بالسفارة البريطانية في بغداد، بوصف لوح عُثر عليها في أحد المواقع الأثرية بإيران، عُرفت بإسم (لوح Behisten tablet) وكانت مكتوبة بلغات ثلاث، الفارسية القديمة/ البابلية المسمارية/ الألاميت، وهي جزء من قصة البابليين مع الطوفان. وهي محفوظة الآن في متحف اللوفـر بـباريس. كما يُعـد اكتشـاف (سكـافية: sckafer)، المهندس الفـرنسي، الذي عثر عليه في منطقة رأس الشمرة (أو جاريت القديمة)، وهي تل أثري يقع شمال اللاذقية على الساحل السوري، عام ١٩٢٩/٢٨، ويحتوي على نقوش مكتوبة بالخط المسماري الأوجاريتي (الأبجدية الأوجاريتية المسـمارية) مكتـوب على لوحـات فخـارية، ويحتـوي على أساطير وملاحم شعـرية وأناشيد وصلوات دينية، تُلقى الضوء على الأدب الكنعاني في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث استطاع (شى. فيرولو: ch. Virolleaud)، و (د. دورم: D. Dhorme) و (هانز باور: Hans Baver) كل على

حده ـ الوصول إلى حل طلاسم هذه الكتابة بهذه المكتشفات وغيرها، وبذلك أمكن حل طلاسم اللغـة المسـمارية القـديمـة، وبـذا تمكن العلماء، من دراسـة المعطيات الحضارية والثقافية للشعوب التي كتبت بها، ويعد هذا الاكتشاف اكتشافا مهما.

استخـدم السـومـريون (الألواح (الرُّقم) الطينية: Clay Tablets)، كوسيط رئيسي للكتـابة، تتم الكتابة عليه باستخدام أداة (قلم) تأخذ شكل الإسفين أو الوتد، تصنع من مواد مختلفة من المعدن، والخشب، وبعض أنواع العاج، وبعد الكتابة يترك (لوح الطين النيء: Soft clay) حتى يجف، وفي وقت لاحق تم الاستعانة باسلوب الحرق، حيث توضع الألواح الطينية بعد كتابتها في أفران وتجفف بالنار لتكتسب الصلابة، وسمي ذلك (بالفخار المحروق: Fired ware) وتُعد هذه الأشكال النوع الأول من الكتب التي أُنتجت في هذه الحضارة. وبالرغم من أن الرُّقم الطينية، كانت ثقيلة الوزن صعبة الحمل كوسيط كتابي، إلا أنها امتازت على الـوسـائط الكتـابية الأخـرى التي استخدمت في عصرها (كأوراق البردي)، بأنها أكثر تحملا ومقاومة لعوامل التلف والدمار، ويرجع الفضل لهذا الوسيط الطيني، لتعرفنا على الكثير من ملامح وخصائص المكتبات المنتمية إلى حضـارات مابين النهرين. (راجع المادة العلمية حول هذا الموضوع، في الفصل الأول «الرقم الطينية».

استخـدم السـومـريون الـرقم الطينية، لتسجيل معارفهم وانتاجهم الفكري، وأحداثهم، وتاريخهم، وقد كتبوا في الأدب، إلا أنه كان من الصعب للغاية معرفة نشأة الأدب وتطوره في بلاد الرافدين، فما وجد مكتوباً باللغة المسمارية السومرية، وتمكن الآثاريون من ارجاع أصله إلى الحضـارة السومرية، وجد ـ أيضا ـ خطوطا بالكتابة المسمارية الأشورية والبابلية على ألواح الطين، وفي مكتبات ترجع في تاريخها إلى فترة الحضارة السومرية، أو البابلية، أو الأشورية، مما جعل المهمة جد صعبة أمام البـاحثـين في إرجاع النصوص الأدبية إلى منشئها الأصلي. ومثالا على ذلـك، ما حدث مع (ملحمة جلجاميش: Gilgamesh Epic)، التي

وجدت مكتوبة، بلغات الحضارات **الثلاث**. وهذا يعني أنه ليست ثمة أدب قديم أو أدب حديث، كما هو حاصل في تصنيف الآداب اليوم، فكل الآثار الأدبية لهذا العصر، تداخلت مع بعضها البعض، فكل دولة تأخذ من سابقتها، وكل شعب يأخذ من سلفه، وكل حضارة تأخذ من أخـرى، ودائـما، دونـما تمايز يُذكر، مما يجعلها متقاربة في خصائصها، ويصعب التمييز بينهما.

كتب السومريون أيضا في الفلك، ووضعوا تقويما قمريا، وإن افتقد إلى الدقة؛ وعرفوا الحساب ودونوه، وإن كانوا لم يعرفوا الأرقام، ورمزوا إليها بأشكال مسمارية (مثال: ١ : ▼). وكتبوا في الطب، وقام بذلك كهنتهم، فالكهنـة هم أطبـاء هذه الحضـارة. وكتبوا أيضا في الفلسفة والسياسة، إلا أن أغلب كتاباتهم كانت تتعلق بشئون الدولة، والأمور التجارية. أما أشهر ماخلفوه من تراث، فكان الرُّقم الطينية التي سجلت عليها (ملحمة جلجاميش: Gilgamesh Epic) والتي قام بتدوينها ونسخها من بعـدهم الحضارات اللاحقة في المنطقة (البابليون، والأشوريون). وتُعد هذه الملحمة التي نُسخت في الألف الثاني قبل الميلاد وما بعده، بآداب سومرية الصيغة والأسلوب، عن أصول قديمة ترجع إلى القرن السـابـع عشر قبـل الميلاد - تعـد من أعـظم المـلاحم السومرية، بل وحضارات ما بين النهرين مجتمعه. وتضمنت، أدبا قصصيا، وأساطير، ومحـاورات دنيوية ودينية، وكـانت من أشهرها قصة الطوفان، وملاحم إيتمركا، ولوجان نبدا، ومغامرات جلجميش، ونزول الربه نانا إلى العالم السفلي، ومحاورة الفلاح والراعي، ومحاورة الصيف والشتاء، فضلا عن أمثال سائرة، ونصوص تعليمية، وتبدأ بعض قصصها، ومحاوراتها بمقدمة أسطورية تكسبها نوعا من القداسة.

تُعد مكتبات الحضارة السومرية، من أقدم مكتبات حضارات بلاد مابين النهرين، وترجع في تاريخها الى الألف الثالثة قبل الميلاد، ويقدر بعض العلماء عدد مقتنياتهـا بحوالي (٢٠٠)ألف رُقُم طيني، وإن كان

البعض يدعي بأن أعداد مقتنياتها تفوق هذا الرقم بكثير وقد كشفت الحفـريات التي أجـريت في مواقـع المـدن الأثرية المنتمية إلى الحضارة السـومـرية، عن وجـود مجمـوعات كبيرة من الرُّقم الطينية، واللوحات الفخارية، التي يُعتقد أنها بقايا مكتبات كبيرة وعظيمة، أُنشئت في هذه الحضارة. ومن أهم المكتشفات الأثرية في هذا الصدد، ما عُثر عليه في (مدينة تللو: Telloh) التي تقع قرب لاغاش، فقد اكتشف الآثاريون مجموعة ضخمة من الرُّقم الطينية واللوحات الفخارية التي يقدرها البعض بحوالي ٣٠ ألف لوح طيني، يرجح أنها ترجع إلى ١٨٠٠ ق.م. ويُعتقد أنها بقايا مقتنيات واحدة من أقدم مكتبات السومريين. وفـي مدينة (آور: OWR, Ur) ، التي تقع على مسافة ست عشرة كيلو متراً جنوب الناصرية على نهر الفرات بجنوب العراق، (وكانت أحدى المدن السومرية الكبرى)، أسفرت نتائج الحفريات التي قام بها (أ. تيلور: A. Tailor) عام ١٨٥٤م، وخبراء من المتحف البريطاني بالاشتراك مع باحثين من جامعة بنسلفانيا الأمريكية، خلال الأعوام ١٨/١٩١٩، العثور على لوحات مكتوبة، وأختام فخارية وعـادية، يرجـع تاريخها الى حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م. وتُعد من أقدم المكتشفـات التـاريخية المتعلقـة بتـاريخ الكتـابـة والمكتبـات في حضارة السـومـريين. والجدير بالذكر، أنه من نتائج هذه الحفرية، تعرفنا على الأسم الذي كان يطلقه السومريون على المكتبات في عصرهم، فقد دلت النقوش أنهم يستخدمون مصطلح «بيت اللوحات» لتسمية الأماكن التي يحتفظون فيها بالرُّقم الطينية والألواح الفخارية، وقد عثر على نقش يفيد بأن مجمـوعـة لوحـات مدينة أور كانت محفوظة في مكان يسمَّى «بيت اللوحات الكبير». وقد اكتشف في مدينة أور أيضا لوحات تحتوي على نصوص قانونية، يؤكد العلماء أسبقيتها في الظهور على (تشريعات حمورابي القانونية: Hammurabi Codes) بحوالي ٣٠٠ عام. ولم تكن حفريات مدينة أور، المصدر الوحيد لتعرفنا على مكتبات الحضارة السومرية، فقد قام الآثاريون ،باكتشفات مماثلة في مدينة (نيبور: Nippur) ، حيث عُثر

على أعـداد كبـيرة من الـرُّقم الطينية، يُعتقد أنها مقتنيات مكتبة كبيرة أُنشئت في هذه المـدينة، كما أدت الحفريات التي قام بها (سير ليونارد وولي: Sir leonard Wolly) من عام ١٩٣٧ إلى ١٩٤٦، في منطقة (تل عطشانة: Tell Atchana) الواقع على سهل العمق شرقي نهر العاصي، بين حدود تركيا وسوريا، إلى اكتشاف ألواح ورُقم طينية مكتوبة باللغة المسمارية السومرية يرجع تاريخها الى مابين ٢٧٠٠ و ٢٣٥٠ ق.م، وهذا ماحدث أيضا في الحفريات التي أجراها (فلندز بتري: F. Putry) من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٣٨، في (تل العجول: Tell El Ajjul) ويطلق عليه أيضا تل الخراف)، حيث عثر على كمية كبيرة من اللوحات والرقم الطينية مكتوبة باللغة المسمارية، ويرجع تاريخها إلى عهد الحضارة السومرية.

يشير كثير من المؤرخون بأن السومريين، يشتركون مع الحضارة المصرية القديمة، في ظاهرة تسجيل إنجازات حضارتهم، بهدف واضح، يرمي، إلى حفـظها للأجيال القادمة وبعبارة أخرى، فقد استخدم السومريون الكتابة كوسيط لحفظ تراثهم وإنجازاتهم بغية نقل معارفهم وخبراتهم إلى من يجيء بعـدهم، ويُعـد هذا من الأمـور التي يحمدون عليها، فقد استطاع العلماء والبحاث من خلال هذا التراث المكتوب، التعرف على معطيات هذه الحضارة ورسم صورة واضحة المعالم عنها.

وأهم ما تميزت به هذه الحضارة، فيما يتعلق بتاريخ الكتابة والكتب والمكتبات يتلخص في الآتي:

١ ـ تعد الكتابة المسمارية، أعظم إسهامات الحضارة السومرية، فهم أول من ابتـدع الكتـابـة الـرمـزية وطوّرها، وحولوها إلى نظام كتابي مقطعي، تطغى عليه السمة الصوتية، وبذا تعد من أوائل اللغات المتطورة المكتشفة في العالم.

٢ ـ كان السومريون أول من استخدم الوسيط الطيني، الذي أطلق عليه ألواح الطين، أو الرُّقم الطينية. وطوروا فيه، حيث انبثق منه ما

يسمى بألواح الفخار المحروق المستخدمة في الكتابة. وقد ارتبط هذا الوسيط الكتابي بحضارتهم، وأخذته عنهم الحضارات الأخرى في المنطقة.

٣ ـ يعزى إليهم إنشاء أول شكل من أشكال المكتبات، الذي أطلق عليه «بيت اللوحات».

الحضارة البابلية

ينتمي الشعب البابلي إلى أصول سامية، مهاجرين من بلاد أمورو Amorites ، واستقر النازحون الجدد في بابل Babylon ، وتعني «بيت الإله، واتخذوها عاصمة لهم. ترجع حضارتهم إلى منتصف الألف الثالثة ق.م، حيث أخذ الساميون والأكاديون ينتشرون في بلاد ما بين النهرين، وجاء الأموريون ليدمـروا مقر الدولة السومرية في «أور Ur/Dwr ويخضعوا أراضيها لحكمهم. وعلى أنقاض الدولة السومرية نشأت الدولة البابلية الـقـوية، وتـوحـد سلطانهم في عهـد حمورابي Hammorabi (١٧١٠ـ١٦٧٠ق.م) ودامت حضارتهم الى حوالي ٦٠٠ق.م، مما يعني أنها استمرت حوالي الألف عام. وطور البابليون كل ما خلفه السومريون من تراث فكـري وثقافي، في المجالات الروحية والمادية، وأخذوا عنهم الكتابة المسمارية. ومن البديهي أن يستخدم البابليون، نفس الوسائط الكتابية، التي كانت تستخدم في الحضارة السومرية فكانت الرُّقم والألواح الـطينية مادتهم الكتـابية الأولى، وأدوات النقش والحفـر كانت ذاتهـا المستخدمة في هذه الحضارة.

ولأغراض دراسة وتحقيق الموروث الفكري الثقافي والعلمي للحضارة السـومـرية، عمـد البـابليون الى وضع العديد من القواميس والمراجع اللغوية، ليترجموا النصوص الأدبية السومرية ويتابعوا تطوير المعارف التي بدأتها الحضارة السومرية، وقد بلغوا في ذلك شأوا عظيما، وتحول الكثيـر من الكتابات السومرية إلى جزء لا يتجزأ من الأدب البابلي. ومثال لذلك

«ملحمة جلجاميش» السومرية، التي بنسخها والكتابة عنها، للدرجة التي أوحت إلى كثير من الباحثين والعلماء بأن هذه الملحمة بابلية الأصل، حتى تم اكتشاف حقيقتها في وقت لاحق.

عشق البابليون الكتابة وتوصلوا إلى تدوين إنتاج فكري ضخم، يقدره بعض البـاحثـين بما يتجاوز الـ ٦٠٠ ألف رقم طين، تتضمن مختلف المـوضـوعـات الأدبية، والعلمية، والـديانـات، بجـانب ما خلفوه من سجلات تختص بشئون الدولة والأعمال الحكومية، والمعاملات التجارية، كما قاموا في المجال العلمي، بتعديلات هامة في علوم الفلك، حيث قاموا بتعديل التقويم القمري الذي وضعه السومريون وردوه إلى الحساب الشمسي الذي كان متبعاً من قبل.

إلا أن أهم مجالاتهم الكتابية على الأطلاق، كانت في مجال التشريع والقـانـون، وتُعـد تشريعات حمورابي Codes of Hammurabi من أهم الكتابات في الحضارة البابلية. وتعزى هذه التشريعات الى الملك حمورابي Hammurbi : ملك بابـل (حـوالي ١٧٨٣-١٧٤٠ق.م)، الـذي بدأ تشريعاته التي عُرفت في التاريخ بإسم «تشريعات حمورابي»، منذ العام الثـامن من حكمـه، وتنـاولت أمـور القضاء والأمن وحقوق المحاربين ومسؤلياتهم. وعقود الزراعة، وشروط القروض، والأحوال الشخصية بما تتضمنـه من الـزواج والـطلاق والمـواريث، وتحـدثت عن القصـاص والتعويضات وأجور أصحاب المهن ومسئولياتهم، وعموما فقد احتوت في ثناياها على أحكام راقية يقبلها المنطق في كل عصر، وأخرى يصعب قبولها الآن بمنطق العصر. والألواح المتضمنة هذه التشريعات محفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس.

استخدم البابليون طريقة النسخ على الرُّقم الطينية، وكانوا يقومون بذلك في ورش خاصة، ثم يحفظونها في مراكز للوثائق والمكتبات، كانت منتشرة في المعابد وقصور الحكام. وقد تم إكتشاف العديد من المكتبات

التي تحوي الواحدة منها عشرات الألوف من الرُّقم الطينية في كبريات مدن الحضارة البابلية. وقد اكتشف، في ضواحي «نيبور : NIPPUR» الواقعة جنوبي بغداد، فيما بين سنتي ١٨٩٠و١٩٠٠م، أعداد كبيرة من الـرُّقم الـطينية محفـوظـة في حجـرات خاصـة ملحقة بالمعبد، واستدل الأثاريون من ذلك على أن تلك الألواح كانت جزءاً من مقتنيات مكتبة ضخمة، أو مركزا عظيما للوثائق، يرجع تاريخها إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد كما اكتشفت مكتبات في مدن أخرى مثل كيش Kish ، وكوتا Kuta ، وسيبار Sippar. وتُعد آثار تل الحريري Tell al Hasriri الواقع في مدينة ماري Mari السورية، على ضفاف نهر الفرات من أهم الاكتشـافات المكتبية في الحضارة البابلية، حيث عثر في هذا الموقع الأثري على سجلات ملكية ولوحات حفرت عليها حروف مسمارية تتضمن معلومـات جغـرافية وتاريخية، بجانب الأعمال الأدبية. ويدعي المؤرخون، أن هذه المقتنيات تؤلف مكتبة تنافس مكتبة نينوى في الحضارة الأشورية، ومكتبة تللو في الحضارة السومرية. وقد اكتشف أيضا في موقع أثـرى بمـدينة بابل القديمة عدد كبير من الرُّقم الطينية المحتوية على سجلات حكومية وإدارية، قُدرت بعدة آلاف من الألواح، تتناول شتي المعلومـات عن النـظم الضريبية والسجلات المدنية، ووثائق المحاكم، وغـيرها من الوثائق الرسمية للدولة. أما مقتنيات مكتبة بورسيبا Borsippa ، فتعـد من المكتشفـات المكتبية في هذه الحضـارة، وقـد عُرفت في التـاريخ بإسم الواح مكتبة بورسيبا. Tabletes of Borsippa library وقد استقى العلماء الكثير من معارفهم ومعلوماتهم عن الحضارة البابلية عن طريق دراستهم وتفحصهم لمقتنيات هذه المكتبة. والجدير بالذكر، أنه تم في وقت لاحق استنساخ هذه الرُّقم، في عهد الملك الأشوري آشور بانيبال، وحفـظت الرقم المستنسخة في مكتبة الملك الآشوري في نينوى (مكتبة أشور بانيبال). وتدل نتائج الدراسات حول هذه المكتبات بأنها كانت منظمة ومرتبة بطريقة منطقية بحيث يسهل استخدامها والاستفادة منها.

وأهم خصائص هذه الحضارة، هو انتاجها الفكري المتميز في مجال التشريعات والقوانين، والتي تمثلت في «تشريعات حمورابي القانونية، والتي احتـوت على ٢٨٢ مادة تشريعية، اقتبست من الشرائع والتقاليد التي كانت سائدة في هذا العصر .

الحضارة الآشورية

يرجـع أصل الشعب الآشوري إلى مزيج من شعوب يغلب عليها العنصر السـامي، كانت تقـطن شمال بلاد الـرافدين. ويرجع تاريخها الحضاري إلى إمبراطورية قديمة قامت بغربي آسيا حول مدينة آشور Ashur الواقعة في أعالي نهر دجلة، حيث اتخذت عاصمتها فيما بعد في «كـالاه» ثم «نينـوى»، ففي حوالي منتصف الألف الثالثة ق.م، كان لسكان آشور حضارات مادية لاتكاد تختلف عن حضارة السومريين في الجنوب، ثم فيما بعد، في عصر «أكاد: Accad» (ويطلق عليها أجادة في اللغـات غير السـامية)، وفي عصر الأسرة الثـالثـة في أور (حـوالي ٢٠٠٠ق.م)، كانت آشـور تخضـع لهؤلاء الأجانب. وقد شهد القرن الثــامن عشر ق.م الفـترة الأولى للسيادة الآشـورية في عهـد شمشي (شامش) أداد الأول، وقد ظهر الآشوريون في شخصيتهم الكاملة كإحدى الدول المناضلة على السيادة في عالم غرب آسيا. وقد صارت أمبراطورية في عهد تجلات بيلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م)، وبلغت شأواً كبيراً في عهد سرجون الثاني Sargon II (٧٢٢-٧٠٥ق.م)، الجد الأكبر لآشور بانيبـال Ashurbanipal ٦٦٨-٦٢٦ق.م)، الذي ارتبطت بإسمه أعظم مكتبـة في الحضـارة الآشـورية (يطلق عليه أيضا: آشور ناصر بال). كواحـدة من حضارت مابين النهرين. تميزت الحضارة الآشورية بنفس الخصـائص الحضارية، والملامح الفكرية لحضارات المنطقة (السومرية، والبـابلية)، ونقلت عنهم أسلوبهم في الكتابة وتسجيل المعارف الفكرية لحضـارات المنـطقـة (السـومـرية، والبـابلية)، ووسـائـطهم الكتـابية،

فاستخـدمـوا الكتابة المسمارية، والرُّقم الطينية، وأدوات النقش والحفر والكتابة المستخدمة في هاتيك الحضارات.

وكان للآشوريين، في عصر مبكر من تاريخهم، مجموعة قوانين، كما كانت لهم، بحكم أعمالهم التجارية، إتفاقيات مدونة. وقد حفظت لنا كتـابـاتهم المدونة بالخط المسماري على ألواح الصلصال، معلومات عن عالمهم القـديم بدقـة كبـيرة قل ما نجد ما يماثلها حتى في حضارات العصور الكلاسيكية (اليونان والرومان). فقد كان ملوكها يرعون الأدب ويتعلمونه، وقد بدأوا منذ عصر مبكر في جمع «كتب الفخار المحروق»، كما جمعـوا نماذج حيوانية ونبـاتية (حقيقيات Realia). وتؤكد المكتشفات الأثرية لمقنيات مكتباتهم، مقدار الثراء الأدبي المرموق الذي كان لهم، ليس فقط في مجال المؤلفـات الـدينية، بل أيضا في الأساطير والملاحم والكتابات التاريخية ، والنصوص النحوية ، والتبويب العلمي بها ، بل وفـي الصناعة.

يرجـع الـفضــل إلى سير أوستن هنــري ليارد Sir A.H. Layard الديبلوماسي الأثري الانجليزي، لتعرُّفنا على واحدة من أعظم مكتبات الحضـارة الأشـورية، وذلك عندما قام بحفرياته عام ١٨٤٠ في موقع بالقرب من الموصل (نينوى سابقا)، يسمى «تل كيو نجيك»، واكتشف مكتبة تحتوي على الآف من الرُّقم الطينية. ودلت الأبحاث التي أجريت مابين الأعوام (١٨٤٥ ـ ١٨٥١م)، على أن ليارد Layard وقع على أهم كشف أثري في مجال التأريخ للمكتبات في الحضارة الآشورية، فقد تبين أنـه اكتشف مكتبة الملك الآشوري، آشـوربانيـبال، وقد توالت نتائج الأبحاث حول المكتبة، وكشفت لنا المزيد من الحقائق عنها.

دلت الأبحاث على أن تاريخ إنشاء مكتبة نينوى القديمة يرجع إلى عهـد الملك سارجـون الثـاني SARGON II (٧٢٢ـ٧٠٥ق.م)، الذي وضع أساس مقتنيات هذه المكتبة، وقام برعايتها حتى نهاية حكمه، وقد

تولاها من بعده أبنائه وحفدته، إلا أنها بلغت أوج عظمتها في عهد الملك آشـور بانيبـال (٦٦٨-٦٢٦ق.م). الذي لقب نفسه بـ «عناية الحاكم الآشوري المثقف آشور بانيبال ملك العالم، وملك الآشوريين» وقد أُطلق على المكتبة نفسها عدة مسميات، ولذا يرد ذكرها في المصادر «بمكتبة نينوى»، «مكتبة اشور بانيبال» «مكتبة القصر الآشوري»، و «مكتبة قصر آشـور بانيبـال». وقـد اختلف العلماء حول مقدار مقتنياتها حيث قال البعض بأنها (١٠٠٠٠) رُقم طيني، بينـما يؤكـد البعض الآخـر بأنها (٢٢٠٠٠) رُقم طيني، ويذهب البعض إلى أنها أكثر بكثير من ذلك. إلا أنه من الثابت أن الملك الآشوري آشور بانيبال قد جمع في هذه المكتبة كل ما وجده في القصور الملكية لأجداده من الملوك السابقين، وأضاف إليها كل ما استطاع جمعه، في عصره، وحفظ فيها آلاف الالواح الطينية التي تمثل تراث حضارات مابين النهرين، في جميع فروع المعرفة، وكانت المكتبة مفهرسة ومنظمة بصورة جيدة.

يرجع الفضل لهذا الاكتشاف الأثري في معرفتنا لكثير من التفاصيل حول كيفية ترتيب وفهرسة وتصنيف المكتبات التي كان يطلق عليها اسم «جـير جيناكي»، ويعني «الخوابي الطينية»، أي المكان الذي تحفظ فيه الرقم الطينية.

وقـد عكست مجمـوعة الرُّقم الطينية التي وجدها سير ليارد، صورة واضحـة عن شئون الحياة اليومية، وخاصة في مجال الأعمال التجارية، والأمور الدينية، وقد تنوعت الموضوعات المتناولة في هذه الرقم الطينية، مابـين معلومـات تتنـاول كيفية التعـاملات التجارية، وإمساك الدفاتر الحسـابية، الى الكتـابات المتعلقة بالروايات والأساطير الشعبية، وتلك المتضمنة الأحداث التاريخية، وسير الأبطال والحروب.

وكان يشرف على المكتبات الملحقة بالمعابد والقصور ـ في ذلك العصر ـ مسؤلين يُطلق عليهم «رجال الرُّقم المكتوبة»، وهو ما يقابل المصطلح

الحديث «أمناء المكتبات أو المكتبين»، وتذكر الوثائق أن من أشهر هؤلاء «الـرجال» شخص يدعى «أميل آنو: Amil-Anu» وهو بابلي الأصل. ويحفظ الآن ـ الجزء الأكبر من مقتنيات مكتبة نينوى القديمة في المتحف البريطاني بلندن.

عنـدمـا دُمـرت المعـابد والقصور في المدن الآشورية الكبيرة (مثل: نينوى)، سواء بفعل الزمن، أو نتيجة للحروب والصراعات العسكرية، والغزوات الحربية، إندثرت أكثر المكتبات التي كانت ملحقة بها، وتوارت في طي النسيان، إلى أن قام علماء الآثار في القرن التاسع عشر الميلادي، من أمثال سير هنري س. راولنسو Sir Henry C.Rawlinson (١٨١٠ ـ ١٨٩٥م)، وجـــورج ف. جروتفنـــد Georg F. Grot fend (١٧٧٥ ـ ١٨٥٣)، وغيرهم، بجهود كبيرة للكشف عن هذه المكتبات ومقتنياتها، وحـل رمـوزهـا والتعـرف على محتوياتها، وخرجوا علينا بأهم المؤشرات والتفسـيرات، ليس فقط حول الحضارة الآشورية، بل ـ أيضا ـ حول حضارات مابين النهرين.

ويمكن تلخيص أهم خصائص هذه الحضارة في مجال التأريخ للكتاب والمكتبات للحضارات القديمة بالآتي:

١ ـ عظمة مكتباتها وما تحتويه من مقتنيات، حيث تُعد مكتبات هذه الحضارة، مثالا نموذجيا لمكتبات حضارات مابين النهرين، سواء من زاوية المقتنيات، أو من زاوية الترتيب والتنظيم.

٢ ـ حفظت لنا كتابات هذه الحضارة، معلومات دقيقة ومنظمة عن معطيات حضارتهم، قل أن يوجد ما يماثلها في الحضارات الأخرى.

الحضـارة الفينيقيـة

الفينيقيون، فئة من قبائل سامية عُرفت بالكنعانيين، نزحت عن شبه الجـزيرة العـربية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، واتجهت صوب

الغرب، حيث استقرت بجوار البحر الأبيض المتوسط، وغلب إسم بلاد كنعان على المناطق التي حلت فيها، والإغريق هم الذين دعوا فئة منها بالفينيقيين. وفينيقيا منـطقـة ساحلية تمتد من شمال «رأس شمرا» على الشاطيء السوري حتى جبل الكرمل في الجنوب، وفي الشرق تحدها سلسلة جبال، أما في الغرب فلها واجهة بحرية عريضة، كان لها الفضل في ازدهار هذه الحضارة. وفي وقت لم توجد فيه معابر صناعية بين قارات العالم (مثل قناة السويس)، بدت فينيقيا الممر الطبيعي الأوحد بين قارات العالم القديم (آسيا، أوربا، وأفريقيا). أو بلغة التاريخ، بين حضارات مصر، ومابين النهرين، والفرس، واليونان. وهذا ما جعل منها حضارة ذات دور في تاريخ هذه الدول، ويُعد ساحل البحر الأبيض المتوسط، المدى الحيوي الأوسع نشاطا للفينيقين. وعرف الساحل الفينيقي مدن كبيرة، أشهرها جبال (جبيل أوببيلوس)، صيرون، صور، أو غاريت، وبيروت.

تنقسم اللغـات السامية إلى فرعين، أحدهما في الشمال (بلاد مابين النهرين)، والثاني في الغرب، ومنه تفرعت اللغات العربية، والآرامية، والكنعانية. ومن الكنعانية، اشتُقت لغتان، الفينيقية والعبرية. لذا فإن اللغة الفنينيقية لغة كنعانية من الأصل السامي. والفينيقية كسائر اللغات السـامية، حروفها ساكنة، ولا تعتمد على أحرف العلة، إلا في حالة التشديد على اللفظ، ولذا تتعدد الجوازات في لفظ العبارة الواحدة، وقد استطاع العلماء أن يلموا بقواعد اللغة الفينيقية أكثر من المامهم بلفظ مفرداتها، والأرجح أن اللغة الفينيقية تشبه إلى حد بعيد لغة لبنان الشمالي اليوم.

في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، لم تكن الحروف الأبجدية قد عُرفت بعد، بدليل أن رسائل تل العمارنة TELL EL-AMARNA TAB-LETS التي كتبت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، قد خُطت بالمسمارية الأكادية. وهذه الكتابة المسمارية الأكادية نجم عنها كتابة أبجدية مسمارية

طُورت في مدينـة أوغـاريت الفينيقية، ولكنها كانت أبجدية معقدة في دلالاتها الصوتية، وقد قضت الحروب التي تلت هذه الفترة على معظم الآثار المكتوبة بهذه اللغة.

وهنـاك رأي آخـر يقـول بأن الفينيقيين قد اعتمـدوا على الأحـرف السينائية (نسبة إلى سيناء)، المشتقة من الهيروغليفية المتطورة، أي الكتابة الهيروغليفية التصويرية، تلك الكتابات التي عُرفت بالكتابة الهيراطيقية، وهي نوع من الكتابات الهيروغليفية المبسطة والمختزلة (أنظر حضارة قدماء المصريين).

ونجد رأياً آخر يرد الأبجدية الفينيقية إلى أصل مسماري، استنادا على أن اللغات السامية في بلاد مابين النهرين، قد انتشرت في كل أنحاء الجوار، بينما اللغة والكتابة المصريتان القديمتان بقيتا محصورتين في وادي النيل.

وفي جميع الأحـوال، سواء نقـل الفينيقيون عن الهـيروغليفية بعض رمـوزهـا، أو عن الكتابة المسمارية بعض حروفها، فإنهم لم يكتفوا في التعبير عن أفكارهم بالكتابات المعروفة لدى جيرانهم، فكلتا الكتابتين الهـيروغليفية والمسـمارية، لم تُعن بحـاجـة التجار الفينيقيين في حياتهم العملية واليومية، لذلك فقد تجاوزوا مرحلة الكتابة المقطعية، التي كانت من سمات اللغات الهيروغليفية والمسمارية، إلى المرحلة الحرفية، حيث يعبر فيها الحرف عن أبسط الأصوات، وتوصلوا إلى حصر كل الأصوات في عدد قليل من الحروف، فاشتملت أبجديتهم على أثنين وعشرين حرفا ساكنـا (لا حركـة عليه)، وسميت كتابتهم بالأبجدية لأنها تبدأ بلفظة أبجد، وحرفت الرسوم واختصرت ، فتوصلوا الى شكل نهائي يسمى بالحرف.

ولا يستغـرب أن يتـوصل الفينيقيون بالذات، وهـم الذين أشتهروا كشعب عملي، إلى وضع نمط جديد من الحروف أسهل وأفضل بكثير

من اللغات التي كانت مستخدمة في الحضارات التي سبقتهم أو عاصرتهم.

كان لاكتشاف الأبجدية، أبعاد جديدة وعميقة في هذه الحضارة، فقد سهُلت المعاملات التجارية بينهم. وبين شعوب المنطقة، مما سهّل على الفينيقيين مهمة تطوير تجارتهم وتدعيم مركزها الاقتصادي والحضاري في المنـطقـة. وعنـد اقتباس العالم لأبجديتهم اتسع نطاق التبادل والمعرفة والفكر، وكان بالتالي حافزا لأنطلاقه فكرية برزت في الحضارة الأغريقية. وقـد جاء في كتـابـات المؤرخ اليوناني هيرودوتس، أن أحد الفينيقيين ويدعى قدمـوس، ابتكـر حروف الهجـاء، ونشرهـا أثنـاء انتقاله نحو الغـرب، وذكـر أن أبجدية قدموس، اقتصرت على ثمانية عشر حرفا، اكملها من بعده بالاميروس الأغريقي الى ٢٢ حرفا.

استخدم الفينيقيون لفائف البردي كوسيط مادي للكتابة، وليس هذا بالأمر المستغرب، فقد كان ورق البردي من البضائع الرئيسية التي تداولها التجـار الفينيقيون، وقامو بتسويقها عبر موانئهم الى جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك.

كتب الفينيقيون في موضوعات شتى، إلا أن الأدب الفينيقي لم يرق الينا منه إلا النزر اليسير، ولا تجوز المغالاة في قيمته، فكتابات الكاهن البـيروتي «سنكن تين» لم تُعرف إلا عن طريق فيلون الجبلي، الأديب اليونـاني، وهـذا الأخير كتب باليونانية. وقد كُتب بعض الشعر باللغة الفينيقية، أُشيرَ إليها في بعض المراجع، ولكن لم يرد ذكر بأسماء كاتبيها. ويعول في التأريخ للأدب الفينيقي على ملاحم رأس شمرا (أو جاريت القديمة) RAS SHAMERA وهي عبارة عن تل أثري يقع شمال اللاذقية على الساحل السوري بعشرة أميال، قام بالتنقيب فيه سكافر SCKAF-FER (١٩٢٩ ـ ١٩٣٩م)، وأثبت أن تاريخها يرجع من الفترة النيوليثية المبكـرة إلى الفـترة الخـالكوليثيه وعصر البرونز، كشف بها عن لوحات

فخارية محررة بالأبجدية الأوجارينيه ذات مواضيع دينية وميتولوجية (أسطورية). تلقى الضوء على الأدب الكنعاني الفينيقي في الألف الثاني قبل الميلاد. كما وجدت نقوش أحدث عهدا كتبت باللغة الفينيقية، كتبت على نواميس بعض ملوك صيدون، أو وجدت محفورة خارج حدود فينيقيا.

أما في العلوم، فقد وصلتنا كتابات وآثار تدل على براعة الفينيقيين في الطب. أما العلوم الحسابية والجغرافية، فلا عجب أن يبرع فيها الفينيقيون، نظراً للعقلية التجارية التي طُبعوا عليها، والتي قادتهم إلى ارتياد المتوسط ومجاهل المحيطات، فبرعوا في الكتابات الفلكية والجغرافية، وأشهر علمائهم في هذا المجال مارينوس الصوري، الذي أضاف إلى الخرائط خطوط الطول والعرض، ويُعتبر العالم الاغريقي طاليس من أصل فينيقي. واشتهرت كذلك، المؤلفات الزراعية التي وضعها العالم القرطاجي ماغون. أما جُل ما تركه الفينيقيون من آثار مكتوبة، فقد تمثل في السجلات والوثائق المخطوطة التي تتعلق بشئون التجارة، والمعاملات التجارية والادارية، مما يعكس أهتمامهم بمجال التجارة وتنظيمها.

وقد حفظ معظم الانتاج الفكري الفينيقي في دور أشبه بمراكز الوثائق والأرشيف. أما عن الكتب والمكتبات في هذه ا لحضارة، فلا يعرف عنها الشيء الكثير، ولعل أهم مدينة فينيقية ارتبط أسمها بالكتاب والمكتبات، هي مدينة قرطاجة، التي تقع ضمن تونس حاليا. فقد وجد بها آثار تؤكد على وجود مراكز للوثائق ومكتبات، وتذكر المصادر المستندة على الكتابات الرومانية القديمة، أن القائد الروماني سكيبون الأفريقي، قام في عام ١٤٦ق.م، بالاستيلاء على مدينة قرطاجة وتدميرها، وقام بتوزيع الكتب والمخطوطات التي كانت بمكتباتها على الحكام الأفارقة الذين لم يعارضوا تقدم الجيش الروماني الفاتح.

وقد لعب الفينيقيون دوراً هاماً كتجار لورق البردي، منذ القرن

الحـادي عشر ق.م، وكـان الفينيقيون يقومون بشراء ورق البردي من مصر، ثم يسوقونه لبقية شعوب العالم وخاصة للشعوب اليونانية. ولذا، فإن ورق البردي الذي كان يستخدم في اليونان، غالبا ما يأتي عن طريق ميناء ببليوس الفينيقي، ولذا فقد أطلق اليونانيون أولا على ورق الكتاب ثم على الكتـاب نفسه أسم Biblious ، نسبة إلى هذا الميناء الفينيقي (راجع المادة العلمية في الفصل الأول «البردي»)

هذا ويمكن تلخيص خصائص الحضارة الفينيقية، فيما يخص الكتابة والكتاب والمكتبات، في النقاط التالية:

١ ـ تطويرهم للغة صوتية معتمدة على أبجدية مكونة من ٢٢ حرفا، وتُعد أول لغة أبجدية صوتية مكتوبة في العالم.

٢ ـ استخدامهم للمرة الأولى، للحروف الكتابية المتصلة.

٣ ـ دورهم الريادي في تجارة البردى، ونشره في العالم.

كلمة أخيرة: رموزنا الحضارية، أيــن ؟

تُعد المكتشفات التاريخية المنتمية إلى حضارة ما، من التراث القومي لشعوب هذه الحضارة، وملكا خالصا لهم يتوارثونه جيلا بعد جيل، وحقا شرعيا لاجدال فيه، فهي جزء من تاريخهم وكنوزهم القومية. وسيلاحظ المستقـريء لتـاريخ الكتب والمكتبات في الحضارات القديمة في منطقة الشرق الأوسط، ثمة وجود لظاهرة سلبية تتعلق بالرموز الحضارية الثقافية المنتمية إلى حضارات تلك المنطقة، فالكثير من الآثار التاريخية المتعلقة بالتأريخ للكتابة والكتاب والمكتبات لتلك الحضارات استُلبت من قبل الدول التي استعمرت بلدان المنطقة في فترة ما من تاريخها المعاصر، وتم إرسالها إلى بلادهم، لتحفظ في متاحفهم القومية، ومؤسساتهم العلمية!! وجعلوا بذلـك من أنفسهم أوصياء على التـاريخ الحضـاري للأمم والشعـوب التي استعمـروهـا، بالـرغم من حقيقة استيلائهم على هذه

الذخائر القومية، حين كانت شعوب المنطقة مغلوبة على أمرها، وفاقدة لأهليتها السياسية، ومقهورة بقوة السلاح، وبالتالي غير قادرة على حماية تراثها القومي والدفاع عنه. ولذا فعندما يريد حفيد هذه الحضارات رؤية تراثه وتاريخه، لفحصه ودراسته، عليه، ليس فقط تكبد مشقة السفر إلى بلاد أجنبية، بل عليه ـ أيضا ـ أن يحصل على موافقة سلطات تلك البلاد وإذنها للاطـلاع عليه!!، وهـو الأمر الذي نراه عجيبا حقاً. والقائمة التالية، تُسجل جزءا صغيرا من متعلقاتنا الحضارية المسلوبة، التي علينا أن نتكبد المشاق، ونحصل على الموافقات السامية، لكي نستطيع رؤيتها:

١ ـ حجر رشيد Rosetta Stone المتحف البريطاني، لندن.
٢ ـ مخطوطة بستن Behisten tablet متحف اللوفر ، باريس.
٣ ـ الـواح حمورابي (تشريعات حمورابي القانونية) Hammurabi Codes متحف اللوفر، باريس.
٤ ـ ألواح مكتبة نينوى القديمة (مكتبة أشور بانيبال) Tablets of Nenevah ancient library المتحف البريطاني، لندن.
٥ ـ لوحـات مكتبـة أور المسـارية .Tablets of Ur المتحف البريطاني، لندن. ومتحف جامعة فيلادفيا، ولاية بنسلفانيا، الولايات المتحدة.

الحضـارة الصينية

تُعـد من أقـدم حضـارات الشرق الأقصى، حيث يمتـد تاريخهـا الحضـاري الى أكثـر من أربعة الآف سنة قبل الميلاد، وتقع الحضارة الصينية بين بطاح سيبيريا في الشمال، وصحاري آسيا في الغرب، وجبال الهملايا ومتفرعاتها في الجنوب، وبحر الصين في الشرق. وكان لوجود أحواض نهرية خصبة وجيدة المناخ مثل حوض نهر «هوانغ ـ هو» و «يانغ ـ تسي ـ كيانغ»، الأثر الكبير في تسهيل قيام تجمعات سكانية وبشرية مستقرة منذ أقدم العصور، مما أتاح لتلك الشعوب أن تعتمد على ذاتها

في تسيير بنيانها الحضاري المتكامل. والشعب الصيني من الجنس الأصفر ويغلب عليه الطابع المغولي، وقد جاء عبر النجود الصحراوية إلى هذه المنطقة في موجات متتابعة.

يتحدث الصينيون لغات ترجع في أصولها إلى اللغات الصينو ـ تبتية، أو الهندية ـ الصينية. ولا يعرف على وجه التحديد متى نشأت الكتابة في حضارة الصين، فبالرغم من أن أقدم الآثار المكتوبة ترجع إلى عهد دولة شانج (١٥٢٣ـ١٠٢٧ق.م)، إلا أن بعض الآثار المكتوبة على ظهر عظام السلاحف وقطع البرونز التي وجدها الآثاريون في بعض مناطق الصين، تدل على أن بداية الكتابة في الحضارة الصينية أبعد تاريخا من عهد دولة شانج. ويرجح المؤرخون أن الكتابة في الحضارة الصينية بدأت في الألف الثـالثـة قبل الميلاد، وكانوا يستخدمون أولا نُظام العقد في الكتابة، ثم لجأوا لاحقا إلى الكتابة التصويرية Pictographic التي تحولت في حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد إلى النظام الرمزي Ideog-raphic. وفي الـواقـع لم يطور الصينيون كتاباتهم أبدا إلى شكل أبجدي صرف، بل ظلت كتابة أيدروجرامية Ideogram برموز المعاني، لكن فيها رموز الأصوات المقطعية، حتى يومنا الحاضر، بحيث يتعين على الطالب الصيني، عند تعلم الكتابة أن يدرس آلاف الرموز والعلامات.

بدأ الصينيون الكتـــابـــة باستخـــدام مواد كتـــابية بدائية، كعـظام الحيوانات، وخاصة عظام السلاحف، وسوق البامبو، والألواح الخشبية، ثم بعد صناعة الحرير، بدأو يستخدمون قطع الحرير ونسيجه، إلا أن استخـدام الحرير كمادة للكتابة كان مقتصراً على طبقة معينة وأغراض محددة، فكـان استخدامه قاصراً على الحكام، والنبلاء ورجال الدين، وطبقـة الأثـرياء، وذلك لتكلفته العالية. أما الاكتشاف الصيني الهائل الذي أضاف بُعدا حقيقيا إلى مواد الكتابة، فهو اكتشاف الورق. وكان الصينيون قبل الميلاد بحوالي قرنين من الميلاد يقومون بتقطيع الأنسجة أجـزاء صغيرة ويتركونها في الماء إلى أن تتحول إلى عجين يتم تجفيفها

لتصبح نوعـا من الـورق، إلا أن هذا النوع من الورق لم يكتب له الانتشار لروائحه وعدم مناسبته كوسيط كتابي. ويشير بعض الباحثين أن الصينيين استخـدموا هذه التقنية أيضا باستخدام الحرير لتصنيع ورق خفيف ناعم للغاية، إلا أنها كانت مكلفة للغاية. وظلت تلك التقنيات مستخدمة حتى حلول القرن الثاني الميلادي حيث قام تساى لون، في مقاطعة هونان عام ١٠٥م باكتشاف تقنية جديدة باستخدام مواد رخيصة الثمن لتصنيع الورق (أنظر المادة العلمية المتعلقة بهذا الموضوع في الفصل الأول «الـورق»). كان لظهـور هذا الاكتشاف أعظم الأثر في انتشار الورق واستخدامه كوسيط كتابي. وإحلاله محل الوسائط الكتابية الأخرى التي كانت مستخدمة في ذلك العهد. وانتشر هذا الاختراع بسرعة كبيرة في جميع أنحـاء الصـين، ثم في «سن كيانـع» أو مايسمى بالتركستان الصينية، وتشير المراجع إلى أن أقدم النصوص المكتوبة على هذه المادة الورقية الجديدة، هي وثائق مكتوبة بلغات مختلفة منها العبري، وتعود في تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي، عثر عليها «سفن هدن: Seven Hedin» واوريل ستين: O. Steen» «في لولان: Lulan» بالقرب من بحيرة «لوب نور: Lu - Nour» وفي «تون هوانج Tun-Hung ، الواقعة عند ملتقى الطرق المؤدية إلى «لاها» ومنغوليا وسيبريا الجنوبية. وكما انتشرت صناعة الورق في الصين، فقد أمتدت منها إلى بقية أنحاء العالم، وقد وصلت إلى العـالم العـربي حوالي القـرن السابع الميلادي، عن طريق سمرقند، وكانت بغداد أول عاصمة عربية كبيرة يصلها هذا الاختراع الجديد (حوالي ٨٠٠م)، ثم مصر (حوالي ٩٠٠م)، وعن طريق (دولة الأندلس، وصلت صناعة الورق الى أوربا في القرن الثاني عشر ميلاديا (حوالي ١١٠٠م . وقد حل الورق، في المجتمعات محل الوسائط والمواد التقليدية للكتـابـة، المعـروفة آنذاك. وكما كان للصين فضل اكتشاف الـورق، فقـد سبقوا العالم أيضا في اكتشاف وسائل الطباعة البدائية.

ويسرد جروليه، مراحل تطور الطباعة في الصين، ويقسمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الخاتم المحفور. ويشير بعض المؤرخين أن تقنية الخاتم المحفور كانت معروفة في العصر اليوناني القديم، وأنها انتقلت إلى الصين عن طريق فتوحات الاسكندر الأكبر للشرق الأقصى، إلا أن الأختام التي على الصلصال التي عثر عليها «أوريل ستين»، والتي تعود إلى عهد أسرة هان حوالي سنة ٣٠٦ق.م، تقترب في شكلها اقترابا كبيرا من الأختام السومرية التي هي أقدم عمرا من الأختام اليونانية، فقد ظهر في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الكتابة في الحضارة السومرية، وكانت على شكل اسطوانات محفورة تدحرج على الصلصال اللين (النيء). وأياً كان أصـل الخـاتم الصيني المحفور، فقد حل الخاتم على الورق محل الخاتم على الصلصال في الحضارة الصينية، مابين القرنين الثالث والرابع، أي بعد اكتشاف الورق بحوالي قرنين من الزمان، واختراع الصين لحبر الطباعة.

المرحلة الثانية: مرحلة فن الطبع البارز بالفرشاة على الورق، وتذكر المصادر التاريخية أن الكتب الخمسة الكلاسيكية التي حرص الصينيون على قدسية نصوصها، حُفرت بهذه التقنية في عهد أسرة «هان»، وكان ذلك بناء على توجيه من الأمبراطور «لنج تي» عام ١٧٥م.

المرحلة الثالثة : مرحلة الكليشهات المعدنية، التي طبع عن طريقها في القرنين السادس والسابع صور صغيرة ليوذا على مدرجات من الورق الخفيف أو القماش أو الحرير، ويرجح أن هذه التقنية استخدمت للمرة الأولى في عهد أسرة «تانج» بين السنوات ٦١٩ و ٧٠٠م، وأقدم نص عثر عليه مطبوعاً بهذه التقنية يتألف من سبع وريقات، وهو لكان ـ يوان تساباو، ويرجع تاريخه لما بين سنة ٧١٣ و ٧٤٢م، وهو محفوظ الآن عند أسرة يانج في دجيانج لنج بمقاطعة هُوبه.

بجـانب تقنية الـطبـاعـة، قام الصينيون باستخـدام أدوات كتـابية متعددة، كالأقلام المدببة الأطراف، والأقلام ذات الأطراف المهدبة (على هيئـة فرشاة) التي يقال أن مكتشفها زعيم عسكري يدعى تين Tin ،

ويطلق عليها باللغة الصينية إسم بي B1 ، وهي عادة مصنوعة من وبر الجمـل، كما استخدم الصينيون ريش الطيور والأقلام المعدنية. وكان استخـــدام هذه الأدوات يتــوقف على نوع المـــادة الكتـــابية والـوسيط المستخدم، فللعظام كانوا يستخدمون الأقلام الخشبية أو المعدنية المدببة الأطراف، وللحرير كان يستخدمون البوص الطرى، والفرشاة (الـ بى)، وللورق كان يُستخـدم عدة أدوات على حسب نوع الكتـابة المطلوبة، تنوعت مابين أقلام البوص والخشب، والفرشاة، وريش الطيور وغيرها.

وكما عرف الصينيون الطباعة والورق، فقد عرفوا أيضا تقنية صناعة الأحبـار، ويعد الحبر الصيني الذي يصنع من السخام أو أسود العاج المخلوط مع الصمغ والغراء، من أقدم الأحبار المستخدمة في الحضارة الصينية، ويرجع تاريخه إلى حوالى ١٢٠٠ق.م، وهو حبر أسود لا يتغير لونه على مر الزمن. أما ما يسمى بالحبر القياسي الذي كان يصنع عن طريق استخدام حامض التانيك، وهو أكثر استخداما وشيوعا من النوع الأول، فيُرجح أن يكون قد عُرف منذ القرن الثاني الميلادي، وأصبح أكثر انتشارا واستخداما لسهولة استعماله وامتيازه بالانسيابية.

عرفت الصين أشكالا متعددة من الكتب، فقد استخدمت الألواح الخشبية التي تنقش عليها الكتابة عن طريق الحفر بآلة حاده، ثم تطورت بعـد اكتشاف الأحبار، وكتب عليها بأقلام الغاب الرفيع المغموسة في الأحبا ،ىللأسف لم يصلنا من هذا الشكل إلا القليل، نتيجة إلى الأمر الذي أصدره الأمبراطور الصيني تسن شيهوانجتي Tsin Shihuangti عام ٢١٣ق.م، بإبـادة جميع الكتب، في محاولة منه لعقاب مؤلفي الكتب الذين تجرأوا على معارضته ونقد نشاطه السياسي. وكانت النتيجة حرق جميع الكتب التي أنتجت حتى ذلك العهد، ولم ينج منها إلى أقل القليل، أمـا الكتب الخشبية التي أنتجت بعد ذلك، فقد كان يتم دفنها تحت الأرض، مما أدى إلى تلف معظمها وفساده.

أمـا كتب الحـرير فقـد ظهـرت في وقت لاحق، وبدأت باستنساخ

الأداب القديمة التي ترجع الى عصر كونفوشيوس Confucius في القرن السادس ق.م. وامتازت كتب الحرير بالمرونة والنعومة والبريق والقابلية للطى وسهولة التخزين والحفظ، وإن كانت تكلف غاليا في صنعها وشرائها. ومن البديهي أنه بعد اكتشاف الورق في الحضارة الصينية، بدأ الكتاب يأخذ شكله الورقي الجديد، الذي استمر به إلى الآن.

يمتاز الصينيون عن غيرهم من الشعوب بأن تراثهم الفكري، كان إنتاجا أصيلا نابعا من بيئتهم وثقافتهم المحلية، متولداً من بنات أفكارهم، فكانوا شعوبا مبدعة، لم يقتبسوا عن سواهم إلا في أضيق الحدود، وإن فعلوا، فقد أخذوا أقل القليل.

وتنوعت مواضيع الكتابات في الحضارة الصينية، إلا أن الكتابات الأدبية في الحضارة الصينية، تعد من أقدم كتابات هذه الحضارة، وكانوا ينتجون أدبا مسرحيا وقصصيا رفيعا. وأقدم الآثار الأدبية الصينية التي نعرفها اليوم ترجع إلى أيام دولة تشر (١٠٢٧ - ٢٥٦ ق.م)، ومن الآثار التي اكتشفها علماء هان (٢٠٢٠ - ٢٠٢ق.م) وعرفت بالأدب الكنفوشي، وجدت مجموعة «شه شو» وهي عبارة عن أربع مجاميع من الكتب، أهمها مجموعة «منشيوسى»، وهي خمسة كتب تنسب الى كونفوشيوس نفسه، وتتضمن تاريخ العصور القديمة، والتقاليد وحوليات ولاية «لو Lu» مسقط رأس كونفوشيوس، ووصفا للشعائر الدينية، ومجموعة أشعار قديمة (٣٠٥ قصيدة)، و «المدينة الفاضلة»، ومن أهم كتب الأدب القديم، كتاب ألفه لاوتزي في منتصف القرن الثالث ق.م، وعنوانه «تادته كنج»، وكذلك مؤلفات الأديب الصيني «تشوانج تزي».

وكانت الكتابات التاريخية، أحد المواضيع المفضلة في الحضارة الصينية، وأقدم كتبهم التاريخية هو ذاك الذي جمعه وهذّبه أعظم كُتابهم» كونفوشيوس» سُمى «كتاب التاريخ». أما أعظم الكتب التاريخية على

الأطلاق في الحضارة الصينية، ذاك الذي جمعه المؤرخ الصيني «زو ـ ما ـ تشين»، وغطى به أحداثا امتدت إلى ثلاثة الاف عام من تاريخ الصين.

وكما كان للصين أدباؤها ومؤرخوها فقد كان لها شعراؤها الكبار أيضا، من أمثال «لي ـ يو» و «داو ـ تشين» الشاعر الروائي، و «دو ـ فو» الشاعر الأنساني. وفي مجال العلوم، اهتم الصينيون بعلوم الجغرافية، ودرسوا الفلك، ونبغوا في الطب، وتفوقوا في علم الحساب والأعداد. ويكفي علماؤهم فخرا بأنهم أول من اكتشفوا صناعة الورق: وتقنيات الطباعة.

ويعد كونفشيوس Confucius (٥٥١ ـ ٤٤٧ ق.م) واسمه الحقيقي كونـغ ـ فو ـ رزه»، من اكبر فلاسفة الصين، وأكثرهم شهرة. كانت وسائله التعليمية شبيهة، بوسائل سقراط، تعتمد على الشفاهة، إلا أنه ترك خمسة مجلدات تضمنت أفكاره، وسميت بـ «كتب القانون الخمسة»، وحرض تلاميذه ومريديه على جمع أقواله وآرائه في كتاب نال شهرة عالمية، وسُمي «الأحـاديث والمحـاورات». وظلت تعاليم ومبادىء كونفوشيوس المحرك الأول للفكر الصيني؛ حوالى فترة ألفى عام تقريبا منذ تأسيس أسرة هان، وحتى سقوط أسرة منشو.

وبالرغم من أن معلوماتنا عن المكتبات في الحضارة الصينية تُعد مقلة للغاية، إلا أن الشواهد التاريخية، تؤكد الاحترام العظيم التي كانت تكنه شعوب هذه الحضارة للفلاسفة والمفكرين والمثقفين منهم. ويؤكد بعض المؤرخين، أن المكتبات في الحضارة الصينية القديمة، كانت تقام خصيصا لتستخدمها هذه الطبقة المميزة من المفكرين والأدباء الصينيين، بجانب طبقة الحكام وعلية القوم. وقد حافظت المكتبات في الحضارة الصينية على الموروثات الثقافية والعلمية والعقائدية للحضارة الصينية، وطورتها. وكان لذلك المخزون الفكري أثره العميق في المجتمع الصيني، والمجتمعات الأسيوية المحيطة به بالرغم من أن الحضارة الصينية لم تتأثر بالتقلبات والتدهـور في الحياة الثقـافية والعلمية، التي كانت السمة المميزة لفترة

العصور الوسطى في أوربا، إلا أن الحياة التعليمية والثقافية في المجتمع الصيني، المتمثلة في المؤسسات التعليمية والمكتبات، لم تكن متاحة إلا للطبقـة المميزة في المجتمـع من علية القـوم والحكام والأثرياء ومن في حكمهم، كما أن الفرصة كانت متاحة أيضا للمفكرين والفلاسفة والأدباء والمتمتعـين ـ كما أسلفنـا ـ بمكانة عالية في المجتمع الصيني، أما باقي طبقـات الشعب، فلم تذق طعم هذه الحياة الثقـافية والتعليمية، ولم تمارسها بحق إلا في بداية القرن العشرين.

ويمكن تلخيص خصـائص الحضـارة الصينية، فيما يتعلق بالكتابة والكتب والمكتبات في النقاط التالية:

١ ــ تُعد الحضارة الوحيدة التي لا تزال تستخدم إلى الآن اللغة المكتوبة التي نشأت في مجتمعاتها منذ أقدم العصور.

٢ ــ فضلهم في اكتشاف صناعة الورق، الذي يُعد أهم مادة كتابية على مر العصور.

٣ ــ أول من كتبوا على الحرير، وأنتجوا ما عُرف «بالكتب الحريرية»

٤ ــ أول من استخدم تقنيات الطباعة في الحضارات القديمة.

٥ ــ صناعتهم للريشة المصنوعة من وبر الجمل «بى»، كأداة للكتابة لم تكن معروفة من قبل.

٦ ــ صنـاعـة الأحبار المستخدمة في الكتابة والطباعة، والتي لازالت تقنيات صنعها مستخدمة إلى الآن.

الحضارة الهندية

تحتل الهند ـ موضع الحضارة الهندية ـ مساحة تزيد على أربعة ملايين كيلومتراً مربعاً، وتقع في القسم الجنوبي من قارة آسيا. عبرت إلى الهند شعوب مختلفة، حملت معها منجزاتها الحضارية، وطبعت البلاد بطابعها. وكـانت من أبـرز المـوجـات التي تعـاقبت عليها؛ الآدية، والفارسية،

واليونانية، والعربية، والمغولية، ونتيجة لهذه المعطيات، أضحى الشعب الهنـدي خليطا من عناصر مختلفة، بيضاء، وسوداء، وصفراء، تتكلم لغات متعددة ، زاد عددها على مائتين وخمسة وعشرين لغة، إلا أن ذلك لم يحل دون صهر كل هذه العناصر بطابع خاص، وهو طابع الحضارة الهندية.

وحضـارة الهنـد عريقة، حيث استمرت خمسة وأربعين قرنا، بدون انقطاع، وقد دلت الحفريات في مناطق «موهنجو دار»، و «حرابه» في حوض نهر السند، على أن هذه المنطقة شهدت ولادة حضارية منذ القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد (٢٩٠٠ق.م)، وكان بناة هذه الحضارة، هم سكان الهند الأصليين، أي ما يطلق عليهم أسم «الدرافيديين». ويبدو أنه من الصعب معرفة، متى عرفت الحضارة الهندية الكتابة، إلا أن رموز الكتابة «البروتو هندية» التي عثر عليها في وادي الهندوس، تعود بلاشـك إلى الالف الرابعة قبل الميلاد. وكانت تتألف من ٢٥٠ رمزاً مختلفاً، وتكتب على الحجر والخزف والواح النحاس.

وبالرغم من المحاولات البحثية الجادة التي قام بها المؤرخون والبحاثة، لم يتمكنوا من حل رموز هذه اللغة، وفك طلاسمها، مما أدى إلى صعوبة التعـرف على الانتـاج الفكـري في الحضارة الهندية القديمة. أما أقدم النصوص التي وصلتنا بالحروف الهندية المعروفة، فترجع إلى القرن الثالث قبـل المـيلاد، وهـي المـراسـيم المشهـورة التي أمـر الملك أشـوى (٢٧٢-٢٣٦ق.م) بنقشها على الحجر. وفي ذلك الوقت كان هناك نوعان مستخـدمـان من الكتـابـة، أحدهما يعرف بالخاروشيش والآخر يعرف بالبراهيمي، وقد عرف الهنود الكتابة باللغة السنسكريتية، ووضعوا لهذه اللغـة أصـولا نحـوية لضبطها، وكتبوا بها تراثهم الديني القديم، كما استخدموها كلغة للانتاج الأدبي والشعري، وإن كان هذا قد تم في عصر متأخر.

استخدم الهنود في البداية مواد كتابية متنوعة، مثل الحجارة والمعدن،

والأخشاب، كما استخدموا لاحقا لحاء شجر النخيل بعد تجفيفه وحكه بالزيت ليكتسب النعومة والمرونة، كما استخدموا في شمال الهند القشرة الرقيقة البيضاء لشجرة «البتولا». وكان استخدامهم لمواد كتابية هشة غير قادرة على الصمـود ضد الـزمن، الأثـر الكبير في ضياع معظم تراثهم الفكري المكتوب.

أثبتت الدراسات المقارنة أن الهند أعطت البشرية تراثا فكريا غنيا، وكان للرواة أهمية بالغة ودور بارز في حفظ التراث الهندي، ونقله عبر الأجيال، ولذلك كثيرا ما توصف الحضارة الهندية بأنها حضارة شفهية. ولكن المكتوب من هذا الأدب لم يظهر إلا في القرن السادس عشر. وكان أهم سبب لظهور التدوين، هو مقاومة علماء الهندوس لدخول الديانة الاسـلامية للأراضي الهندية وانتشارها فيها، ورغبتهم في القيام بحركة مناوئة لهذا الدين الجديد فنظموا تراثهم الديني القديم، ونشروه، مثل «المـاهـا بهارتـا»، وهي سلسلة من قصص العنف والمغامرة والحروب، وملحمـة «رامـا بانا»، وهي رواية شعرية ملحمية عن السفر والأهوال والشوق إلى الخل الوفي. أما الأدب الاسلامي الهندي فقد اعتمد في بدايته على الأدب الفارسي، وكانت الكتابة «الاردية» هي الوسيط اللغوي الاسـلامي في الحضارة الهندية، وقد كتب الهنود في الفلك والتنجيم، وتفـوقوا في الحساب الرياضي، ومنحوا العالم الأعداد، والأرقام التي لا نزال نستخدمها في الكتابة العربية، كما ابتدعوا النظام العشري، ووضعوا قواعد في علم الجبر. وأحرزوا تقدما في علوم الفيزياء والكيمياء والطب.

كان من أكثر العوامل التي أدت إلى عدم معرفتنا بالكثير عن المكتبات في الهند، يعود إلى كون العمارة في الحضارة الهندية القديمة كانت تعتمد على أخشاب ومعادن سريعة التلف مما أدى إلى عدم مقاومتها للعوامل الطبيعية، وبالتالي لم تتبق لنا آثار معمارية من هذه الحقبة القديمة من الحضارة في الهند. كما أن استخدامهم لوسائط كتابية ذات عمر إفتراضي قصير، مثل سعف النخيل ولحاء الأشجار، أدى إلى فناء معظم كتاباتهم.

فإذا اقـترنت هذه العوامل، مع ظاهرة الاعتماد على المشافهة في حفظ التراث ونقله عبر العصور الى الأجيال اللاحقة، لعرفنا السبب في عدم وجود آثار كتابية، أو مكتبات يعتمد عليها في التأريخ للكتابة والكتب والمكتبات في هذه الحضارة.

خصائص الحضارة الهندية فيما يتعلق بتاريخ الكتابة والكتب والمكتبات:

١ ــ توصف الحضارة الهندية بأنها حضارة شفاهية.

٢ ــ اعتمـدت الحضـارة الهندية على وسائط ومواد كتابية غير صالحة لمقاومة العوامل الطبيعية.

٣ ــ الـتراث الفكـري القـديم في الحضـارة الهندية. كُتب بلغة (أو لغات)، لم يُستطع حل رموزها إلى الآن.

٤ ــ لم تكتشف في الحضـــارة الهنـدية القـديمـة أي نوع من أنـواع المكتبات، يمكن أن يعتمد عليه للتأريخ للكتب والمكتبات في هذه الحضارة.

الفصل الثالث
الحضارات الوسيطة

الحضارة اليونانية :

تعد الحضارة اليونانية من أعرق حضارات العصر الكلاسيكي، وقد شملت الحضارة اليونانية القديمة إضافة إلى بلاد اليونان الحالية، شواطيء آسية الصغرى، وجزر بحر إيجة ووصلت إلى البحر الأسود، كما انتشرت رقعة مستعمراتها على طول الشواطيء الشمالية من البحر الأبيض وحتى أسبانيا. ويرد ذكر الحضارة اليونانية في المصادر بمسميات عدة، فقد أطلق عليها الحضارة الأغريقية: Greek » «الحضارة الهيلينية: Hel-lenic » الحضارة الهيلنسية: Hellenistic وهذه التعددية في الأسماء لها مبرراتها التاريخية التي حتمتها، فصفة الأغريقية، مشتقة من اللغة الرومانية، وهو الإسم الذي أطلقه الرومان على هذه الحضارة، أما الصفة «الهيلينية»، فقد استند على اسمها اليوناني القديم «هيلاس: HELLAS». وكان يطلق على شعوبها اسم «الهيلين» ومنه جاء مسمى «الهيلينية»، أما «الهيلنستية»، فهي تطلق على تلك الحقبة في الحضارة اليونانية التي تبدأ بموت «الأسكندر الأكبر: Alexander the Great» عام ٣٢٣ق.م وتنتهي باستيلاء الرومان على مصر التي كانت آخر مملكة هيلنستية لا تزال مستقلة في ذلك الوقت، وحدث هذا عام (٣٠) ق.م في عهد كيلوباتره السابعة آخر ملكة أغريقية حكمت مصر. ويختلف المؤرخون في تعريف العصر الهيلنستي، والأرجح أنه العصر التي استمرت فيه الحضارة الهيلينية القديمة على أسسها السالفة وجوهرها، ولكن بادخال بعض عناصر الحضارة الشرقية، وإنتشار هذه الحضارة في ربوع الشرق، وبذا لم يعد

مركـزهـا الـرئيسي في بلاد الأغـريق القديمة، وإنما في عواصم الممالك الجديدة التي أنشأها خلفاء الاسكندر الأكبر على أنقاض الأمبراطورية المقدونية.

وتفيد المصادر أن تاريخ الحضارة اليونانية يرجع إلى حوالي ألفين من السنـين قبـل الميلاد، حين كانت تفد على شبه جزيرة البلقان شعوب أطلقت على نفسها إسم الهلين، وأطلق الرومان عليهم إسم الإغريق. وكـانت جزيرة كريت هي المـركز الرئيسي لحضارة هذه الشعوب، التي كانت تعـرف آنذاك باسم الحضارة المينوئية، نسبة إلى مينوس (اللقب الملكي الذي كان يحمله ملوك كريت في تلك الحضارة) ثم أُطلق عليها في وقت لاحق مسمى الحضارة الإيجية نسبة إلى بحر إيجة، التي انتشرت هذه الحـضـارة على شواطئـه الآسـيوية الـبلقـانية. وفي حوالي عام (١٣٥٠)ق.م، تغلبت دولة مكين الأغريقية على معظم أراضي البلاد ومنها كريت، وبذلك آلت إليها زعامة الحضارة الإغريقية، وقد أثبتت الحفريات والدراسات التاريخية أن الحضارة المينوئية كانت أساس الحضارة التي عرفت فيما بعد باسم الحضارة اليونانية (الاغريقية).

واللغة اليونانية، لغة ترجع في أصولها إلى اللغة الهندو ـ أوربية، وكانت تعرف في القديم باسم اللغة الكونيه KOINE وقد حدث تطورات على هذه اللغة وتحولت على إثرها إلى اللغة الأغريقية الحديثة، واستمرت حتى الآن. امـا الكتابة بهذه اللغة فقد بدأت في شبه الجزيرة الإغريقية في حوالي القرن الخامس أو الرابع عشر قبل الميلاد، وكانت الكتابة اليونانية في بدايتها الأولى كتابة تصويرية، ثم تطورت إلى الكتابة الرمزية، ثم الهجائية بالأحرف المتصلة Cursive Form وكان يطلق على كتابتهم مسمى Linear B ، وهي الكتابة التي يعتقد العلماء أنها اعتمدت بصفة رئيسية على اللغة الكونيه القديمة في الحضارة اليونانية. وقد استمر استخدامها لفترة طويلة، حتى قام اليونانيون بتطوير أبجديتهم المأخوذة من الأبجدية الفينيقية في القرن الثامن قبل الميلاد، وكان ذلك إيذانا بميلاد أو كتابه

صوتية حديثة، تكونت من أثنين وعشرين حرفا.

اعتمد الاغريق بصفة أساسية في بداية عهدهم بالكتابة على لفائف البردي الذي قاموا باستجلابه من مصر عن طريق التجار الفنيقيين. وبحلول القرن الخامس الميلادي كان البردي الوسيط المادي للكتابة في بلاد اليونـان. وقد أطلقوا عليه إسم "Papyrus" وهو مشتق من اسم الميناء الفينيقي ببليوس الـذي كان يعد المركز الرئيسي لتصدير أوراق البردي الى الأراضي اليونانية، وقد ذكرت المراجع أن الإغريق أطلقوا اسم «خارتيس: CHARTES» على أوراق البردي الخام، أما لفائف البردي فقـد أطلقـوا عليها مسمى «كلندروس: Kylindros» وتعني الإسطوانة باللغـة الأغـريقية، أمـا لفائف البردي المكونة من أوراق بردية متصلة يحددها البعض بعشرين جزءا، فقد أطلقو عليها مسمى «توموس: Tomus» ويرجع أصلها في اللغة اللاتينية الى لفظ "Tomarion" وتعني لفافة، وبالرغم من اكتشاف الرق كوسيط للكتابة في الحضارة الإغريقية منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد في مدينة برجاموم، إلا أن استخدام البردي ظل في هذه الحضارة حتى حوالي عام ٣٠٠م.

كان الكتاب في الحضارة الاغريقية يأخذ شكل اللفافة، واستمر على هذا النمط، حتى اكتشاف الرق، بعدها بدأ التطور في شكل الكتاب ليأخذ شكل الدفتر، ويرجع تاريخ هذا التطور إلى نهاية الحقبة التاريخية للحضارة اليونانية، وإن كان لم يأخذ حظه من الانتشار إلا أبان الحضارة الـرومـانية. وبنهـاية القرن الخامس قبل الميلاد، عُرف الكتاب كوعاء للمعـرفـة في المجتمع اليوناني، وخاصة في أثينا، وأصبح اقتناء الكتب وجمعهـا هواية متأصلة بين الطبقة المميزة والمثقفة في المجتمع، وبالتالي بدأت الكتب تشق طريقها إلى الظهور في الحضارة اليونانية منذ ذلك التاريخ.

تميزت الكتـابـات في العصر اليونـاني بخصـائص عرفت بها الكتب والمخطوطات التي كانت تنتج في عصرهم، فقد كانوا يستخدمون الحروف

الكبيرة، مع عدم ترك مسافات للفصل بين الكلمات، كما قاموا بتوضيح نهايات الفقـرات بعـلامـات مميزة، عبارة عن شرطة توضع تحت بداية السطر الأخير من كل فقرة، أطلق عليها مسمى «البراجرافوس: Parag-raphos وهو مصطلح لازال يستخدم في العصر الحديث في عدة لغات أوربية (Paragraph) بالمفهوم نفسه، وقد يوجد في المخطوطة أو الكتاب حواشي تتضمن بعض المـلاحـظات النقدية، كان يطلق عليها مسمى «سكولبيس Scholies كان يقصد بها شرحا لبعض المفاهيم والعبارات التي وردت للنص، وكـانت تميز بعلامات خاصة للإشارة إليها. أما عنوان العمل، فكان يذكر عادة في نهاية النص، وقد بدأ اتباع كتابة العنوان بعـد فترة من نشـأة الكتـاب في المجتمعـات اليونـانية، ولذا نجد أن المخطوطات البردية التي تمثل باكورة انتاجهم الفكري، لم تكن تحمل أي عناوين، مما كان يثير صعوبة في الاستدلال على هذه الوثائق أو التمييز بينهـا، وقـد دعا ذلك إلى أن يقوم المكتبيون اليونانيون بمحاولة وضع قصاصات إرشادية على كل مخطوط لتمييزه، أطلق عليها «سيليبوس: Sil-lybos ، ولما كانت لفائق البردي تحتاج إلى دعامات لحفظها، خوفا عليها من التلف والتمـزق، فقـد كان يصنع لها خصيصا حوافظ خشبية أو حوافظ مصنوعة من الحجارة، أطلقوا عليها مسمى «البيليوتيكا: Bib-liothekee وهو ذات المصطلح الذي لازال يستخدم إلى الآن في بعض اللغات الأوربية الحديثة مثل الفرنسية والألمانية، يفيد بمعنى أكثر شمولا واتساعا، فيطلق على المكتبة ذاتها.

بعـد انتشار الكتاب في المجتمعات اليونانية، بدأ ظهور المكتبات، كدور وأمـاكن لحفظ هذا الانتـاج الفكـري المكتوب. وكخاصية عامة تشترك فيها معظم الحضارات القديمة، فإن البدايات الأولى للمكتبات بدأت بالمقتنيات والمجموعات الخاصة لدى الطبقة المُميزة في المجتمع، وطبقة رجال الدين، ثم انتشرت بعد ذلك في المجتمع لتأخذ أشكالها وأنـواعها المختلفة. وهنالك العديد من الأرآء حول بداية المكتبات في

الحضارة اليونانية، إلا أن أقربها إلى المنطقية التاريخية، تشير إلى أن بداية المكتبات في اليونان تعود إلى نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد، وهو رأي يطابق ما قيل عن بداية الكتابة في هذه الحضارة. أما ماقيل حول بداية المكتبات قبل هذا التاريخ،فإنه يحتاج إلى إثبات بداية الكتابة أولا، وبالتالي إنتاج الكتب قبل نهاية القرن السابع وبداية القـرن الســادس قبل الميلاد بوقت كافٍ، لتكون هنالك مجموعات من المقتنيات كافية لتنشأ بها مكتبات هذه الحضارة. عموماً، تشير المراجع أن من أوائل المكتبات في هذه الحضارة كانت مكتبة مدينة «ميليت: Mel-lete» والتي أطلق عليها «مكتبة ميليت»، وكانت توجد بها مجموعات من الـوثـائق والمخـطوطـات سواء باللغـة اليونانية أو بلغات بقية الشعوب المتحضرة التي عاصرتها الحضارة اليونانية، ويقال أن تدمير هذه المكتبة تم على يد الفـرس عام ٤٩٤ق.م. ويرجع تاريخ هذه المكتبة إلى القرن السادس قبل الميلاد.

وبصعـود نجم مدينـة «أثينـا» كمركز ثقافي، بعد تدمير الفرس لمدينة ميليت، تطورت هذه القرية الساحلية وبرزت كقوة سياسية وثقافية للعالم اليوناني، وأصبحت في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، أهم مركز علمي وثقافي في العالم اليوناني. وأقدم مكتبة عامة في أثينا يرجع تاريخها إلى القرن الســادس قبــل الميلاد، وهي تلك المكتبــة التي أقــامهــا طاغية أثينـا «بيزاسـتراتـوس: Peisistratos» عام (٥٧٢ق.م)، وأهـداها إلى الأثينيين لتكون مكتبة عامة لهم. وبنهاية القرن الرابع قبل الميلاد، ازدادت المكتبات وانتشرت في الحضارة اليونانية، وبدأت تظهر مكتبات عامة وشبه عامة في أثينـا وأنـطاكية ورودس، وغـيرهـا من المـدن اليونـانية الكبيرة، في آسيا الصغرى، وجزر البحر الأيجيى، ومن أمثلتها مكتبة مدينة هرقلية في مقاطعة بيتينيا. ويقال أن عدد مكتبات مدينة أثينا وحدها بلغ ثماني وعشرين مكتبة، من أهما تلك المكتبة العامة الأثينية التي أقيمت في القرن الرابع ق.م وكانت مقتنياتها تحتوي على الأعمال الأدبية الكبيرة في الأدب اليوناني لكُتاب مثل: آسخيلوس، وسوفوكليس، ويوريبيديس، حيث كان يسمح فيها بالاطلاع

الداخلي، دون الأعارة الخارجية للمقتنيات، وذلك حفاظا على مقتنياتها من التلف والضياع، وأيضا في محاولة من الدولة للاحتفاظ بنسخ مقننة ومعتمدة وغير محرفة من كتابات كبار أدبائها ومفكريها. وهي بذلك كانت تقوم بدور المكتبة العامة والمكتبة الوطنية في وقت واحد.

وبجانب المكتبات العامة، وجدت المكتبات المتخصصة، التي كانت تمثـل دور المحفـوظـات والسجـلات في كبريات المـدن اليونانية. ومن أمثلتها «الميتروم: Metroom» (معبد أم الآلهة) التي أُقيمت في أثينا في خلال القرن الخامس والرابع قبل الميلاد. وعرفت الحضارة اليونانية أيضا المكتبات الخاصة التي ارتبطت بعددٍ من مشاهير هذه الحضارة من أمثال «إيريبيدس: Euripides» ، «أخيل الأثيني: Euclid of Athens» ، «نيكو كراتس القبرصي: Nicorates of Cyprus» ، «وبوليكراتس: Polycrates». تُعـد مكتبة العالم أرسطو طاليس (أرسطو) الفيلسوف الإغريقي الشهير (٣٨٤-٣٢٢ق.م) أول مكتبـة أكـاديمية كبيرة في العالم اليوناني، وكان هدفه من تجميع واقتناء هذه المكتبة، أن يستعين بها في دراسته وأبحاثه ونشـاطـه العلمي والتدريسي، وأُلحقت هذه المكتبة بمدرسة أرسطو في أثينا، تلك المدرسة الأثينية الشهيرة التي سميت بالمدرسة الأبيقورية، فقد أصبحت مركزا مهما للأبحاث والدراسات ، وكانت مكتبتها قبلة المثقفين والمفكـرين في عصره، حيث جمعت بين جدرانها كتبـاً تغـطي معـظم المجالات المعرفية التي عُرفت في ذلك الوقت. وبعد موت أرسطو، مرت المكتبـة بظروف سيئـة، وتـدهورت إلى حد كبير، نتيجة لإهمالها وعدم العنـاية بها. ويذكـر لنـا التـاريخ بأن هذه المكتبة تداولتها الكثير من الأيدي، ونُقلت عدة مرات إلى أمـاكن متفرقة، فقد أُخذت إلى آسيا الصغرى، ثم عادت مرة ثانية إلى أثينا، وأخيرا نقلت إلى روما في عهد «سـولا: Sulla» القـائـد العسكـري الـرومـاني ودكتاتور روما (١٣٨ - ٧٨ق.م)، حيث وضـعت تحت تصرف «تـيرانيو: Tyrannio» العـالم الجغرافي الإغريقي، ومعلم «سترابو: Strabo» وهناك رواية أخرى، تشير

إلى أن بطليموس الثاني ملك مصر، قام بشرائها وشحنها إلى الإسكندرية في نهاية القرن الثالث ق.م، ليضمها إلى مقتنيات مكتبة الإسكندرية.

أمـا خلال العصر الهيلنيتي من الحضـارة اليونـانية، فقـد اهتم خلفـاء الإسكندر الأكبر ببناء المكتبات وإنشائها، فنجد «أنتغونس غوناتاس: Antigonos Gonatas» ، والذي تولى عرش مقدونيا (٢٧٦ق.م)، قد أنشأ مكتبة عظيمة حوالي عام ٢٥٠ق.م: نواتها مكتبة الإسكندر الأكبر، والتي يقال أن الإسكندر الأكبر كان يحمل معه الكثير من مقتنياتها أثناء فتوحاته في العالم. وقد أُهلمت هذه المكتبة بعد وفاة منشئها، ثم وقعت في يد الرومان وأُرسلت إلى روما كغنيمة حرب عام ١٦٧ق.م، كما نجد «انطو خيوس الكبير: Antochios The Great» ، حاكم سوريا السلوقي، (٢٢٤-١٨١ق.م) قـد أسس مكتبة انطاكية الكبيرة على نهر العاصي. ومن أكبر وأهم المكتبات التي أُنشئت في هذه الفترة مكتبة الأتاليين، التي أُنشئت في برجـاموم (برجاموس او برجامون) في آسيا الصغرى، والتي عرفت في التـاريخ باسم مكتبـة برجـاموم، التي أسسها أتالوس الأول (٢٤١ - ١٩٧ق.م)،Attale I، وإن لم تشتهر إلا في عهد الملك أمينوس الثاني Eumenes II (١٩٧-١٥٩ق.م) الذي طورها ورفع شأنها، وكانت تقع في قلب مدينة برجاموم ملحقة بمعبد الإله أثينا (إله الحكمة عند الأغريق). وقدرت مقتنياتها بما يقارب الـ ٢٠٠ ألف مجلد. وبلغ من شهـرة مكتبـة برجـامـوم الحـد الـذي كادت تقـارب فيه شهـرة مكتبة الإسكندرية القديمة. ويقال، أنه عندما شعرت أسرة البطالمة بخطورة مكتبة برجاموم كمنافس لمكتبة الإسكندرية، منعوا تصدير ورق البردي إلى مدينة برجاموم، حتى يحرموا القائمين على أمر هذه المكتبة من الوسيط الـرئيس للكتـابـة، والـذي كان يُعـد المصـدر الأول في إنتاج الوثائق واستنسـاخهـا، مما دفع أهل برجاموم إلى البحث عن بدائل للبردي، وتوصلوا بالفعل إلى صناعة الرق Parchment ، من جلود الحيوانات، وطوروا صناعته، واستخدموه بديلا عن البردي: وحاولوا نشره في جميع

أنحاء العالم (راجع المادة العلمية الخاصة بهذا الموضوع في الفصل الأول «الرق».
وهناك رواية عُرفت بإسم «رواية التعويض»، ذكر فيها أن ماركوس انطونيو، الذي كان على علاقة حيمة بكليوباترة السابعة ملكة مصر، أراد أن يعوضها عما فقدته من مقتنيات مكتبة الاسكندرية الكبرى، أثناء حادثة «حرق الأسطول» الشهيرة، على يد جنـود يوليوس قيصر، فقـام بإهـدائهـا (٤٠,٠٠٠) مجلد (وفي رواية أخـرى ٢٠٠,٠٠٠ مجلد) من مقتنيات مكتبـة برجـامـوم، حيث قام بشحنهـا إلى مدينة الإسكندرية وحُفـظت في القصر الملكي. وفي رواية أخـرى في المكتبة الصغرى (السيرابيوم). وهناك من المؤرخين من يشكك في صحة هذه الرواية.

أما أعظـم المكتبات وأشهرها على الأطلاق، ليس في الحضارة اليونانية وحسب بل في تاريخ المكتبات بأسره، فهي «مكتبة الإسكندرية القديمة» التي عُرفت بمسميات شتي، منها؛ الخزانة الملوكية، خزانة الاسكندرية، مكتبة الإسكندرية، مكتبة الموسيوم، مكتبة الموسسيون، المكتبة الرئيسية، المكتبـة الكـبرى، والمكتبـة الأم، حيث أنبثق عنهـا، وتولد منها مكتبة صغرى: عُرفت، بالمكتبة الإبنة، المكتبة الصغرى، ومكتبة السيرابيوم، نسبة إلى إسم معبد الاله «سيرابيس: Serapis المعروف بإسم السيرابيوم Serapium الذي أُلحقت به المكتبة الصغرى. هذه التعددية في الأسماء، ليست بالملمـح التعددي الوحيد الذي تختص به هذه المكتبة المتفردة، فالتعـددية صفـة ملازمة لسيرتها وتاريخها، بداية بقصة إنشائها، ونهاية بروايات فنائها.

يروى بعض المؤرخـين: أن صاحب فكـرة إنشائها العالم الأغريقي الشهـير «أرسـطو» (وإسمه الكامل «أرسطو طاليس»: صاحب مدرسة اللوفيوم الأثينية الشهيرة، ومؤسس مكتبتها التي عُرفت بإسمه)، ويقال أنه أوصى بفكـرة الإنشاء إلى بطليموس الأول (ويدعى أيضا: بطلوماس الأول، سوتـر، وسـونير)، أو ملوك البطالمة (البطالسة، البلاطمة) بعد الاسكندر الأكبر (٣٦٧ ـ ٢٨٣ ق.م)، ويخالفهم في الرأي جمهرة من العلماء مؤكدين أن أرسطو لم ير أصلا مدينة الأسكندرية، ناهيك عن

رؤية مكتبتهـا، ويعـزون فكرة إنشائها الى «الفاليرى» (ويُدعى أيضا: «ديمـتريوس فالـيري»، و «ديمتريوس فاليروس»، «الياس الأثيني» أما العرب فيدعونه إبن مرَّه، أو زُميره)، ويقال أنه أوصى بها الى بطليموس الثـاني (ويدعى أيضـا: بطلومـاس الثـاني، بطليمـوس فلادفـوس، أو بطلومـاس فيلاذفوس) (٣٠٨ـ٢٤٦ق.م) وهو رأي ضعيف أيضا، أما جُل البـاحثـين، فيؤكـدون أن ديمـتريوس الفاليرى (٣٣٧ـ٢٨٢ق.م) أوصى بفكـرتهـا إلى بطليمـوس الأول، لتقـام ضمن منشآت أكاديمية الإسكنـدرية (الموسيوم)، وهو الرأي الأرجح عند الأغلبية. أما تاريخ الإنشاء فمختلف عليه، فمنهم القائل بعام ٢٨٤ق.م، ومنهم من ذكر ٢٨٥ق.م، وذكرت السنوات ٢٨٦ و ٢٩٠ق.م، كسنوات إنشاء.

وتـطالعنـا المصـادر بقـائمـة العلماء الذين أشرفوا على المكتبة وتولوا مسئوليتها، وحملوا أمانتها، فترد أسماؤهم، كما يلي:

١ ــ «زينو دوتس الأمنسس» (ويدعى أيضا زينودوتس الروديسي)، تولى مسئوليتها ما بين الأعوام ٢٨٤ـ٢٦٠ق.م

٢ ــ «كـاليما خوس» (ويدعى أيضـا: كاليماخوس البرقـاوي، وكاليما رخوس)، تولى مسئوليتها مابين الأعوام ٢٦٠ـ٢٤٠ق.م.

٣ ــ أبـولونيوس الروديسي (ويدعى أيضا: أبولونيوس الرودى). تولى مسئوليتها ما بين الأعوام ٢٤٠ـ٢٣٥ق.م.

٤ ــ «إيراتوستينس القورينيائي». تولى مسئوليتها مابين الأعوام ٢٣٥ - ١٩٥ ق.م.

٥ ــ أرسطو فان البيزنطي (ويدعى أيضا،» أرستو فانس البيزنطي). تولى مسئوليتها مابين الأعوام ١٩٥ - ١٨٠ق.م).

٦ ــ أبـولـونيوس أيدو جرافـوس» (ويدعى أيضـا» «أبـولـونيوس الأيدوجرافي». تولى مسئوليتها ما بين الأعوام ١٨٠ - ١٦٠ق.م).

٧ ــ «أرسـطو خاروس التـامورثيتي» (ويدعى أيضا: «أرستو خاروس الساموتريسى»). وتولى أمانتها ما بين الأعوام ١٨٠ - ١٦٠ق.م.

ثم نجد لدينا حقبة تاريخية مفقودة ما بين الأعوام ١٤٦ق.م وحتى ١٠٠ ق.م، حيث لم يرد في أي من المراجع أو المصادر) ما يفيد من تولي أمـانـة المكتبـة خلال هذه الفترة، إلى أن تطالعنا المصادر بالإسمين التاليين:

٨ ـ «أونسنـدر القبرصي» (ويدعى أيضا: «أونسند القبرصى»)، تولى مسؤليتها مابين الأعوام ١٠٠ـ٨٩ ق.م.

٩ ـ «خيرمون الاسكندري «(ويدعى أيضا: «كيرمون السكندري»)، من المرجح أنه تولى مسئوليتها، في القرن الميلادي الأول، أي بعد زوال حكم أسرة البطالمة، وإبان حكم الرومان لمصر، وفي الغالب يكون تم تعيينه عن طريق الامبراطور الروماني.

وبعـدهـا تصمت المصـادر عن تحديد من تولى مسئولية المكتبة في الفـترات الـلاحقـة، وقـد يكون ذلك راجعا الى عدم شهرة من تولوا أمانتها، أو لأن المكتبة لم يكن لها وجود بعد ذلك التاريخ. أما المكتبة الإبنة (السيرابيوم)، فلم تذكر المصادر أي اسم كان، كأمين للمكتبة، مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن الاشراف على هذه المكتبة الإبنة كان يتم من خلال أمين المكتبة الأم عندما كان هذا المنصب قائما. وعند زوال المكتبة الأم وتدميرها، كان رهبان معبد السيرابيوم يقفون بأنفسهم للاشراف على مكتبتهم، ولذا لم يرد ذكر أمين لمكتبة السيرابيوم في المصادر أو المراجع المختلفة التي تناولت سيرة هذه المكتبة.

أمـا أشهـر من عمـل بها، فيكـاد يجمـع المؤرخـون على أنه العالم الببليوجـرافي الشهـير «كـاليماخـوس»: صاحب فهـرسهـا وببليوجرافيتها الشهيرة» «البيناكس: Pinakes التي لم يصلنا منها الا إسمها والكتابات عنها. ويحلو للبعض إضفاء لقب «أبو الببليوجرافيا» على «كاليماخوس»، ويعدونه أول من أنتج ببليوجرافية منظمة في التاريخ الانساني.

أما فيما يخص مقتنياتها، فتختلف المراجع فيما تورده من أرقام حولها، ونجـد أن البعض يحدد (٥٤) الفا، بينما الآخر يقول بـ (٧٠) ألفا،

و(١٠٠) ألف، و(٢٠٠)ألف، و(٥٠٠)ألف، و... حتى تستقر عند الرقم (٧٠٠)الف، وقد تعمدنا الا نذكر تمييز الأرقام، فهي أيضا جد مختلفـة، وتأخذ مسميات متنوعة، فتارة «الكتاب»، وأخرى «المجلد»، وأحيانا «اللفافة»، وقد يكون «المخطوط» أو «البردية»، وكما نرى فالشكل المادي للوعاء مختلف عليه بين العلماء والبحاثة. ونجد من الباحثين من يحذرنا من الأخذ بهذه الأرقام على علاتها. حيث ـ حسب قولهم ـ أن مايسمى مجلدا، أو كتـابـا، أو مخطوطـا، أو لفـافه بردى في المكتبات القديمة، لا يرتقي شكلا أو حجما إلى المفهوم الحديث المتعارف عليه للكتب أو المجلدات العصرية. ويؤكـد أحـدهم ـ بعـد قيامـه بعملية حسابية، قياسية مُقارنة، أن الشكل القديم يوازي حوالي ١٠٪ من حجم المجلد أو الكتاب العصري، وعليه نستطيع استنتاج أن مقتنيات مكتبة الأسكندرية القديمة، لم تبلغ في أعلى تقدير لها اكثر (٧٠,٠٠٠) وثيقة، إذا ما قيست بمعايير العصر، أما تفسير ظاهرة عدم وصول مقتنيات هذه المكتبة الينا ـ إلا النذر اليسير منها ـ فهو أمر لم تتعرض له المراجع أو المصادر قديمها وحديثها، وهو الشيء المستغرب نظراً للكم الهائل من الانتاج الفكري الذي نُشر حولها.

وقد يتضح تفسير هذه الظاهرة ـ حسب رأي الباحثين ـ من النهاية (أو النهـايات) الـدرامية التي انتهت اليها المكتبة، والتي حيكت حولها الكثير من الروايات. واجتهد العلماء والمؤرخون في تحقيقها، في محاولة منهم لبيان الحقيقة وتفسيرها، وبالرغم من تلك المحاولات العلمية الجادة، إلا أن أيا منهم لم يستـطع أن يجزم بصحـة روايتـه أو ينفي روايات الآخـرين، إلا في حالـة واحدة، حيث أجمع عليها رأي الكثيرين من العلماء والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين، ونعني بها رواية إحراق العرب لمكتبة الأسكندرية القديمة إبان فتح عمرو بن العاص لمصر، في عهد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فهى الرواية الوحيدة التي وجدت الإجماع على نفيها ودحضها، ليس من قبل علماء العرب

المسلمين فحسب، بل من جانب الكثير من علماء العجم ومستشرقيهم قديمهم وحديثهم.

يرجع العلماء أصل هذه الرواية الملفقة إلى عبارة قصيرة وردت في نص قديم كتبه عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢-١٢٣١م)، الطبيب العربي المسلم، القادم من بغداد في زيارة لمدينة الإسكندرية، تعرض فيها لوصف أكاديميتها الشهيرة (الموسيون)، وأورد في النهاية عبارة لم يُرجعها إلى أي مصدر كان، بل جاءت كجملة عفوية، مستقاة ـ في الغالب ـ من أقاويل العامة، وقد كان نصها مايلي «وفيها (أي الأكاديمية) خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن من عمر رضي الله عنه». تلك العبارة على قصرهـا فتحت علينـا نحن العـرب المسلمـين بابـاً من الشـائعـات والاتهامات، وجدت صدى في نفوس المتربصين بالأمة العربية الاسلامية فروّجوا لها ودعموها بالأسانيد الباطلة، ونشروها في العالم أجمع. إلا أن جمهور الباحثن، يكاد يجمع على أن أول من أورد رواية متكاملة الحبكة، ذات بداية وعقدة ونهاية، قام بصياغتها المؤرخ العربي حب الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم عبد الواحد بن موسى أحمد الشيباني القفطى (١١٧٢ ـ ١٢٤٨م) (وذكرته بعض المراجع باسم: ابو الحسن علي بن يوسف القفـطي، والقفـطى) وقـد أبـدى الكثير من الباحثين دهشتهم لصدور هذه الرواية الملفقة عن عالم عربي مصري مسلم، وقد جاء في هذه الـرواية «عاش يحيى النحوى إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكنـدرية، ودخـل على عمرو، وقد عرف موضعه من العلم واعتقـاده، وماجرى له مع النصارى، فأكرمه عمرو ورأى له موضعا، وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه، وسمع كلامه أيضا في إنقضاء الـدهـر، ففتن به وشـاهـد من حججـه المنـطقية، وسمع من ألفاظه الفلسفية، التي لم يكن للعرب آنسة بها، ماهاله. وكان عمرو ناقلا حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكاد لا يفارقه، ثم قال له يحيى يوما «أنـك قد أحـطت بحواصل الإسكندرية، وختمت على كل الأجناس

الموصوفة، والموجودة بها، فأما مالك به إنتفاع فلا أُعارضك فيه، واما ما لا نفع لكم منه، فنحن أولى به، فأمر بالافراج عنه» فقال عمرو «مالذي تحتـاج؟» قال «كتب الحكمـة في الخـزائن الملوكية، وقد أوقعت محوطة عليها، ونحن محتاجون إليها ـ ولا نفع لكم بها، فقال له «ومن جمع هذه الكتب؟ ومـا قصتهـا؟» فقـال يحيى «إن بطليمـوس زلفوس من ملوك الإسكندرية، لما ملك حبب اليه العلم والعلماء: وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها، وأفرد لها خزائن، فجمعت، وولى أمرها رجلا يدعى بابن مره (زمـيرة)، وتقـدم اليه بالاجتهـاد في جمعها واجتمع له من ذلك، خمسـون الف كتـاب ومائة وعشرون كتابا، ولما علم الملك باجتماعها، وتحقق من عدتها، قال لزميرة، أتُرى، بقي في الأرض من كُتب العلم مالم يكن عنـدنا؟ فقال زميرة «قد بقي في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان، والأرمان وبابل والموصل وعند الروم» فعجب الملك من ذلك، وقال «دُم على التحصيل» فلم يزل على ذلك إلى أن مات. وهذه الكتب لم تزل محروسـة محفـوظـة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك وأتباعهم، إلى وقتنا هذا، فاستكثر عمرو ماذكره يحيى، وعجـب منه، وقال له «لا يمكننى أن آمر بأمر إلا بعد إستئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب». وكتب إلى عمر وعرفه بقول يحيى الذي ذكر، وأستأذنه ما الذي يصنعه فيها، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه «وأما الكتب التي ذكرتها، فإن كان فيها مايوافق كتاب الله، ففي كتاب الله عنها غني، وان كان فيها مايخالف كتاب الله تعالى، فلا حاجة لنا بها، فتقدم باعدامها» فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الأسكندرية، وأحرقها في مواقدها، وذكر عدة حمـامات يومئذ وأُنسيتها، فذكروا أنها استنفدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ماجرى واعجب». هذه الرواية رواها القفطي ونقلها عنه، أبو الفرج جريجوري بن العبدى (١٢٢٦ـ١٢٨٦م) (وأسمه كاملا أبو الفرج جريجوري بن هارون أبو الفرج الملطى النصراني، يكنى بأبن العبدي لأن والده كان طبيبا يهوديا قبل أن يتحول إلى المسيحية،

وهو من مؤرخي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وتداولها عنه أو عن القفطي، العديد من المؤرخين القدامى، منهم أبو الفداء إسماعيل بن على الأيوبي (١٢٧٣ - ١٣٣١م)، وتاج الدين أحمد بن علي المقريزي (١٣٦٤ - ١٤٤٢م). وأشهر من أيد الرواية من المحدثين «جرجي زيدان» في كتابه «تاريخ التمدن الاسلامي» المنشور عام ١٩٥٨. وقد تصدى لهذه الرواية جمهور المؤرخين والبحاثة العرب والمسلمين، وكثير من المستشرقين مفندين مزاعمها بالحقائق التاريخية، والأدلة المنطقية القائمة على الحقائق والثوابت البحثية، حتى تم القضاء على آثارها إلى حد بعيد.

أما الروايات الأخرى التي تناولت نهاية مكتبة الأسكندرية، فأهمها تلك القصة ا لمتعلقة بحادثة حرق الأسطول، وهي الرواية الأكثر شيوعا وقبولا بين المؤرخون والبحاثة. وتتلخص أحداثها بقدوم يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ق.م) إلى مدينة الإسكندرية على رأس فيلق روماني، تحت ستار فض الخلاف الذي نشأ بين كليوباترا السابعة (٦٩-٣٠ق.م) وأخيها بطليموس الثالث عشر على العرش في مصر، وحدث نزاع مسلح بين الأطراف المتنازعة، أدى إلى قيام يوليوس قيصر بإعطاء أوامره إلى جنوده بحرق السفن الراسية في ميناء الإسكندرية، وامتدت النيران من السفن إلى الميناء، ومنها إلى الحي الملكي الواقع بالقرب من الميناء، واحترقت أجزاء منه، منها مكتبة أكاديمية الموسيون، المعروفة بإسم مكتبة الإسكندرية الكبرى، ويقال أن النيران أتت على أجزاء كبيرة من مقتنياتها تقدرها أكثر المراجع بـ (٤٠٠) ألف مجلد، وهذا الرقم يقارب ماكان موجودا من مقتنيات بالمكتبة وقت الحريق. وقد كتب المؤرخ والأديب اليوناني أميانوس مرسلينوس في ذلك قائلا «كانت مكتبة الإسكندرية لا تقوَّم بثمن، واتفق الكتاب الأقدمون على أنها كانت تحوي سبعمائة ألف كتاب، بذل في جمعها البطالمة جهدا كبيراً، ولقوا في سبيل ذلك عناء عظيما، وقد أحرقتها النيران في حرب الإسكندرية عندما غزاها قيصر

وضربها»، ويرجع البعض وقوع هذا الحريق في عام ٤٧ق.م (وبعضهم ذكر عام ٤٨ق.م).

ويذكـر المؤرخـون حريق آخـر لمكتبـة الأسكنـدرية، قام به جنـود الامـبراطور الروماني أوليانوس (ويدعى أيضا أورليان) (٢١٥-٢٧٥م)، عندما حضر بجنوده لقمع ثورة الإسكندرية عام ٢٧٣م، وقام بحرق جزء كبير من المدينة، وقد حظي حي البروكيوم الملكي الذي تقع فيه المكتبة بنصيب وافر من هذا التدمير مما أدى الى حرقها. أما مكتبة السيرابيوم، المكتبة الصغرى والتي أقيمت بعد حوالي خمسين عاما من إنشاء المكتبة الكبرى واحتوت على حوالى (٣٠٠)الف مجلد، كما يُفترض احتواؤها على المقتنيات الخاصة بمكتبة برجاموم، إذا صحت «رواية التعويض»، فإنها على حسب أكثر الروايات شيوعا، دُمرت في عهد الامبراطور الروماني نيودوسيسوس الأول (الكبير) ويدعى أيضا نيودوسيوس دقليدانوس (٣٤٦ - ٣٩٥م)، ويعزى اليه إصدار الأمر بتدمير معبد السيرابيوم وملحقاته بناء على إيعاز من بطريارك الإسكندرية نيو فيلوس الأنطاكي (عاش في حوالي القـرن الرابع الميلادي)، وقد قام هذا البطريارك بالإشراف على الأمر وتنفيذه عن طريق أتبـاعـه، وتم هدم المعبـد (معبـد الالـه سيرابيس) وملحقاته بما فيها المكتبة عام ٣٩١م. وتوجد بعض الروايات التي تقول بتـدمـير المكتبة الإبنة (السيرابيوم) في عهد الأمبراطور جيونان (٢٣١ - ٣٦٤م)، حين حضر للإسكندرية بجنوده قاصدا تأديب أهلها ومعاقبتهم على تمردهم عليه وإهانته، وقام من ضمن ما قام به بتدمير معبد الاله سيرابيس في حي الراقوده الشعبي وملحقاته بما فيها المكتبة الإبنه، بحجة القضاء على رموز الوثنيـة في مدينة الأسكندرية، ويرجع حدوث ذلك عام ٣٦٣م. وهكـذا اتفق العلماء على دمـار مكتبـة الاسكندرية الكبرى، ومكتبتهـا الصغـرى، سواء بالحـرق أو الهدم، وإن كانوا اختلفوا على التواريخ والأشخاص المرتبطين بتلك النهاية. وبهذا أسدلت الستار على فصول قصة مكتبة الإسكندرية الشهيرة، التي لم ولن تجد مكتبة تاريخية

قديمة، ماوجدته هذه المكتبة من أهتمام من قبل هذا العدد الكبير من العلماء والبحاثة.

ونستطيع أن نلخص موقف هذه الحضارة فيما يخص ظاهرة الكتابة، وإنتاج الكتب، وإنشاء المكتبات في النقاط التالية:

١ ــ تم فيهـا اكتشاف أول كتابة صوتية عصرية، مكونة من حروف هجائية، تم قبسها من الأبجدية الفينيقية.

٢ ــ ظهر فيها الرق كوسيط كتابي جديد لم يكن معروفا من قبل.

٣ ــ كان لاستخـدام ورق البردي كوسيط للكتابة في هذه الحضارة، الأثر السلبي على انتقال التراث الفكري لها إلى العصور اللاحقة، حيث كان للعوامل الجوية (وخاصة ارتفاع نسبة الرطوبة) أبلغ الأثر في تلف لفائف البردي بما تحويه من معرفة مكتوبة، مما أدى بدوره إلى قلة ما وصلنا من إنتاج مكتوب لهذه الحضارة.

٤ ــ قامت في هذه الحضارة، مكتبات كبيرة وعظيمة القيمة، ارتبطت بمشـاهـير وعـظماء ومفكـرين، وتعـد في هذا المجـال من أكثـر الحضارات ثراء بالمكتبات.

٥ ــ أُنشيء خلالها أعظم مكتبة عرفها التاريخ القديم، ونعنى بها مكتبة أكـاديمية المـوسيون الشهيرة والتي عرفت في التاريخ بإسم مكتبة الإسكندرية الكبرى.

٦ ــ ظهـر فيها أول أنواع الكتب المطوية، المصنوعة من الرق، التي تأخذ شكل الدفتر، وإن لم تجد حظها من الشيوع والانتشار.

٧ ــ يؤكـد تاريخ هذه الحضارة على ظاهرة إنشاء المكتبات في فترات الاستقرار السياسي والاقتصادي والتسامح العقائدي، وعلى القول بأن تدمـير المكتبـات والقضـاء عليها يكون على أشده في فترات القـلاقـل السياسية والحـروب والمنـازعات والتدهور الاقتصادي، وسيطرة التعصب العقائدي الأعمي على الحياة الفكرية والثقافية في المجتمعات.

وفيما يلي بعض الشخصيات البارزة في الحضارة اليونانية، المساهمة في مجال الكتابة والكتاب والمكتبات:

* أبيقـوروس: (٣٤٢ ـ ٢٧٠ق.م) فيلسوف إغريقي شهير عاش في العصر الهيلنستي، ألّف العـديد من الكتب، دعـا فيها إلى فلسفة السعادة النابعة من ترويض النفس وكبح جماحها للوصول إلى التوازن النفسي، والذهاب بآلام الجسد وقلق الفكر.
* أسغيلوس: (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق.م): من أوائـل المبـدعـين في الأدب المسرحي الإغريقي. إشترك في معركتي الماراثون، وسلامين، أوحى إليه النصر البحري في سلامين موضوع مسرحيته الخالدة «الفرس». كتب سبعين مسرحية، لم يرق إلينا منها إلا سبع فقط، أخرج مسرحيته الأولى وله من العمر ٢٥ عاما.
* أرسطو طاليس: (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) عُرف في التاريخ بإسم أرسطو، أعظم فلاسفة عصره، كان معلما للإسكندر الأكبر، كانت تعاليمه ردة فعل ضد المُثل الأفلاطونية، عُرف مذهبه بإسم المشائية، لأنه كان يعلم ماشيا، أنشـأ المـدرسـة الأبيقورية في أثينا، والحق بها مكتبته الشهيرة «بمكتبة أرسطو»، أو «مكتبة المدرسة الأبيقورية»، التي يقال بانتقـال مقتنياتها ـ بعد وفاته ـ إلى روما، أو إلى مكتبة الإسكندرية القديمة،(مكتبة السيرابيوم) في رواية أخرى.
* أريستوفانس (٤٤٥ ـ ٤٠٦ق.م): أشهر من كتب ملهاة في أثينا، فنان ومفكر يتعمد الاقذاع في كتاباته، شهد حرب طرواده، فكانت أشهر مسرحياته «السلم»، هاجم سقراط في مسرحية له شهيره بإسم «الغمام»، مؤلف مُكثر في إنتاجه، للأسف لم يصلنا منها إلى القليل.
* أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م): أحد ثلاثة من أعظم فلاسفة الحضارة اليونانية، لازم سقراط وتتلمذ على يديه، وصاحبه حتى النهاية، كان في الثـامنـة والعشرين عندما حُكم على معلمه بالموت، دوَّن أفكار سقراط، فصعب التمييز بين أفكار الرجلين، تخيل أفلاطون أفضل

المجتمعات وأسعدها في واحد من أشهر كتبه «الجمهورية»، تناول فيه فلسفة المجتمع المثالي الفاضل.

* سقـراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ق.م): أحـد الفـلاسفـة الثلاثة العظام في الحضـارة اليونـانية، شغف بالسياسية وعلم الأخلاق، دليله المنطق السليم، كان يفضل النظام الأرستقراطي على النظام الديمقراطي، وإن لم ينكر على الديمقراطية إتاحتها لحرية الفكر. ظل حتى موته يرفض كتابة أفكاره بنفسه، وترك ذلك لتلامذته وأتباعه. أثرى المكتبة الفكرية اليونانية بالعديد من المؤلفات التي كتبت عن لسانه، وجهت إليه في نهاية حياتـه تهم خطيرة تتعلق بالعقيدة الـدينية، وإفسـاد الشباب، أدت إلى الحكم عليه بالموت، وحكم عليه بالإعدام. جاء في حيثيات الحكم «إن سقراط مذنب عام، لأنه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها الدولة، بل يدخل فيها كائنات شيطانية، وأنه مذنب لأنه أفسد الشباب».

* سوفوكليس (٤٩٥ ـ ٤٠٦ق.م): برزسو فوكليس كمؤلف مسرحى فذ وعبقري، واستطاع أن ينافس أسخيلوس، وينتزع منه الجائزة الأولى عام ٤٦٨ق.م، كتب مائة وثماني عشرة مسرحية، ونال الجائزة الأولى على مسرح دينونيسوس ثماني عشرة مرة. أشهر مسرحياته «أوديب ملكا».

* طالـيس (٦٤٠ ـ ٥٤٦ق.م): أول البـارزين من علماء «أيونية»، ويدعى طاليس الفينيقي، لأنـه فينيقي المـولد تتلمذ على يد علماء ميلتيس ومصر، اشتغل بالعلوم الفلكية والرياضية، وجعل لهما منهجية علمية، استطاع أن يتنبأ بموعد كسوف الشمس بدقة، وطور الهندسة النظرية، وأول من كتب في علم الفيزياء.

* فيثـاغورس (٥٨٠ ـ ٥٠٠ق.م): عالم وفيلسوف ولد في ساموس، إهتم بالفلك والهندسة والرياضيات، زار مصر ودرس فيها، عاد إلى اليونان، فأنشأ مدرسة ذاع صيتها، لازالت نظرياته الهندسية تُدرس إلى يومنا هذا.

* هو ميروس (عاش ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد)، يدعى أيضـا هومير، وجومر، ويلقب بالشاعر الأعمى، من أعظم شعراء الملاحم الأغريقية، يعزي إليه كتابة الملحمتين الشهيرتين «الالياذة Ilis» و «الأدويسـة Odyssey أولهـا تحكي وقـائع حرب طرواده، وثانيهما تروي قصة انسحاب الأخيين من آسيه الصغرى، يقال أن هوميروس، لم يقم بتأليف الملحمتين، بل قام بتجميعهما من التراث اليوناني القديم، ونسقهما في ملحمتيه، وأيا كان الأمر، فقد نشأ بهذه الملاحم أول تراث أدبي لدى الأغريق فيما يتعلق بأدب الملاحم، ولم تدون الملحمتان إلا بعد فترة، بعدما قبس الأغريق أبجديتهم عن الفينيقين، وهذا ما شكك بعض المؤرخين في صحة صياغة التدوين ووصول الملاحم بصورتها الأصلية.
* هيرودتس: (٤٨٤ ـ ٤٢٥ق.م): لُقب بأبي التـاريخ، إذ أن من سبقوه في هذا المضمار كانوا أقل منه شأنا، عاش في أثينا، زار بلاد الشرق بعـد الحـرب الميدية، ثم عاد ليصنف ويؤرخ الأحـداث التاريخية. احتلت كتاباته مركزا عاليا، نظراً لسهولة أسلوبه وبساطة عرضـه، وخلطه مابين الواقع والأسطورة، يُعزي إليه الرأي القائل بانتقال الأبجدية الفينيقية إلى الحضارة الإغريقية عن طريق شخص يدعى «قـدمـوس» الفينيقي، الـذي يعتـبر أول من قدم الأبجدية الفينيقية للمجتمـع اليونـاني، وهو ـ أي هيردوتس ـ القائل العبارة الشهيرة «مصر هبة النيل».
* يوربيديرس (٤٨٠ ـ ٤٠٦ق.م): أراد أن يكون فيلسوفا، فأصبح شاعرا مسرحيا فذا، عُرف بصداقته لسقراط، بلغ مجموع ماكتبه خمس وسبعـين مسرحية، وصلنـا منهـا ثماني عشرة مسرحية كاملة. أشهر مسرحياته «آندرو ماك»

الحضارة الرومانية :

لفظة الرومان، تعني في الأصل سكان مدينة روما، ولما أصبحت روما عاصمة الدولة شملت هذه الكلمة كل سكان الدولة. ويطلق على مدينـة رومـا (وهي أصل المسمَّى للحضارة الرومانية) إسم «المدينة الخالدة». ووفقـا للروايات القـديمـة، يُعزى الى «رومولوس» تأسيس مدينة روما (حوالي ٧٥٣ق.م)، ومنه أخذت المدينة إسمها. وقد أُنشئت على ضفة نهر التيبر الشرقية، وأصبحت مركزا تجاريا تلتقي فيه شعوب اللاتين، والســابـين، والأتـروريين، وشملت رقعتهـا الجغـرافية، التلال السبعة (بالانيوس، وكابتلينوس، وكويرينا ليس، وفيمينا ليس، وأسكوبلنيوس، وكايليوس، وأفنتنيوس)، وقد حكمها ملوك من أسرة كوينيوس حتى عام ٥٠٩ق.م، ومن المرجح أن يكون قد حكمها ـ أيضا ـ ملوك أترودين، حتى طردهم الـرومان (اللاتين) عام ٥٠٠ق.م، وأسسوا الأمبراطورية الرومانية، التي انتمت إليها الحضارة التي تحمل أسمها، وعمَّرت مدة من الزمن تبلغ خمسة قرون.

كتب الرومان «بالأبجدية اللاتينية: latain Alphabet »، وتكتب من اليسار إلى اليمين، وهي فينيقية الأصل، نشأت في وقت سابق للعام ٦٠٠ق.م بقليل، ويرقى أقـدم نقش دُوِّن بها إلى القرن السابع قبل الميلاد، وكانت تتألف من (٢٣) حرفا، ولكن حرف (I) طُوِّر ـ خلال القرون الوسطى ـ فأصبح حرفين هما (I), (J) في حين طور حرف (V) فأصبـح ثلاثـة حروف، هي: (U) و (V) و (W) وهكذا أمست عدة حروفها ستة وعشرين حرفاً.

استخدم الرومان ورق البردي كوسيط كتابي، وأطلقوا عليه في صورته الخام اسم (charta) ، أما لفائف البردي فقد أطلقوا عليها اسم (Vol-umen) وكانو يكتبون عليها في وجه واحد فقط، وذلك باستخدام الأقلام المصنـوعـة من البـوص. وكـان النص يكتب في أعمدة، حيث تكون

الأسطر موازية لطول اللفة، ثم يطوى آخر فرخ من البردي حول عصاة مستديرة لها قبضتان عند طرفيها.

وكانت اللفافات تحفظ في صناديق معدنية تسمى (Capsa) ، بحيث تُصف في وضـع عمودي على الأرفف، حيث تلصق عليها قصاصات إرشادية ليسهل التعرف عليها، وكانوا يستخدمون أحيانا علب خشبية يطلق عليها (Manuale) لتحمي أطرافها من أن تُبلى عن طريق احتكاكها بالثياب الرومانية الفضفاضة، أو العباءة التي كان يرتديها مستخدموها، كما استخدم الرومان كلمة (Tomus) ، للدلالة على لفافة البردي المكونّة من سلسلة من الأجزاء.

قاد اكـتـشـاف الـرق (Parchement) حوالي ١٩٠ق.م، وشـيوع استخدامه، إلى اختراع شكل جديد تماما من الوسائط الكتابية، أُطلق عليه إسم (Codex) ، وجمعها (Codices) . وقد أُطلق إسم كودكس (Codex) ، بداية على لوحين من المعدن أو الخشب أو العاج، مربوطين معا بمفصلة ذات حلقات، حيث تُطلى جوانبها الداخلية بالشمع، ثم يكتب عليها بإبرة، والكلمة تعني أساساً كتلة الخشب، وربما أطلق عليها هذا الاسم بسبب غلافها الخشبي، ثم أُطلق الاسم فيما بعد على الكتب المصنوعة بهذا النمط من البردي والرق، ثم بعد ذلك على الكتب التي تتكون من عدة أوراق من البردي أو الرق، حتى استقر المصطلح، ليعبر عن مخطوطة الرق التي تأخذ شكل كراس أو كتاب صغير الحجم، تُكتب ـ أحيانا ـ على الوجهين لتمييزها عن لفافة الرق التي حلت محلها. ولقد أصـبحت الـ (Codex) شائعـة في الكتب القـانـونية، كما استخـدمت كمخطوطات للأعمال الدينية في روما القديمة. وكان هذا أول ظهور لوعاء معلومات أقرب في شكله إلى الكتاب. وامتاز «كتاب الرق» هذا ـ إن جاز التعبيـر ـ بخفة وزنه، وسهولة حمله، وقوة تحمله، مما مكّن المهتمين بمجال المعرفة، والثقافة، والعلوم، وخاصة رجال الدين، من حمله معهم إلى جميع أرجاء الأمبراطورية الرومانية.

وبالرغم من إختراع الـ (Codex) فإن الحضارة الرومانية كانت لا تزال بعيدة جداً عن عالم الكتـاب والمكتبـات، فإنتـاج الكتب، وإنشـاء المكتبات، يحتاج إلى بيئة إجتماعية موائمة، ومناخ فكري متطور، يساعد على قيامها وتطورها، ويتجلى ذلك في وجود علماء وفلاسفة ومفكرين، وبالتالي وجود كتابات تمثل الانتاج الفكري في شتي المجالات المعرفية، حيث يبدأ ـ عندئذ ـ التفكير في إنشاء الدور التي تحتضن بين جدرانها الكتب التي تمثل الوعاء المادي لهذا الانتاج. وهو الأمر الذي لم يكن متوافرا في بداية قيام هذه الحضارة، التي كانت منشغلة إلى حد بعيد بالفتوحات، وتوسيع رقعة الإمبراطورية، وتوطيد أركانها، وهي وإن كانت تغص في ذلـك الـوقت ـ بالقواد العظام، والأباطرة الكبار، والعقليات العسكـرية المتميزة، إلا أنها كانت تفتقـد طبقـة المفكـرين والعلماء والباحثين، ولذا ظلت الحضارة الرومانية لمئات السنين بدون أدب وفكر روماني أصيل، أو ثقافة لاتينية تنتمي إليها.

ويمكن التـأريخ للكتابات الأدبية اللاتينية بعام ٢٤٠ق.م، عندما اقتبس الشـاعـر (ليفـوس أنـدرونيكوس) بعض المسرحيات من الأدب اليوناني وترجمها إلى اللاتينية. ثم ظهر (كاتو الأكبر) (٢٣٤-١٤٩ق.م) (Cato the elder) الذي أعلن عداءه للثقافة اليونانية، وانتقد بني وطنه الذين ينقلون عن اليونان، ولذا كتب في التاريخ والزراعة بلغة لاتينية جافة، لا أثر لليونانية فيها. ولكن ما إن مات حتى اختفى تأثيره، ورجع الأدبـاء إلى التراث اليوناني ينهلون منه. وفي القرن الأول ق.م يعرف الأدب اللاتيني أعلاماً يجيدون النثر الفني مثل (شيشرون (سيشرون) Ciceron) (١٠٦ ـ ٤٣ق.م)، وشعراء عظام مثل: (كاتوليوس: Catullus) (٨٤-٥٤ق.م). ويبلغ الأدب الـرومـاني الـذروة في عصر (أغسـطس (٦٣ق.م ـ ١٤م) Augustus) فينـظم (فـيرجـل: Virgil) (٧٠-١٩ق.م) أروع المـلاحم الـلاتينية، ويجعـل (هوراس: Horace) (٦٥-٨ق.م) الشعـر الغنـائي فنـا من أرقى الفنون ثم يصاب الأدب

اللاتيني بضعف وذبول، أبتداءً من القرن الأول الميلادي، فنرى الأدباء والمفكرين يتجهون إلى تقليد أساتذتهم السابقين من اللاتين واليونان، ويزداد الأدب والفكر اللاتيني ضعفا في القرنين الثالث والرابع الميلادي. وبعـد زوال الأدب الـلاتيني الحقيقي، ظهـر الأدب المسيحي المكتوب باللاتينية، وأصبحت اللغة اللاتينية هي اللغة الأدبية التي تستخدم في جميع الأغراض، من تسجيل للوقائع التاريخية، والدفاع عن الكنيسة، وتدوين كل ما يتصل بالدين.

كانت المكتبات الخاصة الملحقة بدور علية القوم من الحكام والقادة العسكريين وصفوة المجتمع في مدينة روما، من أول أنواع المكتبات في الحضارة الرومانية. وكانت نتاجا لما جلبه القواد العسكريون من حملاتهم العسكرية، وما حمله القادة الحربيون من كتب ومخطوطات ووثائق حصلوا عليها كغنيمة حرب من الأراضي والبلدان التي فتحوها، ولعل من أشهر مجموعات الكتب والمخطوطات التي أُحضرت الى روما عن هذا الطريق، كانت مجموعة مقتنيات مكتبة أرسطو (المكتبة الأبيقورية في أثينا). وقد جلبهـا إلى رومـا القـائـد العسكـري (سـولا)، الذي اجتاح الأراضي الإغريقية واحتل أثينا عام ٨٦ق.م، واستولى على مقتنيات مكتبة أرسطو كغنيمة حرب. وقد اشتملت هذه المكتبة على مجموعات مهمة من الكتب لأرسطو وأبيلكون، وإن كانت، كما أشير في المراجع، قد تضررت ضرراً بالغا. ولذا فقد عمد القائد سولا على ترميم مقتنياتها مستعينا في ذلك بعالمين جليلين هما (نيرانيون وأندرونيكوس). وبعد وفاته، ورثها عنه إبنه (فوستوس)، ثم لاندري عنها شيئا بعد ذلك التاريخ. وذلك غير القصة المتداولة التي تؤكد شراء بطليموس الثاني لها، وضم مقتنياتها إلى مكتبة الإسكندرية في القـرن الثـالث ق.م. (وردت هذه الـرواية في مكتبة الإسكندرية، راجع المادة العلمية في الحضارة اليونانية).

هذا وقد أجمع كثير من الباحثين على أن أول من أنشأ مكتبة رومانية

خاصة، القائد العسكري (أميليوس بولس)، عام ١٦٨ق.م بعد هزيمته لملك مقدونيا (بيرسوس : Persous) في معركة بدنا، واحتلاله للعاصمة المقدونية، واستيلائه على مكتبة الملك المهزوم، ونقلها إلى روما حيث أنشأ بها مكتبته الخاصة. ومن أشهر المكتبات الخاصة ـ أيضا ـ في الحضارة الرومانية، تلك التي امتلكها المفكر الروماني الشهير (شيشرون : Cice-ron) ويقال أنه امتلك ثلاث مكتبات خاصة، في حال إقامته في روما، وأنتيوم، وتوسكاليم.

وقد كانت معظم مقتنيات المكتبات الخاصة مكتوبة باللغة اليونانية، وتمثـل الفكـر الإغـريقي والمعارف الهيلينية، مما أدى إلى سيطرة الثقافة اليونانية على المجتمع الروماني. وقد ساعد على ذلك وجود عدد كبير من العلماء والمفكرين اليونانيين الفارين من الحروب والمنازعات في الأراضي اليونانية، ولجوئهم إلى روما، حيث الأمن والاستقرار. وقد أدى تواجد هؤلاء العلماء، بجانب وجود المكتبات اليونانية، على تأصيل الفكر اليوناني في المجتمع الروماني.

يشير البحاث أن نظام التعليم الروماني، كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى ظهـور المكتبات الخاصة، كأول أنواع المكتبات في هذه الحضارة، حيث كان المنزل يُعد المدرسة الأولى لأبناء الشعب الروماني، ولذا فقد ظهرت المكتبات «المنزلية» لتلبية احتياجات العملية التعليمية «المنـزلية»، وهو عكس ماكان متبعاً في الحضارة اليونانية، حيث ارتكز نظام التعليم على «المدرسة» و «المعلم»، بجانب الحياة الاجتماعية التي يحياهـا التـلاميذ خارج بيوتهم. ولـذا نجـد، أنه بحلول القرن الأول الميلادي، وبداية انتشار الكتب وتوافرها في أسواق روما، كثُرت المكتبات الخاصة وتضخمت بشكل مُلفت للنظر.

عُرفت المكتبـات العـامة في الحضارة الرومانية، وكانت ـ غالبا ـ ما تلحق بالمعابد والأديرة بجانب المكتبات التي أنشئت في الحمامات العامة

في رومـا. أمـا تلك الملحقة بالمعابد، فقد نظمت مقتنياتها على أرفف مفتوحة أو مغلقة، في شكل لفافات أو مجلدات، ويكتب عنوان كل عمل على أوراق معلقـة وملصقـة بكل وثيقة، وكانت غرف الإطلاع واسعة وتواجه الجهة الشرقية من المبنى. وكان ذلك لعدة أسباب، منها الأسباب الـدينية، حيث أن الشرق مهـد الديانة، وأخرى عملية بحته، حيث تستقبـل الغـرف ضوء الشمس المبـاشر، ليسـاعـد على القراءة، وعلى مقاومةالرطوبة التي كانت من أخطر الآفات التي تصيب الكتب بالتلف، مما يساعد على حفظ الوثائق المقتناة.

قد تكـون الحـمامات العامة، من الأماكن غير المتوقع أن يوجد بها مكتبـات من أي نوع، وقد يكون هذا غير مقبول، بل مستهجنا من وجهة نظر الثقافة والتقاليد العربية. إلا أننا لو نظرنا الى هذه الظاهرة، من زاوية الثقـافة الرومانية، لوجدنا فيها كثيراً من المعقولية التي تتفق والحياة الاجتماعية في المجتمع الروماني. فقد كانت الحمامات العامة بمثابة منتدى يلتقي فيه الشعب الروماني. وكانت تقوم بدور «الأندية الثقافية» في المجتمعـات المعـاصرة، حيث يلتقي الشخص بأصـدقائه ومعارفه، يتحدثون ويتسامرون، ويتبادلون الآراء والأفكار، ويعقدون الصفقات، ـ وأيضا ـ المؤامرات السياسية. ولذا فقد كانوا يهتمون بها ويزودونها بكل وسائل الراحة والترفيه والتسلية، ومنها مجموعات الكتب والمخطوطات التي كانت توضـع في حجـرات ملحقة بالحمامات، حيث يُشبع فيها الرواد إحتياجـاتهم الثقـافية والأدبية والعلمية، كما تستخـدم كأمـاكن خاصة للاجتـماعـات واللقاءات والندوات الفكرية. ومن أشهر الحمامات التي قدمت هذا النوع من الخدمات حمام كراكلا بروما.

يشار ـ في المراجع ـ دائما إلى يوليوس قيصر (١٠٠ـ٤٤ق.م) كأول من فكـر في إنشـاء مكتبة عامة في روما، وذلك بمساعدة (فارو: Varro) (١١٦ـ٢٧ق.م)، أشهر علماء الرومان في عصره، واكثرهم علماً ومعرفة، والذي عينه يوليوس قيصر ليكون مسئولا عن هذه المكتبة. ولسوء الحظ،

قُتل قيصر في حادثة الإغتيال الشهيرة في تاريخ مجلس الشيوخ الروماني، وبـذا انتهى مشروع المكتبة قبل أن تُقطف ثماره. ويرجع الفضل الى (أثينـوس يوليو) (٧٥ق.مـ٥م) بإنشـاء أول مكتبةعامة بروما، في عهد الأمـبراطور أغسطس (٦٣ق.مـ١٤م). وقد ألحقت «بمعبد الحرية» في قلب روما. وكان نواة هذه المكتبة، مجموعة الكتب التي استولى عليها يوليو خلال حربه مع البارثنيين، وتغلبه عليهم عام ٣٩ق.م، وتشير الكتابات القديمة، أنه بحلول القرن الرابع الميلادي، كان يوجد بروما ـ وحدها ـ ما يقـارب (٢٨) مكتبـة، تحوي بين جدرانها آلاف المجلدات، يقـوم بالعناية بها وتسييرها، موظفون مختصون، هم خليط من السادة والعبيد. وكان الاستنساخ ونقل المخطوطات جزءاً من عملهم بالمكتبة.

أمـا أشهر مكتبات الحضارة الرومانية ـ على الأطلاق ـ فهي مكتبة (البيا: ULPIA) وقـد أُنشـأ مشروع هذه المكتبـة، ونُفِّـذ بمبـادرة من الأمـبراطور الروماني (تراجان) (٥٣ـ١١٣م) Tyajan وتذكر المراجع أنها أنشئت عام ١٠٠م، وقد اختار (تراجان) مدينة روما لتكون مقرا لها، ولم يبخل بمال أو بجهد في سبيل بنائها وتجهيزها، وقد زينت جدرانها بتـماثيل نصفية لعلماء وكُتـاب مشـاهير. وكانت أروقتها الفسيحة مليئة بالمجلدات والكتب والمخطوطات، التي تمثل الأدب اللاتيني والإغريقي على حد سواء. وفي هذا الصدد تذكر أيضا المكتبةالتي أنشأها الأمبراطور (هـاريدان) الـذي حكم خلال الفـترة من (١١٧ ـ ١٣٨م)، وقد قام بإنشائها في روما في العام الأول من حكمه (١١٧م)، وعلى نهر التيبر، وصممها على غرار المكتبات اليونانية. كما قام (هاريدان) ـ أيضا ـ بإنشاء مكتبة عامة في أثينا. وخلال فترة حكمه التي استمرت ثمانية وعشرين عامـا، قام هذا الأمـبراطـور بإنشاء عدد من المكتبات العامة في مدن (برنجاموم)، و(أيفسوس) من مدن آسيا الصغرى، كما عمل على إصلاح وترميم العديد من المكتبات في روما، وباقي المدن الكبرى في الأمبراطورية.

ترجع أهمية مكتبة (هيركو لانوم)، المدينة الإيطالية التي دمرها بركان فيزوف عام ٧٠م، إلى كونها اكتُشفت في مكانها الأصلي، بدون أضرار تذكر على محتوياتها، حيث أنها غُطيت بطبقة كثيفة من الرماد والحمم البركانية التي حفظتها مئات الأعوام حتى تم الكشف عنها في القرن الثامن عشر. وقد عثر فيها على كثير من الوثائق والملفات، يقدر عددها بـ ٣٠٠٠ وثيقة، وهناك من يصنفها كمكتبة عامة. وآخرون ـ وهو الرأي الأرجح ـ يقولون بأنها كانت مكتبة خاصة لشخص يدعى (ل. إ بيسو L.e Piso) ، وقد كانت معظم مقتنياتها مكتوبة باللغة اليونانية والإغريقية، مع وجود بعض الوثائق باللغة اللاتينية.

* لم تكن العوامل الطبيعية، هي العدو الوحيد للكتب والمكتبات في الحضارة الرومانية، فالبرابرة والتدمير والسرقات، والتعصب الديني، لعبت دورا أشد خطورة، كمعاول هدم لمكتبات هذه الحضارة. عند بداية تدهور وسقوط الأمبراطورية الرومانية حوالي عام ٣٧٨م، قال المؤرخ الروماني (أميانوس مارسلينوس: Ammianus Marcellinus) مقولته الشهيرة «إن المكتبات تغلق للأبد مثل المقابر»، كانت هذه المقولة معبرة تماما عن الأحوال الثقافية والتعليمية بصفة عامة في الإمبراطورية الرومانية، وتصف بدقة تردِّي الأحوال في شتى مناحي الحياة الفكرية والعلمية في البلاد، والتي استمرت في التدهور، نتيجة للإرهاب الديني، والحجر على الأفكار والوسائل التعسفية التي اتخذتها المسيحية ضد كل الإبداعات الفكرية والتطورات الحضارية التي تساعد على نمو المجتمعات ورقيها.

ومن أمثلة تلك الظواهر السلبية، ما قام به الأمبراطور الروماني (تيودورسيوس الأكبر: Theodosius I the Great) (٣٤٧ ـ ٣٩٥)، من إغلاق للمعابد اليونانية ومكتباتها، على زعم أنها مؤسسات وثنية، ويذكر له في هذا الصدد، دوره في تدمير مكتبة السيرابيوم بالإسكندرية التي هُدمت، ودُمرت في عهده، بإيعاز من بطريرك الإسكندرية نيوفيلس، عام ٣٩١. وكان ذلك إبان الحملة المسيحية الكبرى، ضد الرموز الثقافية

اليونانية (الوثنية)، حيث قام نيوفيلس وأتباعه بهدم معبد الاله سيرابيس المقام في حي الراقودة الشعبي بمدينة الأسكندرية، ودمروا بالتالي المكتبة الملتحقة به، والتي كانت تحتوي على مايقرب من (٣٠٠)الف مخطوطة ولفـة بردي، هي حصـاد السنـين، ومـا تبقى من مكتبة الاسكندرية الكـبرى. كما كان لاجتياح القبـائـل الجـرمانية من القوطيين (Goths) والوندال (Vandal) للأمبراطورية الرومانية واحتلالهم لروما ونهبها، حوالي عام ٤٥٥م، آثار سلبية على مكتبات الحضارة الرومانية، حيث قامت هذه القبـائل البربرية بتخريب آخر ماتبقي من مكتبات روما ودمروها تماما. ويرجع الفضل في نجاة العديد من المخطوطات وبقائها إلى طبقة الرهبان والقساوسة الذين عمدوا إلى إخفاء الكثير من الوثائق في مخابي سرية في أديرتهـم، ومن ثم قامـوا بنسخهـا ـ في وقت لاحق ـ في ورش استنســاخ كانت ملحقــة بالمعـابـد سميت بـ (Scriptona) واحتفـظوا بمستنسخاتهم، حتى أمكن الاستفادة منها في فترات لاحقة.

قليل من الكنــائس المسيحية ـ في ذلـك الـوقت ـ كان ملحقـا بها مكتبـات، من أمثلتها، كنيسة (نولا Nola) في جنوب إيطاليا، وبعض كنــائس بيت المقــدس (Jerusalem) في الشرق، ولكن مقتنيات هذه المكتبـات لم تكن تمثـل مجموعات كبيرة، وكانت تحتوي على قليل من الكتب والمجلدات المخـطوطـة. وقد ألحق المسيحيون الأوائل حجرات خاصة للاطلاع بمكتباتهم، أُطلق عليها اسم (Secereta). وعن طريق مكتبات الكنائس، تم حفظ الكثير من المخطوطات والكتب التي تمثل الأدب الروماني المسيحي. أما الإنتاج الفكري اليوناني، فقد تم تدمير معـظمه، بعد انتشار المسيحية وسيطرتها على الدولة، وتم إهمال أعمال الأدبـاء اليونـانيين (الـوثنيين) تماما، وكان ذلك سبباً في اختفاء معظم الأصـول الكلاسيكية للأدب الغربي، التي تلاشت خلال تلك الحقبة الزمنية ولم تظهر إلى الوجود مرة أخرى.

وبـالرغم من هذه الحالة المتردية في الأمبراطورية الرومانية الغربية،

كانت هنــالــك حركــة علمية وثقـافية نشـطة في الجـزء الشرقي من الإمبراطورية. وتزعمت مدينة (القسطنطينية: Constantinple) (حاليا: أسـطنبـول، بتركيا) هذه الحركة، وكانت القسطنطينية في ذلك الوقت عاصمـة الامـبراطـورية البيزنـطية، أو مايعـرف بالأمبراطورية الرومانية الشرقية. يرجع الفضل لهذه الحركة الثقافية العلمية التي قامت في هذا الجـزء من الإمـبراطورية في الربط ما بين المعطيات الحضارية القديمة والجـديدة في أوربـا. وبـألفاظ أخرى، في التواصل الحضاري ما بين الحديث والقديم للحضارة الأوربية. ويعطينا التاريخ مثالان على هذه الحركة العلمية الدءوب، بقيام مجموعة من علماء القانون في القسطنطينية في عام ٥٠٠م، بوضـع لوائح قوانين عُرفت بإسم (Justinion Code) ، تلك اللوائح القانونية الرومانية التي لا تزال تُعد من أهم اللوائح القانونية التي وضعت في العالم الى وقتنا هذا. وتؤكد المصادر بأن هذه المجموعة القانونية من العلماء، استفادت إلى حد بعيد من المكتبات المتطورة التي كانت قائمة على تقديم خدماتها في مدينة القسطنطينية، كما أنه في عام ٩٠٠م خرجت إلى النور الموسوعة العلمية المعروفة بإسم (Suidas) ، التي حوت على معارف العصر. وكان ذلك بفضل جهود العلماء البيزنطنيين بجـانب توافـر المصـادر المعـرفية في المكتبات المزدهرة في هذه الحضارة الرومانية الشرقية. ولكن بحلول عام ١٤٥٣م، انتهت كل آثار المكتبات التي كانت منتشرة في مدينة القسطنطينية وذلك بعد عدة أحداث مؤسفة، جلبت الدمار للمدينة،بدأت باجتياح الحملات الصليبية لها في بداية القرن الثالث عشر (١٢٠٥م)، ثم خلال استعادة الجيوش التركية لها عن طريق الحرب أيضا، عام ١٤٥٣م.

ويمكن تلخيص، خصـائص الحضـارة الرومانية فيما يتعلق بتاريخ الكتابة والكتب والمكتبات في النقاط التالية:

١ ـ أقـدم مخطوطـات هذه الحضـارة ترجـع إلى القرن الثاني الميلادي (مخطوطة ريلاند Rayland)

٢ ـ تأثرت الحضارة الرومانية بالرموز الفكرية في الحضارة اليونانية، وتعد ناقلة لها في كثير من الملامح الثقافية.

٣ ـ كثـرةالمكتبـات الخـاصـة، وتفوق أعدادها، مقارنة مع باقي أنواع المكتبات في المجتمع.

٤ ـ لم تبلغ المكتبات في الحضارة الرومانية الغربية، مكانة عالية، بسبب عدم ارتبـاطها بمؤسسات تعليمية كبيرة، أو بعلماء بارزين ، كما حدث مع الحضارات التي سبقتها (اليونانية).

٥ ـ افتقدت الكتابات في الحضارة الرومانية الغربية، الكثير من الملامح الابداعية التي اتصفت بها الحضارت الكبيرة، وذلك لقصور دور المكتبــات بها، فلم يوجـد بها مكتبـات تقـوم بتحقيق او فحص للتراث، أو ابتكار وسائل الاستفادة منه، وانحصر دورها في جمع التراث وحفظه.

٦ ـ ظهور شكل جديد للكتاب لم يكن معروفا من قبل (Codex) .

ومن شخصيات الحضارة الرومانية:

* شيشرون (سسيسرون)، ماركوس توليوس (١٠٦ـ٤٣ق.م) Ciceron, Marcus Tullius من أشهر الكتاب الرومان، خطيب، وكاتب ومحامي وسياسي روماني، ولد في (أربنيم ARPINOM) ، بأقليم (لاتيوم: LATIUM ، عُرف بموقفه العدائي من قيصر، وبومبي، وكراسوس، نُفي فى عهد (كلوديوس). عاش في سالونيكا (٥٨ق.م)، عاد الى روما في العالم التالي، وانصرف إلى الكتابة والتأليف. يمكن تقسيم مؤلفاته إلى أربعة أقسام:

١ ـ الخطب؛ من بينها: الدعوى على مزيس»، «ضد كانيلينا»، «الدفاع عن قانون مانيلوس» «ضد ماركوس أنطونيوس»

٢ ـ الرسائل؛ من بينها: «رسائل الى أتيكوس»، «رسائل الى الأصدقاء».

٣ ـ المقـالات الفلسفية والسياسية من بينهـا، «القـوانـين»، «الدولة»، «بحوث في الشيخوخة»، «الصداقة» «طبيعة الإله»، و «القدر».
٤ ـ البحوث البلاغية؛ ومن بينها: «الخطيب»، و «بروتس».
كان يمتلك ثلاث مكتبـات خاصـة واحـدة في روما، وأخرى في انتيوم، وثالثة في توسكاليم.

* والشخصية الأخرى، هي (فيرجل، بوبيلوس مارو (٧٠ـ١٩ق.م) (Vergil (Virgil), Publius Vergilius Maro شاعر روماني، يعد كبير شعـراء الـرومان بلا منازع، درس الطب والرياضيات والبلاغة في روما، ودرس الفلسفة في بابولي، توفي متأثرا بحمى أصابته خلال زيارتــه الى اليونـان، أشهـر آثـاره (الأنيادة: :Aeneid) التي تروى مغامرات (أينياس: :Aeneas) بعد سقوط طرواده.

الحضارة الإسلامية :

عاش العرب في جزيرتهم قبل الإسـلام بدون كتب أو مكتبات. وكـانت النقـوش التي وجدت على بعض الأحجار، خاصة عند عرب الجنوب، من الندرة بحيث لا تعطي تصوراً كاملاً عن مقومات حضارة ما في تلك الجزيرة التي عاشوا فيها في شبه عزلة عن العالم الخارجي. نعم، كانت هناك إتصالات بينهم وبين الأحباش في الجنوب الغربي، وبينهم وبين الفرس في الشمال الشرقي، وبينهم وبين الروم البيزنطيين في الشمال. ولكن هذه الإتصالات لم تَرْق أبداً إلى التأثر بما يجري هناك والاقتباس مما عند الآخرين. ولم تَرْقَ تلك الاتصالات أيضا إلى تغيُّر في العقلية، أو حتى إلى تحفُّز للتغيير.

وإذا كان العـرب قد عاشـوا قبـل الإسـلام بدون التسجيلات والتدوينات، وبدون الكتب والمكتبات، فليس معنى ذلك أنهم عاشوا بدون المعلومات، فقد كانت معارفهم بسيطة تتناسب مع حياتهم البدوية المتنقلة، فكـانـوا يُعنـون بأنسابهم ووقائعهم وحروبهم وأيامهم، وكانوا يردِّدُون كثيراً من الأساطير، وكان إنشاد الشعر هو أساس ثقافتهم، فقد كانت لهم أسـواقهم المـوسمية التي يجتمعـون بها فيتقـارضون الأشعار ويقصُّون الأسمار ويمارسون بعض الكهانة والعرافة، وكان من أشهر هذه الأسواق عكاظ والمجنة وذو المجاز. وبذلك كانت ثقافتهم ثقافة بدائية تعتمد على المشافهة والذاكرة، وليس على التدوين والكتاب. ومن هنا كان وجـود السجـلات المكتـوبة أمراً يكاد يكون مستحيلا، فانعدمت الكتب والمكتبات، وانعدم الفكر، حتى جاء الإسلام.

وبالإسلام، ومع الإسلام إنساح العرب من جزيرتهم إلى بلاد الهلال الخصيب، وبلاد الرافدين وفارس، ومصر، وبرقة، ثم إلى شمال أفريقية بكامله وبلاد الأندلس غرباً، وإلى بلاد السند وما وراء النهر وحدود الهند والصين شرقا. وما أن خرج الإسلام من عمق الجزيرة العربية، حتى بدأت في الحال أكبر عملية تزاوج فكري في تاريخ البشرية، إنها عملية

الامتزاج بين فكر الإسلام الذي حمله العرب، وبين ثقافات الشعوب التي اعتنقت هذا الـدين الحنيف. ولقـد كانت عملية التزاوج هذه، أوسع إنطلاقة فكرية عمّت البيئة الجديدة التي أوجدها الإسلام، فقد صبغ الحياة الفكرية والاجتماعية فيها بالصبغة الإسلامية. إذ ما لبثت الأقطار التي دخلهـا الإسلام أن شرعت تمد الفكر الإسلامي بفيض غزير مما كانت تحتفظ به من علوم وفنون وحكمة ونُظم، مما لم يألفه العرب في جزيرتهم قبـل ظهـور الإسـلام. ظهـرت الحضارة الإسلامية بعد هذا التزاوج الفكري، وظهر الإهتمام بالكتب والمكتبات التي هي قصدنا من هذه الدراسة السريعة عن الحضارة الإسلامية.

ولأغراض هذه الدراسة السريعة، سنبحثها في العصور التي تعارف عليها مؤرخو هذه الحضارة: عصر صدر الإسلام، ويشمل فترة النبوة والخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموي، ويشمل الخلافة الأموية كلها حيث كانت عاصمتها دمشق، ثم العصر العباسي حيث كانت عاصمته بغداد، ثم نختار بعض المراكز الثقافية المهمة في العصور المتأخرة، مثل القاهرة في الدولة الفاطمية، أو المراكز الثقافية التي انتشرت في الأندلس أبّان إزدهار الحضارة الإسلامية هناك.

عصـر صـدر الإسـلام:

كما ذكرنـا في الفقـرات السـابقـة، عاش العرب في جزيرتهم قبل الإسلام، وهم في شبه عزلة عن العالم الخارجي. وكان العرب في ذلك الوقت أمة أقرب إلى أن تكون أمة شفاهية منها إلى أمة تهتم بالتسجيل والنقش، كما كان يحدث في الحضارة المصرية القديمة، حين سجلوا كثيرا من المعلومات على جدران المعابد والمقابر وسفوح الجبال والمسلات، أو كما كان يحدث في حضارات مابين الرافدين حين سجلوا كثيرا من المعلومات في الألواح الطينية. ولربما كان ذلك راجعا إلى انتشار الأمية بينهم، حتى أنه عندما بزغ فجر الإسلام في مكة المكرمة لم يكن في قريش من يحسن القراءة والكتابة سوى بضعة عشر نفراً.

جاء الإسلام، وافتتح الحق جل وعلا وحيه للرسول الكريم بقوله: **﴿إقـرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾**. (سورة العلق: الآيات من ١ ـ ٥). وفي هذا تشريف وتعـظيم لكـل من قرأ، وتعلّم وعلّم، أو أمسـك قلماً. والآيات الكـريمـة التي تحث على العلم، والأحـاديث الشريفـة التي تحض على التعلم كثـيرة جداً. ولا مجال لاستقصائها، فالكل يعرفها، وليس من مقاصد هذا الكتاب استقصاؤها.

كان القـرآن الكـريم هو الكتاب الوحيد عند المسلمين في عصر صدر الإسلام. ومن المعلوم أن المسلمين في عصر صدر الإسلام كانوا يعتمدون على الذاكرة في حفظ آيات الله البينات، وإن وجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة الذين سجلوا أقساماً متفرقة من القرآن الكـريم على سعف النخيل أو رقـائق الحجارة أو اللحاء العريضة أو ماشابهها من المواد، ولكن التسجيل أو التدوين الكامل لكتاب الله ـ عز وجل ـ تم بعد حروب الردة في عهد أبي بكر رضي الله عنه، عندما خاف على القرآن الكريم من الضياع عندما استمر القتل في الصحابة وخاصة القـراء منهم أثنـاء حروب الـردة. وقـد استشار أبوبكر رضي الله عنه الصحابة في ذلك، فوافقوا وتولى هذا الأمر مجموعة من الصحابة على رأسهم شيخ القـراء زيد بن ثابت. ولما أتي الخليفة الثالث عثمان بن عفـان، ورأي اختلاف الأمصار في قراءة القرآن، أمر باستنساخ نسخ رسمية من القرآن الكريم وتوزيعها على الأمصار حتى لا يحدث اختلاف في القـراءات بين المسلمين، وقيل أن الاستنساخ كان على رق لطول بقائه، أو لأنه كان الموجود عندهم حينئذ.

بعـد تدوين القـرآن الكـريم في المصـاحف، وبعـد انسياح العرب المسلمين في أمصار الفتح الإسلامي، بدءاً من عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ قل اعتماد العرب المسلمين على الذاكرة،

وازداد اعتمادهم على الكلمة المكتوبة، واحتكوا بالحضارات الأخرى، وبدأت عملية التزاوج الحضاري. وعندها وجد العرب المسلمون أنه من المستحيل الاعتماد على الذاكرة والمشافهة كدأبهم قبل الإسلام، فبدأ التدوين على استحياء في عصر صدر الإسلام، ثم بدأ بقوة في العصر الأموي، وانطلق في العصر العباسي، مما سيرد تفصيله فيما بعد. إذن كان اهتمام المسلمين في عصر صدر الإسلام منصبا على كتاب الله عز وجل، وكانوا يكرهون تسجيل أي شيء غيره حتى الحديث الشريف لئلا يختلط بكتاب الله. فقد كان القرآن الكريم هو الكتاب الذي استحوذ على كل إهتمامهم، فيه العقيدة وفيه العلم وفيه المعرفة «وفيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم». ولم يبدأ الاهتمام الحقيقي بغيره من العلوم إلا في العصر الأموي.

العصر الأمــوي:

يصف بعض المؤرخين العصر الأموي بالجدب في النواحي العلمية، ولا سيما إذا ما قورن بالعصر العبــاسي. والحقيقـة أن بدايات العلوم وبـدايات التدوين كانت في العصر الأموي، فقد بدأ في ذلك العصر تدوين الحديث الشريف للحاجة العلمية إليه - باعتباره الأصل الثاني للتشريع الإسـلامي - بعد امتداد الامبراطورية الإسلامية وتعقد الحياة الإسلامية وتنوعها. وقد قادت الرغبة في ضبط الحديث وضبط رواته إلى العنـاية بالسير والتراجم، وأدت الرغبة في اظهار الأحكام الشرعية إلى بدايات تسجيل سيرة الـرسول صلى الله عليه وسلم وتسجيل مغازيه، وبذلك نشأت البذور الأولى لعلم التاريخ على يد المحدثين، ذلك أننا لانستطيع أن نقطع بصحة حديث أو عدم صحته من مضمونه، وإنما الاعتماد على الرواة ومقدار حظهم من الصدق. ومن هنا تتبع المحدثون سير هؤلاء الرواة، وتعرَّفوا على حياتهم، ومقدار صدقهم... وهذه هي مهمـة التـاريخ. ولعـل أهـم محدِّث وعالم اهتم بتدوين سيرة الرسول وأحاديثه - في العصر الأموي - هو عروة بن الزبير المتوفي سنة (٧١٢)م،

فهو أول من استخدم الأحاديث الشريفة في تدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويعتبر عروة من علماء المدينة الثقات الذي كانت لديه مكتبة خاصة يستعين بها في مؤلفاته.

لا نستطيع أن نترك العصر الأموي دون الحديث عن خالد بن يزيد إبن معاوية الذي كانت له اليد الطولى ـ في ذلك العصر ـ بالاهتمام بنقل الكتب من اللغـات الأجنبية إلى اللغة العربية، ذلك أنه أوجد البذرة الأولى فيما يمكن أن نسميه أول مكتبة علمية خاصة في الإسلام، إذ أمر بإحضـار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون بمصر ويعرفون العـربية، ودعـاهم إلى نقل الكتب العلمية (كتب الصنعة) من اللغة اليونانية واللغة القبطية المصرية القديمة إلى اللغة العربية. وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

هذه صورة سريعـة عن الحياة الثقافية في العصر الأموي سواءً بالنسبة للدراسـات الفقهية، والسـيرة، وعلوم الحـديث التي نستطيع أن نأخذ لها نموذجا «عروة بن الزبير»، أما بالنسبة للدراسات العلمية (كتب الصنعة) فنستـطيع أن نأخـذ لها نمـوذجـا ما أمر به «خالد بن يزيد بن معاوية». فماذا عن الكتب والمكتبات؟ لا نستطيع أن نتصور نشاط «عروة» أو نشاط «خـالـد» بدون كتب ومكتبات. ومن الطبيعي أن نكون حذرين عند استعـمال كلمـة «كتب» وكلمـة «مكتبـات» هنـا، فليس المقصـود هنا بالكتب، الكتب الفخمة التي تبحث الموضوع من جميع جوانبه، وبشيء من التفصيل كما هو الحال في أيامنا مثلا، ولكن ينبغي أن نعرف أن قسما كبيرا من الكتب التي يرد ذكرها هي إما رسائل صغيرة تبحث في موضوع معين، أو أمالي مختصرة أو محاضرات أو ملاحظات على موضوع معين، مع العلم أنه لابد وأن يكون بعضها كتبا حقيقية بالمعنى المفهوم من كلمة كتب. وليس المقصود بالمكتبات كذلك المفهوم المتعارف عليه للمكتبة في عصرنـا الحـاضر، إنما هي مجموعة من الكتب والرسائل يعني بها أحد المهتمين بالمعرفة مثل «عروة» أو «خالدا» وهي بذلك تشبه المكتبة الخاصة

في أبسط صورها. وبذلك لا نستطيع تصور هذا العصر دون أن يكون لعروة بن الزبير، وهو أحد العلماء السبعة الثقات في المدينة المنورة، مكتبة خاصة به. ودون أن يكون لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو المهتم بنقل معارف اليونانيين من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، مكتبة خاصة به. وذلك بمفهوم المكتبات في ذلك العصر.

ونستطيع أن نجمل عصر بنى أمية في أنه قد وضعت فيه جميع البذور الأولى للحضارة الإسلامية والكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية. فقد دُوِّن فيه القرآن الكريم ووزع على الأمصار، وبدأ فيه جمع الحديث الشريف، وبدأ النقل من اليونانية والقبطية، بل والفارسية إلى العربية. وبدأت الدراسات الإسلامية الفقهية المستندة إلى الحديث الشريف في الظهور، وجمعت فيه الأنساب والأشعار، وظهرت فيه المكتبات الخاصة، وافتتح عهد تدوين وتسجيل الحوادث التاريخية وكتابة التاريخ لاسيما المغازي والسيرة النبوية. بل تأسست فيه أول مكتبة أكاديمية على يد خالد بن يزيد بن معاوية في المركز الذي أوجده من أجل النقل والتعريب. ومن هذا نرى أن العصر الأموي كان له دور الحضانة في الحضارة الإسلامية، التي انطلقت بكتبها ومكتباتها في العصر العباسي.

العصر العباسي:

يرى بعض المؤرخين أن نهاية الدولة الأموية في دمشق وبداية الدولة العباسية في بغداد يعتبر حدا فاصلاً بين عهدين لكل منهما مميزاته الخاصة به والتي قد تتناقض مع الآخر. قد يكون ذلك صحيحا من وجهة النظر السياسية، ولكنه لا يعني شيئا من وجهة النظر الثقافية التي تُعتبر «الكتب والمكتبات» أحد أعمدتها الرئيسية. قد يوجد في السياسة يوم فاصل يحل فيه نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد. ولكن مثل هذا اليوم لا يوجد في الحياة الثقافية، إذ أن نشوءها ونموَّها وازدهارها وانهيارها ما هو إلا نتيجة تطور بطيء يحتاج إلى فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر. لذلك فإن هذا العصر يُعتبر استمراراً لسابقه، نضجت فيه الأمور بشكل أكثر،

وظهـرت فيه بوادر الحضـارة الإسلامية بشكل أوضح. وبدأت البذور الأولى التي نبتت في العصر الأموي في الظهور، بل والإثمار.

نستطيع أن نقسم العصر العباسي، من وجهة نظر الكتب والمكتبات والترجمة والتأليف، إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى ماقبل هارون الرشيد والمـأمـون، والمـرحلة الثانية مرحلة الرشيد والمأمون والبرامكة، والمرحلة الثـالثـة ما بعـد المأمون. وينبغي القول أن الترجمة والتأليف، وبالتالي الكتب والمكتبـات قد ازدهـرت في هذه المراحل أيما ازدهار، فقد سار التأليف الأصيل جنبا إلى جنب مع النقل والتعريب، فقد زخُر العصر بالعلماء الأعـلام الذين ألفوا في مختلف العلوم، إذ قام الامام مالك بتأليف كتابه (الموطأ) في مطالع هذا العصر، كما شهد هذا العصر ازدهار الدراسات الإسلامية ونشوء المذاهب الفقهية، وتدوين الحديث، وبداية التـأليف في التـاريخ، ففيه ألف الإمام الشافعي كتبه الفقهية، وألف الجاحظ كتبه الأدبية والعقلية، وفيه نشطت الدراسات اللغوية.

في مرحلة ماقبل الرشيد والمأمون، تابع الخليفة الثاني «المنصور» ما بدأه خالد بن يزيد بن معاوية في بدايات العصر الأموي عملية نقل التراث الأجنبي، وخـاصـة اليونـاني والفارسي، إلى اللغة العربية، فنقل «ابن المقفع» كتاب «كليلة ودمنة» من اللغة الفهلوية إلى العربية، كما احتضن «المنصور» علم الطب فكلّف طبيبه «جورجيوس بن جبرائيل» بنقل كثير من كتب الطب اليونانية إلى العربية. ورغم أن «بيت الحكمة»، الذي سنُفـرد له فقـرات خاصـة، يُنسب إلى المـأمـون كمؤسس لهذه المكتبة العظيمة، بل هذه الأكاديمية الفريدة في عصرها، إلا أنه يبدو في بعض المصادر التاريخية الموثوق بها، أنها بدأت في زمن الرشيد.

كانت المرحلة الثانية في العصر العباسي ـ مرحلة الرشيد والمأمون ـ هي المـرحلة الـذهبية للنقل من سائر اللغات إلى اللغة العربية، ذلك أن التعـريب في زمـانهما أصبح عملا رسمياً تتولاه الدولة وتنفق عليه من موازنتهـا، وتحشـد له أعـظم المـترجمين والعلماء والمفكرين، وتؤسس له

المؤسسات العلمية، ويُرتحل في طلب الكتب العلمية والفلسفية والطبية، ويراسل الملوك والحكام من أجلها. وقد أسس الخليفة هارون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذا العمل الجليل، وهي مؤسسة كان عملها أول الأمر مركزا للترجمة، ثم تطورت زمن المأمون وأصبحت مؤسسة علمية من الطراز الأول، همها ترقية البحث والتأليف. ويمكننا القول أن هذه المؤسسة المسماة بـ «بيت الحكمة» قد أصبحت زمن المأمون أكاديمية بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة تحوي أماكن للدرس، وأماكن لخزن الكتب، وأماكن للترجمة، وأماكن للتأليف، إلى جانب أدوات البحث العلمي كالمرصد الفلكي وغيره. وتستحق هذه المكتبة أو هذه الأكاديمية أن نفرد لها دراسة سريعة في بضع فقرات.

بيت الحكمة «بغداد»

سميت بيت الحكمة أو خزانة الحكمة، ولم تُسمَّ بخزانة الكتب، وذلك للإشارة إلى طبيعة العمل الذي كان يجري بداخلها وطبيعة الكتب التي تجمع فيها أو التي تُعرَّب لها، إذ أن «الحكمة» كانت مرادفة للفلسفة، وخاصة الفلسفة اليونانية، ويقصد بالفلسفة المعنى العام الفضفاض الذي يشمل، عدا مباحث الفلسفة المعروفة، الطب، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والمنطق.. وهذا يدل على الاتجاه العقلي لمؤسس هذه المكتبة أو الأكاديمية، وعلى التيار الثقافي الذي كان غالبا آنذاك.

كان بيت الحكمة مقسماً إلى عدد من الأقسام والقاعات والغرف، وكانت المكتبة هي أكبر أقسام بيت الحكمة، فقد كانت بجوار غرف التدريس، وبها قائمة واسعة مخصصة لإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات العلمية، وفي هذه القاعة كان النقاش والجدل يُطرح علانية، وبمنتهى الحرية، حول شتي الموضوعات المختلفة بما في ذلك الموضوعات التي تخص العقيدة الاسلامية. ومن الغريب أنه قد خصص في هذه المكتبة غرفة خاصة معدة للاستراحة يؤمها الباحثون والمطالعون والدارسون والعاملون

بالمكتبـة، ليسـتريحـوا فيها من عناء العمل، ولكي يستمعوا إلى بعض الأنغام الموسيقية التي يعزفها عازفون في القاعة نفسها.

أفردت في بيت الحكمة غرف للمترجمين، وأخرى لمراجعي الترجمة، في حين تقـوم غرف خاصـة بالنسّـاخـين الذي يقومون بنسخ الكتب إما لأنفسهـم، أو لحساب الغير، كذلك توجد غرف معدّة للمجلدين الذين يتولون تجليد كل كتاب يدخل المكتبة، هذا بالاضافة إلى الغرف المهيأة للوراقين وخازني الكتب والمناولين، الذين ينقلون الكتب من الرفوف إلى المطالعين والنساخ والمجلّدين وماسواهم.

كان يتم تزويد المكتبة بالكتب مما جمعه الرشيد و المأمون من خزائن الكتب القديمة التي جُلبت من الأقطار الأخرى. فكانت هذه الكتب تجلب من آسيا الصغرى، ومن الهند، وإيران، وجزيرة قبرص، بالاضافة إلى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة. وكـانت أول مجمـوعـة من الكتب العلمية باللغات اليونانية والسريانية ضمت إلى بيت الحكمة، هي الكتب التي استجلبها الرشيد من عمورية وأنقرة. وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص، ومن القسطنطينية، ومن أصفهان. وإلى جانب نفائس الكتب، كان بيت الحكمة يضم مجموعة من الخرائط والمصورات البلدانية.

إهتم المسئولون عن بيت الحكمة. بتنظيم الكتب داخل دواليبها أو أرففها، وأغـلب الـظن أنها كانـت مصـنـفـة بطريقـة ما حسب اللغـات، بحيث يسهـل تنـاولهـا واستعـمالها من قبل الباحثين والدارسين، وكانت هناك فهارس مكتوبة في مجلدات يرجع إليها المطالع أو الباحث من أجل معرفة محتويات المكتبة. يدلنا على ذلك قصة يذكرها محمد كردي على في كتابة «رسائل البلغاء»، هي أن المأمون قال للحسين بن سهل (خازن المكتبة) يومـا: أي كتب العجم أشرف، فذكر له مجموعة منها، ثم قال كتاب «يتيمة السلطان» فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه، فلم ير لهذا الكتاب ذكراً، فقال كيف سقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟ إذن كانت

هناك فهارس. ولقد كانت الفهارس على نوعين: إما مكتوبة في مجلدات، وإمـا أن تكـون أسماء الكتب والمؤلفين مكتوبة على لائحة معلقة على مدخل كل قسم من الأقسام.

كانت المكتبـة مفتـوحـة للبـاحثـين والدارسين والمطالعين، وكان في استـطاعـة أي باحث أن يستعير الكتاب استعارة داخلية، وأن يستعير الكتـاب استعـارة خارجية بشروط. ويكفي أن نقول أن «الخوارزمي» إستطاع، بما اطلع عليه من الكتب المحفوظة في هذه المكتبة، أن يضع كتبه الـرياضية الشهـيرة، وأن يضـع «الأصمعي» اللغـوي الشهـير كتابا عن تاريخ الملوك الغابرين، كما وضع «الفراء» العالم النحوي المعروف كتابه في أصـول النحو. وفي بيت الحكمة وضع «إبن النديم» كتابه الشهير «الفهـرست»، وكتب «المسعـودي» المؤرخ «مـروج الذهـب». وفي بيت الحكمة أيضا وضع «حمزة الأصفهاني كتابه «تاريخ الملوك والأنبياء» معتمداً على المصادر التي توفرت في تلك المكتبة.

ضعف الاهتمام ببيت الحكمة بعد وفاة المأمون، وبعد إنتقال مركز الخلافة من بغداد إلى سامراء على يد المعتصم، وتزايد الفتن ـ بعد ذلك ـ وما حل ببغداد من الفتن والويلات بمرور السنين مما ترك آثاراً سلبية على بيت الحكمة، ففقد مجده العلمي العظيم الذي كان عليه زمن المأمون، شارك في ذلك أيضا قيام دول جديدة في مصر والأندلس، مما ساعد على تفرق العلماء والأدباء والمفكرين إلى تلك المناطق التي أصبحت تحتوي على مراكز علمية جديدة.

إنتشرت المكتبات في العصر العباسي كله، وحرص الكبراء والوزراء والعظماء والأغنياء على اقتناء مجموعات ضخمة فخمة منها. وإن كانت هذه المكتبـات تعتـبر مكتبـات خاصة إلا أن أصحابها كانوا يسمحون للبـاحثـين والـدارسـين بارتيادهـا، مما نستـطيع اعتبارها نصف عامة. فالجـاحظ كانت له مكتبتـه الخاصة، والفتح بن خاقان (نديم الخليفة المتوكل) كانت له مكتبة (خزانة) جمعها على بن يحيى المنجم الذي كانت

له هو الآخر خزانة كتب عظيمة يسميها «خزانة الحكمة» يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون فيها صنوف العلم، كل ذلك في ضيافة صاحب الخزانة، وممن جمع خزانة كتب واشتهر بها «الكندي» الفيلسوف، وثلاثة أخوة عرفوا في التاريخ بإسم «أبناء شاكر، وأبناء موسى، لأنهم أبنـاء موسى بن شاكر، وقد عاصروا المأمون ومن أتى بعده من الخلفاء حتى عهد المتوكل. كذلك يجب أن نذكر «ابن العميد» وزير البويهين، ومكتبته الرائعة التي زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير «إبن مسكوية».

وعموما، فقد اهتم خلفاء بغداد في العصر العباسي بعد المأمون ـ على ضعفهم وقلة مواردهم المالية ـ بالعلم والمدارس والمكتبات كل الاهتمام، ويرد في هذا المضمار ثلاثة منهم هم الخليفة الناصر، والخليفة المستنصر، والخليفـة المعتصم آخـر الخلفـاء العبـاسيين في بغـداد. اعتنى الناصر بالمـدرسـةالنـظامية ومكتبتهـا، وأهتم المستنصر بالمـدرسـة المستنصرية ومكتبتهـا، وإنشأ المعتصم خزانتين للكتب في داره الخاصة كان يجلس فيهما بالتناوب.

لا نستطيع أن نوفي العصر العباسي حقه في هذه العجالة الموجزة، لقد كان له دور كبير في مجال الكتب والمكتبات، وساعده على ذلك إنتشار صناعة الورق في العالم الإسلامي بعد أن فتح المسلمون سمرقند. وقد استدعى ظهور الورق كصناعة وانتشار استعماله ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق والكتابة والكتب، هؤلاء هم «الوراقون» الذين لعبوا دورا مهما في تاريخ الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية إبان تلك الفترة ومـا بعـدهـا، فكـان هم النـاشرون، والبائعون، والمكتبيون، ورجال المعلومات بلغة العصر الحديث، بل في أحيان كثيرة كان منهم العلماء والأدبـاء والمفكرين. وكانت دكاكين الوراقين مكتبات عامة يلتقي فيها الأدبـاء والعلماء والفضـلاء، وكـانت منتـديات فكـرية يتـذاكرون فيها الحوادث ويتناشدون الأشعار، ويتجادلون، ويتساجلون، ويبحثون آخر

الأنباء والأخبار الأدبية والعلمية.

وجـدت في هذا العصر أغلب أنـواع المكتبات التي نعرفها في وقتنا الحاضر، ففيه وجدت المكتبات الملحقة بالمساجد، وفيه وجدت المكتبات الخليفية (مكتبـة الخليفـة)، والمكتبـات الخـاصـة، والمكتبـات العـامة، ومكتبـات الأوقـاف، ومكتبـات البحث والـدرس، أي ما نسميه الآن المكتبات الأكاديمية أو الجامعية، ومكتبات المشافي، وغيرها من المكتبات التي ذخر بها هذا العصر الزاهر من عصور الحضارة الإسلامية.

الدولة الفاطمية في مصر :

أسس الفاطميون دولتهم في شمال أفريقيا في تونس، ثم توسعوا شرقاً وغرباً حتى تمكن الخليفة المعز لدين الله من دخول مصر ، وضمها إلى دولتـه سنة ٣٥٧هـ. وهو الذي أسس القاهرة والجامع الأزهر، وجعل القاهرة عاصمته، واستمرت الخلافة الفاطمية اكثر من قرنين حتى قضي عليها صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ. اهتمت الدولة الفاطمية ـ خاصة في فترة ازدهـارهـا بالآداب والعلوم وجميع فروع المعـرفـة البشرية. وترقت الحضـارة في عهـد خلفـائهم الأوائـل الـذين حاولـوا منـافسـة الخلفاء العباسيين، وذلك بجعل القاهرة مركزاً سياسياً وحضارياً ينافس كلاً من بغداد وقرطبة، بل ويبزهما، فقد حاولوا جذب العلماء من كل مكان، وأسســوا مراكـز العلم والبحث والـدرس، وأغدقوا على العلماء العطايا والهدايا. وكان من أبرز ما أسس في هذه الدولة «دار الحكمة» في قاهرة المعز.

دار الحكمة :

وهي تشبه «بيت الحكمة» التي أسسها المأمون في العصر العباسي، مع اختـلاف الأهداف. أسس «دار الحكمة» في القاهرة الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله»، وتسمى أحيانا «دار العلم»، أسسها لاهتمام الدولة بالآداب والعلوم والفنون، ولاسيما في عهد خلفائها الأوائل الذين حاولوا

منافسة الخلفاء العباسيين في بغداد، والأمويين في قرطبة، وحاولوا ـ كما ذكر ـ جعل القاهرة مركزاً أساسيا وثقافياً وحضاريا ينافس كلا من بغداد وقرطبة. أسس «الحاكم بأمر الله هذه الأكاديمية سنة ٣٩٥هـ رمزاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية لأن مجالس الدعوة كانت تسمّى مجالس الحكمة. فهي بهذا الوصف مكتبة قيمة ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة، وقاعة محاضرات.

اتخذ لهذه المكتبة بناء خاصاً بها مجاور للقصر الغربي، ونقل إليها أعداداً غفيرة من الكتب الموجودة في خزائن القصور الفاطمية من سائر العلوم. وقسّمت المكتبة إلى أقسام: قسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن الكريم، وقسم لأصحاب النحو واللغة، وقسم آخر للأطباء (تصنيف). وقد أباح «الحاكم» المكتبة لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فمنهم من كان يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، (خدمات مكتبية) ومنهم من يحضر للتعلم، وكلٍ لديه حاجته من الحبر والمجابر والورق والأقلام.

خصّصت في هذه المكتبة قاعات للمحاضرات والمناقشات والمناظرات (أهداف المكتبة العامة)، وهي وإن كانت لبث الدعوة الفاطمية عن طريق التعليم والاقناع، إلا أنها اتخذت طابعاً حراً ـ إلى حدما ـ فدعى إليها الأساتذة من المذهبين الشيعي والسني. وقد كانت المناظرات والمحاضرات تتم بين يدي الخليفة في أحيان كثيرة. ويبدو أن انشغال هذه المكتبة أو المدرسة أو الأكاديمية بالأمور العقدية وبالخلافات المذهبية قد أثر في نشاطها. وارتبط مصيرها، بل مصير المكتبات الفاطمية جميعها، مع مصير الدولة الفاطمية، فقد صادرها جميعها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٧هـ عندما ألغى الخلافة الفاطمية، فبيعت كتبها، وانتُهبت محتوياتها. وهكذا اقترنت هذه المكتبة العظيمة بالدولة الفاطمية، فالفواطم هم الذين أنشأوها لخدمتهم، وهم الذين غذوها وحافظوا عليها، ولما زالوا زالت معهم.

الأندلـــس :

نافست حضـارة الإسلام في الأندلس حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمـة قرطبـة وازدهـارهـا، خاصـة إبّـان العهد الأموي في الأندلس، أنها كانت أعظم مدينة في أوربا كلها، وتأتي على قدم المساواة مع القسـطنـطينية وبغداد إبّان عزهما، بل كانت تعتبر عاصمة الفكر والثقافة والحضارة بعد بغداد. وقد تغالى أهل الأندلس في اقتناء الكتب وفي تجليدها وزخرفتها، وبلغت المكتبات في تلك البقعة الإسلامية درجة عالية من التقدم، وذلك نتيجة طبيعية للحضارة التي أوجدها الإسلام هناك. والواقع أن الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية والتربية والتعليم قد انتشرت في القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين في أسبانيا ا لمسلمة، حتى أن تلك الثقافة والحضارة قد انتقلت إلى المستعربين الأسبان، وهم ا لأسبان النصاري الذي أقاموا في البلاد الإسلامية، وعاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي، فقد سرت إليهم العادات الإسلامية، وتعلموا اللغة العربية، وكتبوا بها، بل واقتنوا مكتبات عربية.

وبذلك أصبحت الأندلس مركزاً ممتازاً من مراكز الثقافة في العالم، يتقـاطـر إليه العلماء والأدبـاء من كل مكـان، فقد كان أغلب حكام الأندلس، خاصة الأمويين منهم، محبيّن للعلوم والآداب، مهتمين بنشر المعرفة. وقد أسسوا مكتبات رائعة، ولكن الخليفة الذي يُقرن اسمه دائما بالعلوم والكتب، هو «الحكم الثـاني المستنصر بالله» (٣٥٠-٣٦٦هـ)، ذلك أن الحكم استفاد كل الفائدة من السلم الوطيد الذي حققه والده، واستفاد من قوة الدولة وهيبتها، وتوفر الأموال والرخاء والرفاةالذي عم أرجـاء البلاد آنذاك، فالتفت لقطف ثمار ذلك مدارس ومكتبات وكتباً وحضارة وثقافة واسعة. ولا غرو في ذلك، فقد تثقف الحكم على أيدي أبي علي القالي صاحب كتاب «الأمالي». وكان الحكم من شدة شغفه بالكتب يعرف أخبارها قبل أن تصدر، وقبل أن يطلع عليها البحاثة، فقد وصل إلى علمه أن أبا الفرج الأصفهاني الأديب الشهير، يؤلف كتابا

لم يُسبق إليه هو كتاب «الأغاني» فأرسل إليه بألف دينار ذهباً، فبعث إليه بنسخـة من قبل أن يخرجه من العراق. وهذه المكتبة ـ مكتبة الحكم ـ تستحق أن نفرد لها فقرات، كما أفردنا لبيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد، ولدار الحكمة التي أنشأها المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة ـ فقرات وفقرات.

مكتبة الحكم في قرطبة:

ويطلق عليها «مكتبة الأمويين»، وهي وإن كانت تنسب إلى «الحكم الثاني، المستنصر بالله» إلا أن الذي أنشأها هو «عبد الرحمن الأوسط»، وهـو «عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل» وقد بلغت أوجها واكتمالها في عهد الحكم الذي تنسب المكتبة إليه. كانت المكتبة قريبة من قصر الزهراء، أو هي في قصر الزهراء ذاته مقر الحكم، وكانت مجموعتها تقدر بمئات الألوف، إذ نشط أمراء وخلفاء بني أمية إبتداءً من عبد الرحمن الأوسط في جلب الكتب إلى عاصمتهم «قرطبة» من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، فلم يبخل أمراء بني أمية على المكتبة بأي اموال لشراء الكتب من أسواق مدن الأندلس، أو من مراكز الثقافة الإسـلامية في المشرق الإسـلامي، وعـلى رأسها بغداد، والقاهرة. أما المصـادر الأخرى التي كان يتم تزويد المكتبة بالكتب عن طريقها غير الشراء والاستنسـاخ، فقـد كانت التأليف، إذ ازدهر التأليف في عهد الأمويين بالأندلس خاصة في عهد الحكم. إزدهاراً كبيرا، والإهداء، فقد شاع إهداء الكتب للخلفاء والأمراء طلبا لحظوة أو طمعا في مكرمة.

ويفترض في هذه المكتبة كقريناتها في بغداد والقاهرة، أن تكون منظَّمـة ومصنفة، إذ أن حجم مقتنياتها يومىء بذلك. وقد أشار ابن حزم وابن خلدون وغيرهما من أن عدد «فهارس الدوواين فيها بلغ أربعة وأربعين فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة» فإذا كانت الدواوين مفهرسة، فليس هناك ما يمنع من فهرسة بقية المجموعات.

لم تكن مكتبة الأمويين في قرطبة مكتبة عامة تمد خدماتها إلى كافة النـاس، بل هي كانت أقـرب ما تكـون إلى المكتبة الوطنية (بالمفهوم الحديث) تمد خدماتها بصفة رئيسية للجهة التشريعية في الدولة (الخليفة) ثم تمد خدماتها بعد ذلك إلى المتخصصين والمؤلفين والباحثين الجادين، ذوي العلاقة بالحاكم.

أدَّى تردِّي الأوضاع السياسية في الأندلس، بعد وفاة الحكم، وبالتالي تدهور الوضع الاقتصادي إلى ضعف الحركة الثقافية في البلاد، فهاجر العلماء من قرطبة إلى شمال أفريقيا أثناء الفتن التي تلت ذلك، وتدنًّى مستـوى الحكـام الثقـافي والعلمي. وكـان لذلـك دور كبير في تشتت مجموعات المكتبة وتفرقها في كثير من الحواضر الأندلسية وغير الأندلسية.

هذه ثلاث مكتبـات شهـيرة في الحضـارة الإسلامية تناولناها بإيجاز شديد، هي بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة، ومكتبة الحكم في قرطبة. وهذا لا يعني أن هذه كانت فقط المكتبات الكبرى في الحضارة الإسلامية، بل لقد أثرت الحضارة الإسلامية الانسانية بكثير من المكتبات وكثير من الكتب،وإن لم يكن لها شهرة المكتبات الثلاث التي أوجـزنا شيئا قليلا عنها. فقد كانت هناك مكتبات المساجد والجوامع، وهي من أوائل أنواع المكتبات نشأة في الحضارة الإسلامية. والغريب أن مكتبات المساجد الكبرى كانت لا تحتوي كتبا دينية فقط، وإنما بالاضافة إليهـا كتبـا فلسفية وعلمية، بل وكانت تدرس في المساجد جميع أنواع العلوم باستثنـاء الطب. والأمثلة على ذلك جامع بني أمية في دمشق، والحـرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، والجامع الأزهر في القاهرة، وجامع المنصور في بغداد، وجامع الزيتونة في تونس.

كما انتشرت المكتبات الخاصة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وحرص الأغنياء والعظماء والوزراء والعلماء على اقتناء مجموعات ضخمة فخمة من الكتب. ونستطيع أن نذكر في هذا المجال: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وعلي بن يحيى المنجم، والكندي (الفيلسوف العربي المعروف) وأبناء شاكر

أو أبناء موسى في عصر المأمون ومن أتى بعده من الخلفاء. كذلك يجب أن نذكر ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة، ونذكر الصاحب بن عباد تلميذ ابن العميد، ومكتبته الأدبية العلمية. ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي في مصر. وفي الأندلس ابن حزم ومكتبته معروفة ومشهورة. . . وبذلك كانت المكتبات الخاصة تقوم بدورها في الحضارة الإسلامية كما قامت بها المكتبات الكبرى.

أما المكتبات الأكاديمية، فتعتبر «بيت الحكمة في بغداد» ودار الحكمة في القاهرة نموذجاً كاملاً لها، وبجوار هذين الصرحين الكبيرين توجد صروح أخرى، مثل مكتبة مراغة التي أسسها المغول بعد سقوط بغداد في مدينة مراغة بأذربيجان التي اصبحت عاصمة المشرق في عهد المغول، وقد أنشأ بها المغول معهدا علميا ومرصداً للدراسات الفلكية وخزانة كتب عظيمة واستقدموا إليها أئمة العلوم الرياضية والفلكية والعقلية والطبية.

وفي المكتبات الوطنية، وقد سماها بعض مؤرخي الحضارة الإسلامية المكتبـات الخـلافية، نسبـة الى الخليفـة، فهي مكتبات ينشئها الخلفاء والأمراء والحكام من أجل أنفسهم، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات والقاء العلوم المختلفة. وقد ازدهرت هذه المكتبات حيث ومتى وجد خليفة أو أمير أو حاكم متنور محب للعلوم والآداب. كان يباح دخول بعض هذه المكتبات للناس جميعا، والبعض الآخر كان محرما على الناس، مقصورا على استعمال الخليفة أو الأمير وحاشيته. وقد انتشرت هذه المكتبـات في العـالم الإسـلامي، وذلـك بعد انقسام الامبراطورية الإسـلامية الى دويلات في القرن الثالث الهجري. والجدير بالذكر ان الانقسام السياسي في الدولة الإسلامية لم يرافقه ضعف حضاري، بل ربـما نرى العكس حين نجد الحضارة الإسلامية تبلغ أوجها وعظمتها عنـدما يكون المسلمون ضعفاء سياسيا سواء في الأندلس أو في شمال أفريقيا أو في المشرق. أضف إلى ذلك كثرة المراكز التي كانت تحتضن الحضـارة كبخـاري، وشـيراز، والـري، وبغـداد، وحلب، ودمشق،

والقاهرة، وقرطبة، وأشبيلية وطليطلة، والقيروان، وفاس،... ووجود حكـام يشجعـون الحـركة الثقافية العلمية.. كل ذلك جعل الحضارة الإسـلامية تزدهـر كل الازدهار، وجعل مراكزها تنتشر في جميع البلاد الإسلامية وبالتالي كثرت المكتبات الوطنية (الخلافية)

وكمثال على هذه المكتبات أوجد السامانيون الذين اهتموا بالمذهب الإسماعيلي مكتبة كبرى في مقر إمارتهم «بخارى». وأسس البويهيون دار كتب فخمة في مقر حكمهم بشيراز. واهتم خلفاء بني العباس بالمكتبات من بعد المأمون، وآخرهم المستعصم بالله الذي أنشأ خزانتين للكتب. وقـد سبق الحـديث عن اهتـمام الـرشيد والمأمون في الدولة العباسية، والخلفاء في الدولة الفاطمية بهذا النوع من المكتبات.

وفي مجال المكتبـات العامة في الحضارة الإسلامية التي هي المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والأمم ـ سنتناول كنموذج لها مكتبتين تنـاولا سريعاً، هي مكتبة سابور ابن أردشير التي أسسها وزير الدولة البـويهي «سـابور». وكان ذلك سنة ٣٨٢هـ. وقد سميت هذه المكتبة بخزانة الكتب، كما سميت بدار العلم. وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً رائعاً، وارتفع صيتها، وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء. وقد كان يسر المؤلف، أي مؤلف، أن تقبل هذه الدار نسخة من كتابه كهدية، وهو ما نسميه نحن الآن بشيء من التجاوز ـ «الايداع» وكانوا يسمونه «التخليد».

أما المكتبة العامة الثانية، فهي مكتبة بني عمار في طرابلس الشام، إذ حكم بنو عمار قسماً من الساحل السوري في القرن الخامس الهجري، واستمروا في حكمه حتى الحروب الصليبية. وكان بنو عمار شيعة على المذهب الإسماعيلي، اهتموا بنشر مذهبهم والدعاية له، وبذلك أوجدوا مؤسسـة تقـوم بهذه المهمـة هي «دار العلم» في طرابلس. كانت «دار العلم» هذه مكتبة عظيمة، مليئة بالنسَّاخ الذين يتناوبون العمل، كتبها من أجمل الكتب المجلدة والمزخرفة. ويقال أنها كانت تحوي أكبر عدد من

الكتب عُرف أن مكتبة ماحوته حتى ذلك الزمن. أحرق الصليبيون هذه المكتبة مع محتوياتها عندما احتلوا طرابلس عام ٥٠٢هـ.

هذه هي مكتبات العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية، التي بدأت في التفكـك والاضمحـلال بسبب ما اعترى العالم الإسلامي من محن وكـوارث وحـرائق وتفكك وتفتت وانهيار، واستلام الحكام الجهلة زمام الأمور، وكذلك ما أصاب المسلمين أنفسهم من جمود وضعف وتأخر. وما تعرض له العالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الميلادية «الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر» لهجمات مستمرة من الغرب والشرق بدءاً من المغـول منذ أول القرن الثاني عشر ومروراً بالحروب الصليبية التي جاءت من الغرب والتي استمرت قرنين كاملين «الثاني عشر والثالث عشر»، وقد دمر قسم كبير من العالم الإسلامي خلالها، فأحرق ما أحـرق، ودمـر ما دمـر. بعـد ذلـك وجهت أوروبـا جهودها شطر الأندلس، حيث نجحت في القضاء على الإسلام والمسلمين فيها، وكان ذلـك في عام ١٤٩٢م. ولسنـا في مجال بحث ودراسـة انهيار الحضارة الإسلامية، ولكننا نقول أن الكتـب والمكتبات كانت هدفـا رئيسيا للتدمير والحـرق فـي مثـل هـذه الأوقات.

الفصل الرابع
الحضارات الحديثة

الحضارة الأوربية :

فترة العصور الوسطى:

عند إفول نجم الأمبراطورية الرومانية الغربية، حوالي عام ٤٧٦م، بدأ عصر جديد عرف باسم العصور الوسطى Middle ages ، وقد استمرت هذه الفترة حتى مطلع القرن الخامس عشر . تميز النصف الأول من هذه الفترة الذي استمر حتى حوالي سنة ٩٠٠م بالركود الواضح في الحياة العلمية والثقافية، وتدهور التعليم، وجمود الفكر في المجتمعات الأوربية، مما حدا بالبعض أن يصف هذه الفترة بالعصور المظلمة. وهي واحدة من أسوأ الفترات التي مر بها تاريخ الكتب والمكتبات في أوروبا، حيث كانت حيازة الكتب غير الدينية المجازة من الكنيسة ـ في بعض الدول ـ تُعد جريمة شنعاء يعاقب عليها القانون، وقد تصل عقوبتها إلى الموت، وتفشَّت في بعض البلدان ممارسات تعسفية قامت بها المؤسسات الدينية في هذه البلدان، كمحاكم التفتيش في أسبانيا، وإدانة العلماء بالهرطقة، واتهام الفلاسفة بالإلحاد، وإعدام المفكرين بتهمة الكفر، وغيرها من الممارسات التي أدت في النهاية إلى قتل الروح الإبداعية في المجتمع، وخيم على أوربا صمت القبور، كما تنبأ بذلك أميانوس مارسلينوس عام ٣٧٨م، إلا إن هذه الحالة المتصفة بالجمود الفكري، لم تمنع من قيام بعض المحاولات الإصلاحية الجادة، التي ظهرت كومضات مضيئة خلال تلك القرون المظلمة. وفي هذا الصدد، تذكر الجهود التي قام بها النبيل الروماني (كاسيودورس: Cassiodorus) (٤٨٧ ـ ٥٨٣م)، الذي كان يتبوأ منصباً رفيعا في بلاط الامبراطور الروماني (ثيودريك الاكبر: Theodoric the Great) (٤٥٤ ـ ٥٢٦م) الذي كان مسيطرا على البلاد الإيطالية كلها. وتمكن كاسيودرورس من خلال منصبه من تنفيذ مشاريعه الرامية الى بناء مكتبات تابعة للأديرة، مجهزة بأماكن

لاستنساخ المخطوطات والوثائق Scriptaria ، وبهذا لعب دورا هاما في نقل الحضارة والثقافة من مرحلة التراث الكلاسيكي المتوارث من العصور القـديمـة، والولوج به الى مرحلة العصور الوسطى. وذلك من خلال اهتـمامه ببناء ورعاية مراكز الاستنساخ والترجمة للمخطوطات القديمة، والكتب العلمية، وتـوفـير المـال الـلازم والكفـاءات البشرية لتسييرهـا والإشراف عليها، وقد عمل كاسيودرورس على وضع القواعد والمعايير لكيفية حفظ ورعاية المخطوطات والكتب، وكانت تلك الرعاية الأولى من نوعها في العصور القديمة. وقد قامت هذه الأديرة بدور كبير في دفع حركـة التـأليف والاستنسـاخ في حقبـة ركـدت فيها مثل هذه الأعمال الفكرية، مما دعا المؤرخين أن يسبغوا عليه لقب «أبو الكتابات الرهبانية في الغرب».

وبجانب مجهودات ذلك النبيل الروماني، قامت بعض الأديرة المسيحية خلال البدايات الأولى للعصور الوسطى بدور مهم في حفظ وبث التراث الفكـري المتـوارث من العصـور الغابرة، فقد كان بعض الرهبان من القسـاوسـة يقـومون بنسخ العديد من المخطوطات القديمة في أديرتهم ويحفظونها لديهم. حقيقة أن جانباً كبيراً من هذه المخطوطات المستنسخة كانت تتعلق بالكتابات الدينية، إلا أن عدداً ليس بالقليل منها كان يدور حول العلوم الدنيوية. وكان الرهبان يحتفظون بجزء منها ويقومون ببيع الجـزء الآخر لمن يستطيع شراؤها. وكان ذلك يُعد مصدراً من مصادر الدخل التي تعتمد عليه الأديرة في الانفاق. ومن المرجح أن بعض هذه الكتابات المنسوخة كانت كتابات علمية يرجع تاريخ تأليفها إلى العصر اليوناني. ويقال إن أقدم نسخة من الكتاب المقدس التي أُطلق عليها إسم (Codex Sinaiticus) واحدة من أهم المخطوطات التي أُنتجت في هذا العصر. واكتشفها العلامة (تشيندوف) عام ١٨٥٦م، ويرجع تاريخها الى القرن الرابع الميلادي، وقد وجدها (تشيندون) في دير سانت كاترين في سيناء، وقد حصلت عليها مكتبة سان بيترسبرج في لينجراد ، إلى أن ابتاعها المتحف البريطاني عام ١٩٣٤، حيث لا تزال معروضة هناك.

وإذا انتقلنـا من الأرض الأم Main land في القـارة الأوربية، إلى

الجزيرة البريطانية نجد حركة مماثلة نشأت في جنوبها، ثم أخذت تشق طريقها إلى باقي اجزاء الجزيرة البريطانية. ففي ذلك الجزء من الجزيرة المسمى بالاراضي الأيرلندية، قام الرهبان الكاثوليك الأيرلنديين بإنتاج الكتب واستنساخها، وكونوا بذلك مجموعات من المقتنيات التي تساعد على إنشاء مكتبات ملحقة بأديرتهم، وهي إن كانت متواضعهة كما وكيفا، إلا أنها كافية لأغراضهم، وتساعد في استمرارية الحركة ا لفكرية بالأرض البريطانية.

تميزت المكتبات الملحقة بالأديرة ـ في هذه الفترة ـ بالتواضع، سواء من زاوية أعداد مقتنياتها التي لم تكن تتجاوز بضع مئات من المجلدات، أو من حيث الموضوعات التي انحصرت في التأريخ للقديسين، أو الأحداث التاريخية المعاصرة للقرون الوسطى، والقوانين الكنسية، والمعارف القروسطية، وكتب العهد القديم والحديث، مع وجود بعض الأعمال المتوارثة من الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية. وكان ثمة وجود لظاهرة تختص بها مكتبات الأديرة، حيث كانت تربط مجلداتها الثمينة بالسلاسل الحديدية خوفا عليها من السرقة، كما أن معظم مقتنياتها كانت مدونة على وسائط من الرق الـ Codex وهو الشكل المفضل لدى القساوسة المسيحيين، أكثر من أوراق البردي، الذي ارتبط في أذهانهم بالعصور الوثنية، بعكس الرق الذي استخدم في بداية العصر المسيحي. وبحلول نهاية العصور الوسطى بدأت مكتبات الأديرة ومراكز الاستنساخ الملحقة بها، تفقد أهميتها العلمية والثقافية، نتيجة لظهور معطيات إجتماعية صبغت المجتمعات الأوربية بصبغة حديثة.

نستطيع تلخيص الخصائص التي تميزت بها هذه الفترة التاريخية، فيما يتعلق بالعوامل التي أثرت في مسيرة الكتب والمكتبات خلال هذه الحقبة التاريخية بالآتـي:

من العوامل السلبية التي أثرت على مسيرة الكتب والمكتبات.

١ ـ الجهل والأمية المتفشيان في المجتمعات الأوربية القروسطية، الذي

أدى إلى عدم معرفة شعوب هذه المجتمعات بالكتاب كقيمة حضارية، وبالمكتبات كمنارات علم ونور.

٢ ـ القلاقل السياسية والحروب بين القوميات (الجرمان/ الايطاليون/ الساكسون والانجليز/ والنورمانديون.. الخ). الذي أدى إلى عدم وجود استقرار اجتماعي واقتصادي، وخلق بيئة غير صالحة اقتصاديا وسياسيا للثقافة والعلوم؛ والتي من أهم رموزها إنتاج الكتاب ونشأة المكتبات.

٣ ـ التعصب العقائدي، والهوس الديني، الذي أدّى إلى الحجر على الفكر، وقتل الإبداع وركود الحياة الفكرية والثقافية والعلمية، وهي من الأعمدة الأساسية لتطور الكتب وانتشارها، وقيام المكتبات وتقدمها.

٤ ـ كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تخريب الرموز الثقافية المتمثلة في الكتاب والمكتبات، من قبل القوى السياسية والعقائدية المتصارعة في المنطقة.

إلا أن هناك بعض المؤشرات الإيجابية التي، ساعدت على التخفيف من حدة العوامل السلبية سابقة الذكر، وحفظت للمسيرة قدرتها على البقاء، ولو في الحد الأدنى لها، ومن هذه المؤشرات:

١ ـ انتشار الديانة المسيحية، وإقامة الكنائس والأديرة، التي قامت بدور مقدر في إنتاج واستنساخ الكتب والوثائق والمخطوطات، التى وإن كانت في أغلبها دينية التوجه، إلا أنها احتوت على الموضوعات العلمية والفكرية الأخرى.

٢ ـ اهتمام بعض الحكام وعلية القوم من المهتمين بالثقافة والعلوم والحادبين عليها بتشجيع الحركة العلمية والثقافية، عن طريق تدعيمهم لأنشطة إنتاج الكتب، وإقامة المكتبات، وهي وإن كانت في معظمها أنشطة إرتبطت بالمؤسسات الدينية (الكنائس والأديرة)، إلا أنها ساعدت كثيراً في تدوين التراث وحفظه مما جعله ميسراً

للأجيال اللاحقة.

٣ ـ قيام الكنـائس والأديرة، بدور المـدارس والمعاهد الأكاديمية، وإن اقتصرت على تدريس العلوم الدينية واللاهوت، والفلسفة المسيحية، إلا أنها ساعـدت على استمـرار الحـركـة الفكـرية قائمـة في هذه المجتمعـات، مما أوجـد نوعـا من المكتبات للمساعدة في العملية التعليمية، وجدت العون من الكنيسة ومن الحكام، سواء طمعا في إرضاء السلطة الكنيسية التي كانت تتمتع بنفوذ واسع آنذاك، أو عن قناعة منهم بأهمية هذه المكتبات للحركة العلمية والثقافية في مجتمعاتهم.

المرحلة الانتقالية:

كان للأحداث التاريخية والتطورات الاجتماعية للفترة الانتقالية مابين القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر الميلادي، الدور الكبير في تحول الحركة الفكرية والثقافية في أوربا، واتجاهها في طريق التطور والرقي، ففي خلال هذه الحقبة، تقلص حجم السلطة الكنيسية على المجتمعات الأوربية، وقامت أنظمة سياسية، تسعى إلى تطور المجتمعات، وتتطلع إلى اللحاق بركب الحضارة، وبدأ انفتاح الغرب على الحضارةالعربية، نتيجـة للاحتكـاك التجـاري والثقافي أو الحروب والحملات الصليبية، وتزامن ذلك في نهاية الفترة مع سقوط دولة الأندلس، وتعرف الشعوب الأوربية على مصادر المعرفة ومفاتيحها عن طريق مصادرتهم للمكتبات الأنـدلسية التي انتـظم فيهـا التراث العلمي والفكري العربي واليوناني والروماني، في مجموعات مرتبة ومفهرسة، عُني بتجميعها وتنظيمها خلال عصور الإزدهار العلمي الإسلامي، مما أدى إلى انكباب علماء الغرب على هذا التراث يعملون جاهدين على فحصه ودراسته، فقاموا بمراجعته وتـرجمتـه وتنقيحـه. ويعد نتاج عملهم هذا النواة الأولى لقيام النهضة الأوربية الحديثة.

وكان لتعرف أوربا على الورق وصناعته في بداية القرن الثاني عشر الميلادي (١١٠٠ ميلاديا)، عن طريق الحضارة العربية، إيذانا بفتح صفحة جديدة في الحياة الفكرية والثقافية في تلك المجتمعات، وخاصة بعد قيامهم بتطوير صناعته في بلادهم، فبعد أن كان شراء الكتب واقتنائها قاصرا على طبقة الأغنياء ومن في حكمهم، خلال العصور الوسطى، وبداية عصر النهضة، تبلورت طبقة جديدة من المستفيدين من الكتب، متمثلة في أبناء الطبقة المتوسطة، تلك الشريحة الاجتماعية الجديدةالتي نشأت في هذه المجتمعات نتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت خلال تلك الفترة، هذه الطبقة كانت متعطشة إلى الثقافة والاطلاع، تواقة لشراء الكتب واقتنائها، ووفرت لهم هذه الصناعة الوليدة (الورق)، الوسيلة للحصول على إحتياجاتهم من المواد الثقافية والعلمية المكتوبة بصورة اكثر سهولة وأقل تكلفة. وتزامن ذلك مع بداية قيام الأكاديميات التعليمية، مما خلق منافسا جاداً للعملية التعليمة التي كانت مركزة في الكنائس والأديرة. وبالتالي بدأت تلك الأخيرة، تفقد تدريجيا مكانتها التي كانت تتمتع بها من قبل، لتحل محلها المؤسسات الجديدة المنتجة والموزِّعة والمشرفة على المعرفة في المجتمع.

ترجع نشأة الجامعات في أوربا، إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وكانت مهام الجامعات ـ في ذلك الوقت ـ تتلخص في الأهداف التعليمية وبتنظيم حلقات النقاش العلمي، ولم يكن الدور البحثى للجامعات قد تبلور بعد. وبالتدريج بدأت الجامعات الأوربية تساعد على تنشيط البحوث، وتمدها بالمصادر البحثية اللازمة. وكان تطور الجامعات من الخطوات المهمة التي دفعت بأوروبا للخروج من مرحلة العصور الوسطى. وولوجها إلى ما يسمى بعصر النهضة، واتجهت أوروبا إلى مجالات الأدب والفنون والشعر والقصة ـ وغيرها. ووجدت في التراث الأغريقي اليوناني، والروماني، والعربي، منهلا تغترف منه هذه القيم الثقافية والعلمية. وفي البداية، بدأ العلماء ينغمسون في ترجمة هذا التراث وتحليله ودراسته، ثم

بدأوا في الانتاج الفكري الخاص بهم. وقد شجعت هذه الحركة الفكرية والثقافية النشطة الكثير من أبناء الطبقة الأرستقراطية، وأغنياء المجتمع، على إنشـاء المكتبـات الخـاصـة ومن أوائـل من بدأوا في هذه الاتجـاه (كـوسيمو دي ميدتشي: Cosimo de Medici)، من مدينـة فلورنسـا، بإيطاليا. وقد مثلت مجموعة ميدتشي نواة مكتبية (لورينتيان: Laurentian) التي تصنف كواحدة من أهم مكتبات تلك الفترة. أما في انجلترا، فكان همفرى دوق جلوستر Duke Humphrey من أوائل من قاموا بجمع مقتنيات ضخمة من الكتب والمخطوطات، والتي قام بإهدائها في القرن الخامس عشر إلى جامعـة أكسفـورد. ولا تزال الجـامعـة تحتفظ ببعض هذه المخطوطات بين مقتنياتها.

ويؤكـد البـاحثون بأن القرن الخامس عشر. الميلادي يُعد بحق تتويجا حقيقيا للجهود التي بدأت منذ بداية القرن الثاني عشر، حيث ظهرت فيه نتائج الجهود المضنية التي بُذلت في أوروبا خلال القرون الثلاثة التي سبقته، مما كان له أبلغ الأثر للحاق أوربا بركب الحضارة، الذي تأخرت عنه طويلا خلال القرون الوسطى. وقد تميزت الفترة الانتقالية بالخصائص التالية:

١ ـ ظهـور الـطوائف المسيحية، وانتشـارهـا، كلٌ له تعـاليمه وطريقته التبشيرية، وكتبه، حيث بدأوا في تنظيم المكتبات ونشرها في أوربا، وخـاصـة في إنجلترا وفـرنسـا، ويذكـر منهم طوائف الـدومنيكان، والفـرانسسكـان، والأخـوة Freres، وتلك الأخيرة التي ظهرت في القرن الثالث عشر الميلادي، عملت على تطوير شكل الكتاب ليكون أصغر حجما وأسهل وزناً، ليسهل حمله ونقله أثناء الحملات التبشيرية.

٢ ـ انحسـار السلطة الكنيسية، واقتصـار دور الكنـائس على التبشـير، وتقلص دورهـا التعليمي، وبـداية ظهـور الاكـاديميات التعليمـة العلمانية، مما أدى إلى ظهور مكتبات جامعية تحتوي على مقتنيات في شتى المجالات المعرفية، لتلبي حاجة العملية التعليمية القائمة.

٣ ـ التغيير في النـظم التعليمية، وقـد انعكس على الانتـاج الفكـري،

وأصبح الانتاج العلمي المدون، يشتمل على الموضوعات العلمية الحياتية، والتطبيقية، كالطب والرياضيات، والهندسة، والمنطق والفلسفة... الخ. ونشطت بذلك حركة التأليف والترجمة والنشر.

٤ - تعرف المجتمعات الأوربية على الورق وصناعته وبداية استخدامه، مما أثر على شكل الكتاب وانتشاره، وإن ظل حتى ذلك الوقت. مكلفاً نسبياً.

٥ - ظهور بواكير الكتابات في مجال المكتبات، حيث قام الأسقف الإنجليزي ريتشارد دي بري بتأليف كتابه «صديق الكتاب: Philobiblion» الذي يُعد من أوائل الكتب التي نشرت في المجال.

عصر النهضة

كان لانتشار التعليم، وازدياد الوعي الثقافي، والرغبة في المعرفة، واكتساب المهارات لمقابلة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية السريعة التي تميزت بها المجتمعات خلال عصر النهضة الأوربية، أثر كبير في توجه الكثيرين نحو القراءة والأطلاع، والحصول على الكتب واقتنائها، مما أدى إلى ازدياد الطلب عليها وهذا بدوره أدى إلى إظهار عجز تقنيات إنتاج الكتب المتبعة في ذلك الوقت - والتي كانت معتمدة على النسخ اليدوي - في مواجهة الطلب المتزايد على هذا الوسيط المعرفي، ولم تحل هذه المشكلة إلا بظهور تقنية الطباعة المعتمدة على الحروف المتحركة. وبالرغم من أن تقنيات الطباعة الأولية ظهرت في الحضارة الصينية منذ قرون عديدة، إلا أن تقنياتها لم تكن بالجودة المناسبة لمواجهة متطلبات العصر. وجاء الحل من المانيا على يد (جوهان ديوهان) جوتنبرج: Johann Gutenberg) (١٤٠٠ - ١٤٦٨م)، المخترع الألماني الجنسية، الذي قدم للعالم لأول مرة تقنيات الطباعة المعتمدة على الحروف المعدنية المتحركة، قد بدأت تجاربها خلال الأعوام (١٤٣٦ - ١٤٣٨م)، إذ طبع يوهان جوتنبرج أول كتبه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت كتباً دينية بدأها بطباعة الأنجيل، ويُعد (انجيل مازادين: Mazarin bible) الذي يدعى أيضا أنجيل الـ ٤٢

سطراً، المطبوع باللغة اللاتينية في مدينة مينز Mainz بالمانيا الغربية مابين الأعوام (١٤٥٠ ـ ١٤٥٥م)، من أقدم الكتب التي طُبعت بتقنية الحروف المتحركة التي ابتدعها جوتنبرج (ولذا فقد سمي أيضا جوتنبرج)، أما تسميته بأنجيل مازارين، فترجع إلى الكاردينال (جيل مازارين: Jules Mazarin)الذي وجد الإنجيل ضمن مقتنيات مكتبته عام ١٧٦٠م، ومنذ ذلك الوقت ـ منتصف القرن الخامس عشر ـ انتشرت تقنية جوتنبرج للطباعة في جميع أنحاء أوربا.

أحدث ظهور تقنية الطباعة ثورة هائلة في مجال صناعة الكتاب، حيث زادت الكميات المنتجة وتضاعفت بصورة كبيرة، وبفضل هذه التقنية أصبح في مقدور الكثير من الناس الحصول على احتياجاتهم من الكتب بأسعار تقل كثيراً عما كانت عليه من قبل. ومن الطبيعي أن التطور في صناعة الكتاب يؤدي إلى تطورات مماثلة في كل ما يتصل بها من أنشطة. وكان قطاع المكتبات من أول الأنشطة التي تأثرت بهذه الثورة التقنية، فمن جهة زادت أعداد المقتنيات في المكتبات، نتيجة لقدرتها على الحصول على أعداد أكبر من الكتب بدون إرهاق كبير لميزانياتها المحدودة، كما أن شكل الوعاء المعرفي تغير بصورة جذرية، فبدلا من الشكل التقليدي المصنوع من الرق، أصبح الكتاب بعد استخدام الورق مقترنا بالطباعة الحديثة، يأخذ شكلا جديدا، حيث أصبح الوعاء الورقي المطبوع هو السمة الغالبة في المكتبات، وأثر هذا بدوره على أسلوب تنظيم الكتب وعرضها في المكتبة، فعرفت المكتبات للمرة الأولى ما يسمى بالأرفف المفتوحة Open shelf التي تعرض عليها الكتب، بدلا من الخزائن المغلقة ذات الأدراج التي كانت تستخدم لحفظ الوثائق والمخطوطات والكتب بشكلها التقليدي القديم.

وبحلول القرن السابع عشر بدأت المكتبات تأخذ شكل الأرفف المجاورة للحوائط، مع وجود طاولات القراءة في منتصف الغرف (غُرف المطالعة)، وهو الشكل المتعارف عليه في الوقت الحالي، ولم يكن الشكل

المادي هو التغيير الوحيد الذي طرأ على المكتبات في هذا القرن، بل شمل التطور أيضا الخدمات التي تقدمها، فأصبحت أكثر تنظيما وأعلى مقدرة على خدمات مكتبية أفضل، وتؤكد الدراسات التي أجريت، أن القرن السابع عشر، والثامن عشر الميلادي كانا بمثابة العصر الذهبي للمكتبات في أوروبا. ونتيجة لهذا التطور بدأ مجال المكتبات يجد اهتماما من الباحثين والمفكرين، الذين شعروا بأهمية هذه المؤسسات الثقافية ودورها في المجتمع، فبادروا بالمشاركة في تدعيم مسيرتها بإنتاجهم الفكري. وبذلك نجد أول كتاب علمي في مجال المكتبات وكيفية تنظيمها في هذه الحقبة، قام بتأليفه (جبرائيل نوديه: Gobriel Noude) عام ١٦٢٧م، بعنوان «رأي حول تنظيم المكتبات: Avis pour dresser une bibliotheque والذي تعرض فيه لكيفية تنظيم المكتبات والأنشطة المتعلقة بها، من تزويد، وإجراءات فنية، وخدمات. ويعد كتاب نودية من أوائل الجهود المميزة في مجال الكتابة عن تخصص المكتبات.

وما أن جاء القرن التاسع عشر، حتى بدأت المكتبات تمثل ظاهرة اجتماعية مميزة، وهو ذات القرن الذي ظهر فيه واحد من أشهر التصنيفات العالمية في مجال المكتبات، الذي وضعه (ميلفل ديوي: Mel-vil Dewey في أمريكا عام ١٨٧٦، وعرف (بتصنيف ديوي العشري: Dewey Decimal classification) وتلاه في بنهاية القرن نظام آخر وضعه (جيمس بروان: James Brown) نشر للمرة الأولي عام ١٨٩٤م وعُرف باسم (تصنيف براون: Brown classfication) أو (التصنيف الموضوعي: Subject classification) ، ومـا ان حل القـرن العشرين حتى كانت صناعة الكتاب، والخدمات المكتبية تحتل مكانة كبرى في المجتمعات الأوروبية والعالم بصفة عامة، وأصبحت علوم المكتبات من العلوم التي لها نظرياتها وتطبيقاتها، وارتبطت مصطلحات الكتابة، والكتب، والمكتبات بمفاهيم علمية وثقافية، وممارسات مهنية وعملية، يُكنُّ لها المجتمع الدولي كل احترام وتقدير.

ومن الممكن تلخيص الملامح الرئيسية التي ميزت هذه الفترة في النقاط التالية:

١ ـ اكتشاف يوهان جوتنبرج لتقنيات الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة في ألمانيا، مما أحدث ثورة هائلة في مجال إنتاج الكتاب وصناعته.

٢ ـ انحسار دور الكنائس والأديرة في استنساخ الكتب وإنتاجها، كنتيجة حتمية لتطور تقنيات الطباعة الآلية، مما أدى إلى اختفاء بعض المهن التقليدية في مجال إنتـاج الكتـاب كفئة النساخين، وظهور أخرى ترتبط بالتقنيات الطبـاعية الحديثة، كفنيى الطباعة، والمصففين، والمجلدين، وموزعي الكتب. . . الخ.

٣ ـ انخفاض تكلفة إنتاج الكتب، بظهور الشكل الورقي المطبوع، مما أدى إلى إنتشار الكتاب كوعاء معرفي على نطاق واسع، وزيادة فئات المستفيدين منه.

٤ ـ تطور تجهيزات المكتبـات ومقتنياتهـا، وارتقاء خدماتها كماً وكيفياً، وقيام المكتبـات الكـبرى في أوروبا وظهور أشكال جديدة لم تكن معـروفـة من قبل. كالمكتبات الوطنية، والمكتبات العامة الكبيرة، والمكتبـات الجـامعية المنتمية إلى أكاديميات علمية حديثة، تميزت بضخامة مقتنياتها وجودة تنظيمها.

٥ ـ بداية الكتابات العلمية الجادة في مجال المكتبات، والتطبيقات المرتبطة بها، وظهور خطط التصنيف العالمية، وقواعد الفهرسة العلمية، مما أدى إلى تطور التقنيات والاجراءات المكتبية، والارتقاء بخدماتها.

٦ ـ بدء الإعتراف بمجال المكتبات، كممارسة مهنية لها إطارها العلمي، مما استدعى إنشاء الدراسات في مجال المكتبات، والاعتراف بها على المستوى الأكاديمي.

المكتبات الكبرى ونشاتها في أوربا:

يرجـع تاريخ إنشـاء معظم المكتبات الكبرى في أوروبا إلى القرنين السابع والثامن عشر الميلادي (١٦٠٠/١٧٠٠)، وهي ذات الفترة التي

وصفها الباحثون، بأنها فترة الازدهار الكبرى للمكتبات في المجتمعات الأوربية. والجدير بالملاحظة أن غالبية المكتبات الكبرى التي أنشئت في هذه الفترة، لم تنشأ من العدم، بل نشأت إعتماداً على مقتنيات مكتبات كانت قائمة بالفعل، تابعة في معظمها لحكام وملوك وعظماء، تنازلوا عنها طواعية واختيارا، أو مجبرين نتيجـة للتغيرات السياسية في دولهم، وقد ركـزنا في ما يلي على ثلاثة أنواع من المكتبات، الوطنية، والأكاديمية، والعـامـة. وتخيرنا منها ما أُنشيء في فترة الأزدهار المكتبي، واستمر إلى العصر الحديث، وأصبحت من أبرز المكتبات في المجتمعات التي توجد بها. كما وقع اختيارنا على عدد من الدول الأوربية التي امتازت بأسبقيتها في هذا المجال.

فرنســا:

أول مكتبة وطنية هامة تقام في أوربا هي: (المكتبة الوطنية الفرنسية: La bibliotheque Nationale de France) ، أُنشئت هذه المكتبة إعتمادا على مقتنيات مكتبـات سابقة لها، جمعها واقتناها الملوك، منهم (لويس الحادي عشر: Louis XI (١٤٦٣-١٤٨٣م)، (تشارلز الخامس: Charles V) (١٥٠٠-١٥٥٨م)، (فـرانـسـيس الأول: Francis I) (١٤٩٤-١٥٤٧م)، الذي يعزي اليه ضمه للمكتبات الملكية وتجميعها في مكتبة واحدة في «قصر النافورة الزرقاء Fontaaine Bleau وتعيينه (لجيوم بودية Guillaume Bude) أمينا لها، وقد تم مضاعفة مقتنيات المكتبة في عهد (لويس الرابع عشر: Louis XIV) (١٦٣٨ - ١٧١٥م) وكان (جان بابتيست كولبير: Jean Baptiste Colbert) ، (١٦١٩ - ١٦٨٣م) أمينا للمكتبة الملكية ومشرفا عليها. ثم نُقلت إلى موقعها الحالي في باريس، وفتحت أبـوابهـا للجمهور للمرة الأولى عام (١٦٩٢م)، وكانت تفتح آنذاك مرتين إسبوعيا. وبعد قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩م)، استولت الحكومة الجمهورية على المكتبة وحولتها إلى ملكية عامة، وسميت المكتبة الوطنية الفرنسية، ومنذ عام ١٨٥٩م، أصبحت تفتح أبوابها للجمهور

طوال أيام الأسبـوع. وتتمتـع المكتبة الوطنية في فرنسا، بحق الإيداع القانوني، الذي مكنها من مضاعفة مقتنياتها لتبلغ في فترة السبعينات من هذا القرن حوالي ٦ ملايين كتاب، عدا الوثائق التي تربوا على نصف مليون وثيقة، والمخطوطات التي يقارب عددها المئتي ألف مخطوطة.

أنشئت معـظم المكتبـات الجـامعية في فرنسا، خلال القرن التاسع عشر، باستثناء قِلة منها. وتعد مكتبات جامعة باريس من أقدم المكتبات الجامعية في الأراضي الفرنسية، وهي عبارة عن شبكة مكتبات جامعية، تتضمن المكتبات التالية؛ (مكتبة السربون: Bibliotheque de la Sorbonne) (١٧٦٢م)، متخصصة في الفن والعلوم؛ (مكتبة أورساي: Bibliotheque d'Orsay (١٩٦٢م)، متـخـصـصـة في العلوم؛ (مكتبـة كلية الحقـوق: Bibliotheque dela Faculte de Droit) (١٨٧٦م) ، متـخـصـصـة فـي العلوم القانونية والتشريعية؛ (مكتبة كلية الطب: Bibliotheque de la faculte de Medicine) (١٧٣٣م)؛ متخصصـة في العلوم والـدارسـات الطبية (مكتبة كلية الصيدلة Bibliotheque de la Faculte de Pharmacie (١٥٧٠م)، متخصصة في علوم الصيدلة والعقاقير الطبية؛ (مكتبة سان جنيـف: Bibliotheque de Saint Genevieve) (١٥٧٠م)، متخصصة في الفلسفـة، والـلاهـوت، والـطب، والقـانـون؛ (مكتبـة التوثيق الدولي المعاصر، Bibliotheque de Documentation Internationale Contem-poraine.) (١٩١٧)، متخصصة في العلوم السياسية، والعلاقات الدولية؛ (مكتبة الآثار والفنون: Bibliotheque d'Art et Archeologie) (المكتبة الجـامعية المركزية: Bibliotheque Universitaire Central: (١٩٥٥م)، جميع التخصصات، ومفتوحة لجميع الطلاب على مستوى فرنسا.

وهناك أيضا مكتبات جامعية في أقاليم فرنسا المختلفة، أهمها، مكتبة (أكس في بروفانس: Aix en Provence) (١٨٧٩)، (بيزانو: Besancan) (١٨٨٠)، (لـيون) (١٨٩٦)، (مـونـبـلية: Montpellier) (١٨٩٠)، (نـانسي: Nancy) (١٨٥٥)، (نـانت: Nantes) (بـوانيه: Poitiers)

(١٨٧٩)، (رين: Rennes) (١٨٥٥)، (ستراسبورج: Strasbourg (١٨٧٢)، (تولوز. Toulouse) (١٨٧٩).

انجلترا :

تُعد مقتنيات مكتبة العالم الفزيائي (سير هانز سلون: Sir Hans sloane) ، النواة الأولى التي بدأت بها المكتبة الوطنية البريطانية، التي عُرفت باسم (مكتبة المتحف البريطاني: British Museum library) في لندن عام ١٧٥٤م، وقد فتحت أبوابها للجمهور بعد ستة أعوام من إنشائها (أي عام ١٧٦٠م). وتحوي هذه المكتبة نفائس المقتنيات، حيث يوجد بها (مجموعة هارليام: Harleiam collection) للمخطوطات والوثائق القانونية، ومجموعة (سير روبرت بروس كوتون: Sir Robert Burce Cotton» ، من العملات المعدنية الأثرية، عدا الكتب والمخطوطات والقطع الأثرية التي جُمعت من المستعمرات في عهد الامبراطورية البريطانية. هذا عدا الستون الف مجلد من الكتب التاريخية التي أهديت إلى المكتبة من الملك جورج الرابع George IV (١٧٦٢ - ١٨٣٠م)، وتقع مكتبة المتحف البريطاني في بلومزبرى Bloom Sbury ، بلندن، وكان قد تم تجهيزها بالكامل عام ١٨٤٧م.

وكواحدة من أربع مكتبات وطنية في المملكة المتحدة (الأخريات في، ويلز WALES ، اسكوتلندا scotland ، وأيرلندا Irland) فإنها تستقبل وتحفظ نسخة من كل مطبوع يصدر في المملكة، وهي تنعم بهذا الحق من خلال قوانين حقوق النشر Copyright منذ إنتقال المكتبة الملكية، والتي زاولت هذا الحق منذ ١٦٦٢م - إلى المتحف البريطاني عام ١٧٥٧م.

وقد قام (سيرأنتوني بانيزي: Sir Antony Panizzi) (١٧٩٧ - ١٨٧٩م)، عالم المكتبات الشهير، بتصميم قاعة الاطلاع ، بمكتبة المتحف البريطاني عام ١٨٥٧م، وهو أيضا الذي وضع قواعد الفهرسة

الأولى للمكتبـة، تلك القواعد التي ضمت ٩١ قاعدة فهرسة أو التي أصبحت فيما بعد (١٨٣٩م)، المصدر الأساسي لقواعد الفهرسة لمكتبة المتحف البريطاني. وتحتوي المكتبة الآن على اكثر من ٨ ملايين كتاب مطبوع ومايزيد عن (٣٠) ألف مخطوطة من الشرق، ومايربو على مائة وعشرين ألف لفافة ومواد أخرى.

وتعد مكتبة (بود ليان بجامعة اكسفورد: Bodleien library of Oxford University) أول مكتبة جامعية كبرى أنشئت في انجلترا، ويرجع تاريخها الى العصور الوسطى، عندما قام دوق جلوستر Duke of Gloucester بإهداء مجموعة كتبه إلى جامعة أكسفورد عام ١٤٤٤م. ولم تفتتـح المكتبـة إلا بعـد عدة سنـوات من هذا التـاريخ (١٤٨٨م). وللأسف، دُمِّرت هذه المكتبة خلال الأضطرابات والقلاقل التي صاحبت عهد الملك أدوارد السادس Edward VI (١٥٣٧ ـ ١٥٥٣م). وقد أعيد تأسيس المكتبـة مرة أخـرى بنـاء على مجهودات قام بها السيد (توماس بودلي: Tomas Budly) ١٥٤٥-١٦١٣، وذلـك بتـاريخ ٨ نوفـمـبر ١٦٠٢م، وتطورت المكتبة منذ ذلك التاريخ، وانتقلت إلى مبنى جديد بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦م. وبلغت مقتنياتها ما يزيد، عن المليوني كتاب، وأكثر من خمسين الف مخطوط، كما تضم مقتنياتها عملات أثرية، ولوحات قديمة لشخصيات تاريخية شهيرة، وتعد مجموعاتها حول مؤلفات شكسبير، ومجموعاتها من الكتب والمخطوطات الدينية من أشهر المجموعات الموجودة في المكتبات البريطانية.

إيطاليـــا :

تعـد (مكتبـة الفـاتيكـان: Vatican library) التي ترجـع الى عهـد البـابـا دامسـوس الأول (١٣٠٤-١٣٨٤م) Damasus I ، مـن أشهـر مكتبات ايطاليا وأقدمها. وقد توالت رعاية ا لبابوات الإيطاليين لها منذ إنشـائهـا. أما تنظيم مجموعات المكتبة وترتيبها، واتباع أسس الفهرسة العلمية، في تنظيم مقتنياتها، فقد تم في عهد البابا بولس الحادي عشر

Poulic XI (١٨٥٧ ـ ١٩٣٩م)، وقـد نُشرت قواعـد فهـرسـة مكتبـة الفاتيكان. Vatican code عام ١٩٣١م، بعنوان "Normperil Cataloge degli Stampat" وذلـك للمسـاعـدة في اعـداد فهـرس قاموسي جديد للمكتبة. وصدرت الطبعة الثانية عام ١٩٣٩م، وترجمت من الايطالية الى الانجليزية عام ١٩٤٨م. وهي في مضمونها تشبه قواعد جمعية المكتبات الأمـريكية ALA في نواحي كثيرة. وبالرغم أن مقتنيات مكتبة الفاتيكان، لا تقارن من زاوية الكم بمقتنيات المكتبات الوطنية للدول الأوربية، إلا أن قيمتها الحقيقية تتجسَّد في القيمة التاريخية لمقتنياتها، التي تفوق كثيرا مثيلاتها في البلدان الأوربية، حيث تحتوي المكتبة على مجموعة ضخمة من الـوثـائق والمخطوطات النادرة التي قل ما توجد في مكتبة أخرى، وقد جُمعت خلال العصور التاريخية المختلفة.

ونظراً لتاريخها السياسي الذي حتم تقسيمها في الماضي الى دويلات سياسية مستقلة، فقد وجد بإيطاليا عددا من المكتبات الوطنية، أهمها مكتبـــة الملك (Biblioteca Nazionala Centrala vitorio emanuelle II فيتـوريف إمـانـويل الثـاني الـوطنية المـركـزية). التي أنشئت في رومـا ١٨٧٥م. وتحتوي على أكثر من مليوني مجلد و (المكتبة الوطنية المركزية بفلورنسا: Biblioteca Nazionala Cenral de Florance) التي أنشئت عام ١٧٢٧م، محتوية على أربعة ملايين مجلد. أما باقي المكتبات الوطنية في إيطاليا فتوجد في؛ ميلانو Milan نابولي: Napoles) ، (باليرمو: Palermo) ، (تورين: Turin) (وفينسيا: Venice)

ويرجع تاريخ المكتبات العامة في إيطاليا إلى العام ١٤٤٠م، حين قام (كـوزيمـو دي ميدتشي: Cosimo de Medici) بإنشاء أول مكتبة عامة إيطالية، تفتح أبوابها للجمهور، وكانت ملحقة بدير (سان ماركو: San Marco بفلورنسا، وقام دي ميدتشي ـ أيضا ـ بجمع أول مجموعة وثائق ومخـطوطـات وكتب، أصبحت في القـرن السـادس عشر نواة، لمكتبـة (ليورانتيان: Lavrentian) العامة في فلورنسا، وتضم مقتنيات هذه المكتبة

مجمـوعـة من المخـطوطـات الثمينـة لعلماء ومفكرين مشاهير من أمثال (فـيرجل: Vergil) ، (شيشرون: Cicerou) (ودانتي: Dante وغيرهم.
ولاننسى في هذا الصدد مكتبة (أمبروزيان: Ambrosian library) الشهيرة التي أنشئت في ميلانو عام ١٦٠٩م، وتعرف بمجموعة مقتنياتها الدينية ومخطوطاتها الشرقية.

روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقا)

تعد مكتبة لينن‌جراد، التي كانت تدعى مكتبة الولاية العامة - Saltykov shchedrin من أكبر مكتبات روسيا، وأقدمها، حيث أنشئت عام ١٧٠٠م، في عهد الأمبراطورة كاترين الكبرى Catherine the Great ، وقد تحولت الى المكتبة الملكية عام ١٨٦٢م. وفي أعقاب الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، تم إقـامــة المـكـتـبــة الـوطنية في موسكــو لتحــل محل المكتبــة الملكية، ثم أطلق عليهـا مكتبة لينين عام ١٩٢٤. وشيد لها مبنى جديد عام ١٩٣٠، وقد صادرت الدولة الروسية مقتنيات مكتبات كبرى في روسيا وضمتهـا إلى مكتبـة لينين، ومنها مقتنيات المكتبة الملكية، مما أدى إلى تضخم مقتنيات مكتبة لينين، ونموها بشكل كبير، حتى أنها بمنتصف القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الثانية كانت تحتوي على أكثر من أربعـة عشر مليون مجلد، عدا الكتب المـطبـوعـة النـادرة، والـوثـائق والمخطوطات التاريخية، التي يقدر عددها باكثر من ٤٦ ألف مخطوطة. وبالطبع، فهي تتمتع بحقوق الايداع القانوني، وقد بلغ عدد مقتنياتها الآن اكثـر من ٣٠ مليون كتـاب مطبوع، وما يفوق الـ ٢,٥ مليون مخطوط. أما (مكتبة أكاديمية العلوم بلننجراد Library of the Academy of Science in leningrad) التي انشئت عام ١٧١٤م، فتعـد من أقـدم المكتبات الأكاديمية في روسيا، وقد تمت بها توسعات كبيرة عقب الثورة البلشفية عام ١٩١٧م.

ألمانيـــا :

كانت الدولة الالمانية من البلدان المميزة في مجال المكتبات العامة قبل

الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، إلا أنها كانت تفتقد وجود مكتبة وطنية، ولذا كانت المكتبة العامة التي أنشأها فريدريك Frederick Wil-liam حاكم مقاطعة براندينبرج Brandenburg عام ١٩١٦م، تعد بمثابة المكتبة الوطنية للدولة، وقد تحول مسمى هذه المكتبة عدة مرات، فسميت مكتبة مقاطعة بروسيا Brussia state library (عام ١٩٤٦)، واصبحت المكتبة الوطنية لألمانيا الشرقية، بمجموعة مقتنيات تبلغ حوالي ٣ مليون مجلد. وامتلكت المانيا الغربية ـ أيضا ـ مكتبة وطنية، انشئت اعتمادا على مجموعة مقتنيات مكتبة Deusche Bibliothek بفرانكفورت، ومجموعة مقتنيات Staqt bibliotek Preussischer Kulturbesitz بماربورج Marburg ،أصبح مقرها برلين الغربية. والآن وبعد الاجراءات التي أتخذت لتوحيد الالمانيتين، يرجح أن يُبدأ في التخطيط لإقامة مكتبة وطنية لألمانيا الموحدة.

أسبانيا :

تعد (المكتبة الوطنية بمدريد: Bibliotheca National Madred) التي أُنشئت عام ١٧١٢م، من أهم المكتبات الأسبانية، كما أنها تحتضن المركز القومي الببليوجرافي الأسباني. وتمتاز المكتبة الوطنية، بمجموعة مقتنياتها في علوم اللاهوت، والقانون، والتاريخ. وفي اسبانيا تتمتع المكتبات العامة والجامعية بدعم حكومي كبير، ويتم تعيين كوادرهم المؤهلة من خريجي أكاديمية Cuerpo Facultativo de Archiveros, Bibliotecaios. y Arqueologos ويستخدمون نفس قواعد الفهرسة (فهرسة موحدة)، ويتبعون خطة تصنيف ديوي العشري، في تنظيم مقتنياتهم. وتعد مكتبات الأكاديمية الملكية القومية، التي تحتوي على مقتنيات تغطي مجالات، اللغة، والتاريخ، والقانون، والطب، والفنون، بجانب مكتبات جامعة (مدريد: Madrid) ، (سالامونيكا: Salamonica) (برشلونه: Barcelona) (سيفيل: Seville) (فاليرسيا: Valer cia) (جراند: Granda) (سانتياجو: Santiago) (فالا دولد: Valado lid) (ساراجوسا:

(Saragosa) (وسالما: Palma) ، تعد من أهم المكتبات الجامعية في أسبانيات.

النمســا :

أُنشئت المكتبة الوطنية في النمسا، في عهد الأمبراطور ماكسيميليان الأول Maximilian I عام ١٤٩٣م، واعتمدت في إنشائها على مجموعة من الوثائق والمقتنيات العظيمة القيمة، التي اشتملت على مجموعة كبيرة من المخـطوطـات المُجمعة من الأديرة، والكنائس النمساوية، وكذلك على مقتنيات (مكتبة ماتياس كورفينوس: Library of Matthias Corvinus) وقد تشتتت مجموعات هذه المكتبة، عندما سقطت العاصمة Buda في يد الجيوش التركية عام ١٥٢٦م. أما المكتبة الوطنيةالنمساوية ـالحالية ـ التي أُنشئت في مدينة (كانبيرا: Canberra) فتعد مكتبة حديثة نسبيا، حيث أنها أُنشئت بناء على قانون صدر عام ١٩٦٠. وقد صدر بشأنها قانون يحدد علاقتها (بمكتبة برلمان الكومنولث: Commonwealth Parliamen- tary library) وهي مسئـولـة الآن عن إصـدار البيليوجـرافية الـوطنية النمسـاوية، وتمتلك في الـوقت الحالي، مجموعة مقتنيات قيمة للغاية، وتلعب دورا رائـدا في نظام التعـاون بين شبكـة المكتبات في النمسا. وأجريت عليها توسعات عام ١٩٦٨، كان من جرائها حصولها على مبنى جديد على ضفاف بحيرة (بيولى جريفين: Burley Griffin).

البرتغــال :

تعد المكتبة الوطنية في لشبونة Bibliotheca National, lisbon ، التي أُنشئت عام ١٧٩٦م)، من أكبر مكتبات البرتغال وأكثرها أهمية. وتحتوي مقتنياتها على مخطوطات ووثائق نادرة، ومراجع متخصصة في الموضوعات القومية البرتغالية، كما تحتوي على لوحات وصور ذات قيمة فنية عالية، وتُعد مجموعة مقتنياتها من الدوريات من أكبر المجموعات على مستوى البرتغال. أما أقدم مكتبة جامعية في البرتغال، فهي مكتبة (جامعة كوامبرا: University of Coimbra) الـتي أنـشئـت عام (١٥٩١م)، كما أنها تعـد

الثانية من حيث حجم المقتنيات (بعد المكتبة الوطنية) - ومن المكتبات المهمـة في البرتغال (المكتبة الملكية: Bibliotheca Royale) في لشبونه، الملحقة (بقصر أجودا: Palacio da Ajuda)، التي تحتوي على مخطوطات يرجـع تاريخهـا الى القـرن السابع عشر والثامن عشر، كما أن مجموعة مقتنياتها الموسيقية تُعد من أهم المجموعات الموسيقية في البرتغال، وقد تم الاستـيلاء على جزء من هذه المـقتنيات، وشحنت إلى الـبرازيل عام ١٨٠٨م، خلال فترة الغـزو النـابليوني للبرتغـال، حيث شكلت تلك المقتنيات نواة المكتبـة الوطنية في (ريودي جانيرو: Rio de janaro) أما (مكتبة اويورتو العامة: Bibliotheca Publica Minicipal, Oporto) التي أنشئت عام ١٨٣٣م، فتعد من أقدم المكتبات العامة في البرتغال. كما أن مكتبة مدينة (براجا: Braga) العامة، تُعتبر من اكبر المكتبات العامة في البرتغال، كما تحتوي على مجموعة هامة من المخطوطات الأثرية.

بلجيـــكا :

تعد المكتبة الملكية «البرت الأول La bibliotheque Rogale Al-bert I» ، التي أنشئت عام ١٨٣٧ في بروكسل Brussels ، وكانت نواة مقتنياتها، مجموعة الكتب والمخطوطات التابعة لمكتبة دوفيه برجندى bib-liotheque des Dukes de Burgundy ، بمثابة المكتبة الوطنية في بلجيكا، حيث تقـوم بالتعـاون مع شبكة المكتبات الجامعية البلجيكية، بتقديم الخـدمـات المكتبية على مستـوى الـدولـة، وتنسق خدمـة الاعـارة بين المكتبات، وتشمل بخدماتها كافة المكتبات العامة ببلجيكا.

الولايات المتحدة الأمريكية

كوَّن المهـاجـرون ذوو الأصول الأنجليزية، أول مستعمرة لهم على الأرض الأمـريكية في العـالم الجـديد، في مدينـة "James Town" عام ١٦٠٧م. وبعد مرور (٣١) عاما على هذا التاريخ، أُنشئت أول مكتبة جامعية في أمريكا، وكان ذلك في عام ١٦٣٨م، تلك المكتبة التي عُرفت بمكتبة «جامعة هارفارد: Harvard University library» التي تُعد أقدم مكتبـة جامعية في التـاريخ الأمـريكي. ويرجع الفضل في إنشائها إلى «جون هارفارد: John Harvard» أحد رجال الكنيسة في «ماساشيسُت: Massachusette» ، الذي أهدى الجامعة (٤٠٠) كتاباً، ومبلغا كبيرا من المال لإنشاء مكتبتها. وكانت الهبة التي قدمها من الأهمية بمكان، بحيث تقرر تسمية الجامعة بإسمه. كما تم تعديل اسم المدينة التي تقع فيها الجامعة لتصبح «كمبردج: Cambridge» بدلا عن "Newtown" ، إعترافا بفضل جامعة كمبردج الإنجليزية لرعايتها جامعة هارفارد الوليدة. ولذا يؤرخ بالعـام ١٦٣٨، كبداية لتاريخ المكتبات الجامعية والأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية.

أمـا تاريخ المكتبـات العامة، فيرجع الى عام ١٧٣١م، عندما قام «بنيامين فرانكلين: Benjamin Franklin بالاشراف على إقامة أول مكتبة إعارة في أمريكا، والتي أطلق عليها "The library Company of Philadephia" حيث قام المساهمون في هذه المكتبة العامة التعاونية، بدفع اشتراكات، أُستخدمت في شراء الكتب لها. وكان من حق المشترك أن يستفيد من خدمات الإعارة المجانية التي تقدمها المكتبة، ولازالت مجموعة المقتنيات الأصلية من الكتب المشـتراه بمسـاهمـات الأعضـاء، موجودة بالمكتبة الى الوقت الحالي. وكان لنجاح هذه التجربة أثرها العميق، في تبني باقي مستعمرات أمريكا لهذا النوع من المكتبات. ويعد مبدأ الحرية الفكرية، والعقائدية، والشخصية، من المباديء الأساسية التي دعمت قيام المكتبات العامة ومساندتها في الولايات المتحدة. وقد أنشئت أول

مكتبة عامة في أمريكا بتمويل حكومي في مدينة «بيتربورغ: -Petrob rough» عام ١٨٣٣م. وبنجاح التجربة بدأ إنشاء المكتبات العامة الممولة من الدولة، يأخذ مساراً تطوريا، ومتناميا في الولايات المتحدة الأمريكية.

يُعـد «اندرو كارنيجي: Andrew Carnegie» رجل الصناعة الواسع الثراء، من الرواد الأوائل الذين ساهموا في إنشاء وتطوير المكتبات العامة في أمريكا، وكانت مساهماته السخية، من الأهمية بمكان بحيث ارتبط اسم كارنجيى بتـاريخ المكتبـات العـامة الأمريكية. فقد قام بمفرده، بتمويل بناء ألف وسبعمائة مكتبة عامة على الأراضي الأمريكية، خلال الأعوام ١٨٨١-١٩١٩م. أما في خارج أمريكا، فقد موَّل إنشاء ثماني مئة مكتبة عامة في البلدان الناطقة بالإنجليزية. وبدأت المكتبات الخاصة في امريكا، بمجموعات كبار المهاجرين، الذين جمعوا الكتب واقتنوها لبناء مكتباتهم الخاصة. ويُذكر في هذا الصدد، «ويليام بيرد: William Byrd» «أنكريزا ماذر: Increasa Mather» و «توماس جيفرسون: -Tomas Jef ferson». والجـدير بالذكر أن الكونجرس الأمريكي، قام بشراء مقتنيات مكتبة جيفرسون عام ١٨١٥م، ليعيد بناء مكتبة الكونجرس التي احترقت أثناء حرب الاستقلال الأمريكية عام ١٨١٤. (الحرب نفسها أندلعت عام ١٨١٢م).

حققت الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن الثامن عشر، تقدما كبيرا في مجال الخدمات المكتبية. وقد تضاعفت أعداد المكتبات العامة خلال هذا القـرن، بدرجة مذهلة، مما جعل خدمات شبكة المكتبات العامة في أمريكا تصل إلى معظم المقيمين على أراضيها. ولنا أن نتخيل أن مكتبـة واحدة في القرن التاسع عشر، ونعني بها مكتبة الكونجرس الأمريكي، كان بها في ذلك الوقت أكثر من مليون وعاء (الجدير بالذكر أنه بحلول عام ١٩٨٠ كـان لدى الولايات المتحدة أكثر من ١٥٠ مكتبة تمتلك كل منهـا اكثر من مليون وعاء). كما شهد أيضا القرن التاسع عشر، نهضـة مكتبـة كبـيرة في الأنـواع الأخـرى من المكتبات، حيث

تضاعف عدد المكتبات المتخصصة والمكتبات المدرسية أضعافا مضاعفة.

وكان اهتمام الحكومات الفيدرالية المتعاقة بإنشاء المكتبات خلال القرن الثامن عشر كبيراً، وتُخصص له الميزانيات الضخمة من الخزينة العامة، وقد أقيم خلال هذا القرن عدد من المكتبات القومية الهامة، مثال «المكتبة القومية الزراعية: National Library of Agriculture» ، و «مكتبة الجراحين العموميين: Library of the Surgeon General office» ، التي أصبحت فيها بعد «المكتبة القومية الطبية: National library of Medicine» ـ ولا ننسى، في هذا الصدد، أن هذا القرن شهد إنشاء أكبر وأهم مكتبة عرفتها الولايات المتحدة، وهي مكتبة الكونجرس الأمريكي.

وحاليا، يجري التخطيط لقطاع المكتبات على المستوى القومي، فمنذ عام ١٩٧٠، أنشئت اللجنة القومية للمكتبات وعلوم المعلومات، ومهمتها دراسة كافة الخطط المتعلقة بالمكتبات وخدمات المعلومات على المستوى القومي، والتنسيق بين كافة البرامج الفيدرالية والمحلية للوصول إلى الحد الأقصى للاستفادة منها في تطوير الخدمات في هذا المجال الحيوي.

مكتبة الكونجرس

تقع في مدينة «واشنطن: Washigton D.C» عاصمة الولايات الأمريكية، وتعد بمثابة المكتبة الوطنية والتشريعية لأمريكا. وكان قد صدر قرار بإنشائها من الكونجرس الأمريكي بتاريخ ٢٤ أبريل ١٨٠٠م. وتولى «توماس جيفرسون: Thomas Jefferson» (١٧٤٣ - ١٨٢٦) مسئولية أمانتها، كأول أمين لها بعد إنشائها. تعرضت هذه المكتبة لحريق ضخم إبان حرب الاستقلال الأمريكية، حيث قام الجنود البريطانيون، بإحراقها خلال المعارك، وأتت النيران على معظم مقتنياتها عام ١٨١٤م. قرر الكونجرس الأمريكي، بعد إنتهاء الحرب، إعادة بنائها مرة أخرى. وقد عرض جيفرسون ـ الذي تولّى أمانتها في السابق ـ مكتبته الخاصة على الكونجرس لتكون نواة للمكتبة الجديدة المزمع انشاؤها، وبالفعل

ووفق على العرض، وتم شراء المكتبة المذكورة بمبلغ خمسة آلاف دولار أمريكي، ممَّا أتاح افتتاح المكتبة للمرة الثانية عام ١٨١٥م، وتولّى أمانتها هذه المرة «جـورج واتـرسـون: George Waterson». وبـدأت المسـيرة التطورية للمكتبة منذ ذلك التاريخ. كانت أول ميزانية مخصصة لها تبلغ خمسـة آلاف دولار أمـريكي سنويا، وما أن جاء عام ١٨٥١م، حتى أصيبت المكتبة بنكبة أخرى، أتت على أكثر من نصف ما تحتوية من مقتنيات، نتيجـة لحريق هائـل (غير متعمد) ولم يتبق من مقتنياتها إلا حوالى عشرين الف مجلد، من حوالي خمسين ألف مجلد، كانت بها قبل الحريق. وأعيد بناؤها مرة أخرى مع مراعاة الاحتياطيات اللازمة لتلافي أخطار الحريق في المستقبل. خصصت لها ميزانية (٧٥,٠٠٠) دولاراً، لتجديدها وتعويض ما فقدته من مقتنيات.

وفي عام ١٨٦٧م، أعلنت إدارة المكتبة عن استعدادها لشراء مكتبات الأفراد الخاصة. وبالفعل، تقدم الكثيرون بعروض إلى الكونجرس، وتم شراء عدد من المكتبات الخاصة ذات القيمة الثقافية والعلمية الكبيرة، ويذكـر، في هذا الصـدد، مكتبـة «بيترفـورس: Peter Fource» ، و «جيمس بينزو: Jeames Pinzo» . هذا وقد تنوعت مصادر تنمية مقتنيات مكتبة الكونجرس، ويعد من أهمها، ما تحصل عليه نتيجة لتمتعها بحق الايداع القـانـوني، الـذي يطبَّق لصالحها منذ صدوره عام ١٨٧٠م، والذي يخول لها الحق في الحصول على نسختين من كل مطبوع، يُنشر داخـل الـولايات الأمـريكية، بالإضافة إلى مكاتبها وممثليها في الخارج المنتشرون في جميع أنحاء العالم، ومهمتهم شراء جميع أنواع المطبوعات التي تناسب المكتبة، وبجميع اللغات.

تحتـل المكتبة الآن، مبنيين ضخمين، يضمان أقسامها الرئيسية التي تبلغ ثماني عشرة وحـدة تخصصية، وهي: الإيداع، وقسم الخـدمـات الفنية، وشعبة الاعارة، وقسم المراجع، والمكتبة القانونية، وشعبة خدمات المعوقين، وشعبة الخرائط، وشعبة المخطوطات، وشعبة أمريكا اللاتينية،

وشعبة المجموعات الشرقية، وشعبة اللغات السلوفاكية وأواسط أوربا، وشعبة الكتب النادرة، وشعبة العلوم والتكنولوجيا، وشعبة الدوريات، وشعبة الموسيقى، وشعبة المخازن والقراء، وشعبة الاستنساخ والتصوير، والادارة.

يقدر رصيد المكتبة ـ حاليا ـ من المقتنيات بأكثر من (١٠٠) مليون وعـاء معلومـات، ما بين أوعية مطبوعة بجميع أنواعها، ومخطوطات، ووثائق، ومواد سمعية وبصرية، وأوعية معلومات مستحدثة، وتتبع مكتبة الكونجرس خطة تصنيف خاصة بها تُعرف «بتصنيف مكتبة الكونجرس: Library of Congress Classification Scheme» ، ويختصر إلى (L.C) ، كما تستخدم نظام فهرسة آلي، يعرف بأسم "USMARC" ، وهو الذي تنتج به بطاقات الفهرسة لأوعية المكتبة، حيث تقوم بتوزيعه ـ أيضا ـ على المكتبات المشتركة في النظام، داخل الولايات المتحدة وخارجها.

ومن الـطبيعي أن مكتبة بهذا الحجم يكون لها سماتها الخاصة التي تميزها عن مثيلاتها، سواء من زاوية المقتنيات، أو من زاوية الخدمات التي تؤديهـا على المستـوى القـومي والمحلي والعالمي. فهي مؤسسة معلوماتية اختزانية متفردة، وتعد أكبر مؤسسة من نوعها على مستوى العالم، وتقدم من الخـدمـات مايفـوق أي مكتبـة أخـرى في العـالم. ويقـدر عدد الاستشارات التي تجيب عليها المكتبة سنويا بملايين الاستفسارات التي ترد إليهـا من داخـل الولايات المتحدة وخارجها. وللقيام بهذه الخدمة المميزة، تستعـين المكتبة بأعداد هائلة من الموظفين والفنيين ا لمؤهلين، سواء لعمليات رصد الانتاج الفكري العالمي واقتنائه، أو لتنظيمه وتحليله وتحـويله الى خدمـات معلوماتية. وتطبِّق المكتبة احدث ما وصلت إلى تكنولوجيا المعلومات في العصر الحديث، وهي أقرب مكتبات العالم لصفة العالمية.

المكتبة القومية الطبية National library of Medicine (N.L.M.)

أُنشئت عام ١٨٣٦م، بمسمى مكتبـة الجراحين العموميين، لجيش

الولايات المتحدة، ثم تعدل أسمها عام ١٩٢٢، ليصبح «المكتبة الطبية العسكرية: Army medical library» ثم أصبحت عام ١٩٥٢م «المكتبة الـطبية للقـوات المسلحـة: Army Forces Medical library» ثم أعيد تسميتها لآخر مرة عام ١٩٥٦، لتصير «المكتبة القومية الطبية»، ومقرها مدينة «باثيسدا Bathesada» ، بولاية ميدلاند، وأصبحت تتبع خدمات الصحـة العامة، لادارة الصحة والتعليم والخدمات. تقوم هذه المكتبة بدور فعال في تقدم العلوم الطبية، والعلوم الأخرى المتصلة بها، وذلك عن طريق توفـير المعلومات ونشرها في مجال الطب والصحة العامة وما يتعلق بهما من موضوعات. أنشأت هذه المكتبة عام ١٩٧٠ اول خدمات للحاسب الآلي في مجال المعلومات الطبية في العالم، ويطلق عليه «الطب ـ مبـاشر: MEDLINE» حيث تقـوم من خلاله بالبحث الببليوجـرافي المباشر On-line عن الانتاج الفكري في مجال الطب، وذلك في مرصد نظام تحليل واسترجاع المؤلفات الطبية، نتاطبية: Medical Literature Analysis and Retrieval System MEDLARS وهو نظام متقدم لتخزين واسترجاع المعلومات في مجال الطب، يسمح للمستفيد بالبحث في ملفات النظام، حيث توجد إسنادات لمقالات حديثة ظهرت في حوالي ١١٠٠ دورية طبية، مخزنة في ملفات النظام، ويقوم "MEDARS" بنشر Index Medicus (شهريا)، و Index Rheumalology (نصف شهري)، بجانب نشره للعديد من الببليوجرافيات الطبية.

مكتبة نيويورك العامة الكبرى New York Public Library

تُعـد مكتبـة نيويورك العامة، من أكبر المكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويرجع تاريخ إنشاء هذه المكتبة إلى عام ١٨٤٨م، حينـما قام «جـون جاكـوب أستـور: John J. Astor أحد أثرياء مدينة نيويورك بإهدا مبلغ (٤٠٠) ألف دولار، لتأسيس مكتبةعامة بنيويورك. وبـالفعـل تم إنشاء مكتبة بهذا المبلغ عام ١٨٤٩، وفي عام ١٨٨٠م

أُقيمت مكتبة ثانية، بتمويل من «مؤسسة لينوكس: -Lenox Founda tion»، وعنـد وفـاة رجل الأعمال «صمويل تيلدن: Samwel Tilden» أوصى بتخصيص جزء من ثروته لإنشاء مكتبة عامة بمدينة نيويورك، ومن ثم، جُمعت تلك الهبات الثلاث معا، وإقيمت بها مكتبة نيويورك العامة عام ١٨٩٥م.

بحلول عام ١٩٠١، توسعت مكتبة نيويورك العامة، وأنشأت (٦٥) فرعـا جديدا. وكان ذلك نتيجة للمنحة السخية التي قدمتها «مؤسسة كارينجي: Carengie Foundation»، التي أقامها رجل الصناعة «أندرو كارينيجي: Andrew Caringie» وهو واحد من أهم من ساهموا في إنشاء المكتبات العامة في الولايات المتحدة ورعايتها (أنظر المادة العلمية حول هذا الموضـوع في مقدمة هذا الفصل). وتُشرف اليوم مكتبة نيويورك العامة، على شبكة خدمات مكتبية تشتمل على مكتبات إعارة، ومكتبات اشتراك، وتنظم خدمات التبادل والإعارة بين مكتبات الشبكة. ويبلغ مجموع مقتنياتها، اكثر من عشرة ملايين مجلد، ويصل عدد فروعها قرابة مئتي فرع موزعة على جميع أنحاء الولايات المتحدة.

كنــــدا

يرتبط تطور المكتبـات الكنـدية، إلى حد بعيد، بتـطور مثيلاتها في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أنشئت أول مكتبة جامعية في كندا عام ١٦٣٥م، وتتبع كلية الجزويت بمقاطعة الكيوبيك "Library of Jesuit College of Qubec" أما المكتبة الوطنية الكندية فقد أُنشئت حديثا في أوتاوه Ottawa عام ١٩٥٣م.

مكتبات أمريكا اللاتينية (أمريكا الجنوبية):

يبدأ تاريخ المكتبات في أمريكا اللاتينية منذ القرن السادس عشر، عنـدما قام الغزاة، والتجار، والقساوسة والمستغربون الأسبان، بجلب مجموعات الكتب والوثائق معهم عند قدومهم إلى امريكا اللاتينية، خلال

القرنين السادس والسابع عشر (١٥٠٠/١٦٠٠م).

وقـد ظهـرت المكتبات الجامعية، كأول أنواع المكتبات في دول أمريكا الجنـوبية. وتعـد مكتبات جامعة «سانت دومنجو: Santo Domingo» التي أُنشئت عام ١٥٣٨م في «جمهورية الدومنيكان: Dominicon republic» ، وجامعة "National Aufonomous" في مدينة «المكسيك: Mexico City» ، بالمكسيك، وجامعة «سان ماركوس: San Marcos» في مدينة «ليما: Lima» في بيرو، التي أنشئت ـ جميعها ـ خلال عام ١٥٥١م، وهو نفس تاريخ إنشاء الجامعات التي انتُسبت إليها ـ تعد تلك المكتبات من أوائل المكتبات الجامعية في أمريكا اللاتينية.

أما أكبر المكتبات الوطنية وأقدمها في أمريكا اللاتينية، فقد أُنشئت خلال القرن التاسع عشر الميلادي. ففي الأرجنتين أُنشئت المكتبة الوطنية الأرجنتينية في العاصمة «بونيس أيرس: Buenos Aires» وتزامن تاريخ إنشائها مع إنشاء مكتبة البرازيـــل الوطنية في ريودي جانيرو Rio de Janeiro عام ١٨١٠م، والجدير بالذكر أن مكتبة البرازيل الوطنية، تُعد من أبـرز المكتبات الوطنية على مستوى أمريكا اللاتينية، حيث تحتوي مجموعة مقتنياتها على مجموعات ضخمة من الوثائق والمخطوطات الأثرية، والنقـوش القـديمة، كما تتضمن كتباً برتغالية نادرة حصلت عليها من المكتبة الملكية البرتغالية، أثناء أحتلال نابليون للبرتغال عام ١٨٠٨م. أما المكتبة ا لوطنية في شيلي Chile فقد أُنشئت في مدينة سانتياجو Santiago عام ١٨١٣م. في حين أنشئت مكتبة اورجواى الوطنية Bibliotheca Na-tional del urguay عام ١٨١٦م. ولم نظهر المكتبة الوطنية المكسيكية الى الوجود إلا عام ١٨٣٣م.

تُعد البرازيل في مقدمة دول أمريكا اللاتينية في إنشاء المكتبات العامة في القرن السادس عشر، وتبعتها الأرجنتين، وشيلي، ثم كولومبيا. ومن أوائل المكتبات العامة في البرازيل، تلك التي أقيمت في ريودي جانيرو. Riode Janiro ، و ريسيف Recife ،و ساوليز Saolais ، وكورتيبا

Curitiba ، وبيلو هوريزونتا Belo Horizonta ، وساو باولو Sao Paulo ، كما توجد أيضا مكتبات عامة في كل من ميدلين Medellin في كولومبيا Colombia وبـونيس أيرس Buenes Aires في الأرجنتـين Argentina ، ولوباز la Paz في بوليفيا Bolivia ، وهافانا Havana في كوبا Cuba.

من مكتبات منطقة الكاريبي:

تعد المكتبات المركزية في «ترينادا» و «توباجو» من اكبر المكتبات في منـطقـة الكاريبي، حيث تحتوي كل منهما على اكثر من (٢٠٠) ألف كتاب. وتُعد مكتبة «ترينداد العامة: Trinidad Public library ، التي إنشئت في "Port of Spain" عام ١٨٥١م، أقـــدم مكتبـة في منـطقـة «الـــويست آنـديز: West Indes» وتُعـد المكتبـة المـركـزية العـامـة في «كينجستون: Kingston» ، في جاميكا من أكبر المكتبات العامة بمنطقة الكاريبي واكثرها مقتنيات.

ومن شخصيات الحضارة الأوربية التي لها علاقة بالكتابة والكتب والمكتبات:

جوهان جوتنبرج (١٣٩٧ ـ ١٤٦٨) Johann Goethenberg

مخترع ألماني، اكتشف تقنية الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة، على الرغم من الإدعاءات التي تُنسب إلى لورنس يانسون كوستر، ويامفيليو كاستالدى وغيرهما. من المرجح أنه ولد في بلدة ماينز، وعاش في مدينة ستراسبورج بالمـانيا، حيث قام باختراع آلة الطباعة بالحروف المتحركة مابين الأعوام ١٤٣٦ و ١٤٣٧م. أنشأ مطبعة ماينز، حيث طبع «إنجيل مازارين: Mazzarin bible» ، ومن ثم أصبحت المـدينة مركز طباعة، أضطر في آخر أيامه إلى أن يبيع مطبعته إلى جوهان فوست لكي يسدد ما عليه من ديون.

جول مازارين (١٦٠٢ ـ ١٦٦١م) Jules Mazzarin

كاردينال إيطالي، كبير وزراء لويس الثالث عشر (١٤٦٢ ـ ١٥١٥م) Louis XIII ، ولويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥م) Louis XIV ، ملكي فرنسا، أسمه الأصلي جوليو مازاريني. خدم في الجيش البابوي (١٦٣٤ ـ ١٦٣٦م)، صار كردينالا عام ١٦٤١، امتلك مكتبة ضخمة عُرفت بإسمه لازالت قائمة في فرنسا، كان أمينها جبرائيل نودية Gabriel Noude المكتبي الشهير الذي ألف كتاب «آراء حول تنظيم المكتبة: Avis pour dresser une bibliotheque» الذي يُعد من أوائل الكتب في أوروبا التي تناولت المكتبات كموضوع لها.

سُمى أول إنجيل طبعه جوهان جوتنبرج على اسم مازارين (إنجيل مازارين)، نتيجـة لاكتشـاف أول نسخـة ه هذا الأنجيل في مكتبته السـابقـة الـذكـر. وهـو ذات الأنجيل الذي أطلق عليه أيضا إنجيل جوتنبرج، وإنجيل الـ ٤٢ سطراً، ويوجد منه بالعالم حاليا ٤١ نسخة فقط

وليام فريدريك بول (١٨٢١ - ١٨٩٤) William fredrick Poole

معـاصر لملفـل ديوي. وهـو أيضـا من مؤسسي جمعية المكتبـات الأمريكية، ورأسها خلال الأعوام ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧م. وأسس عدداً من المكتبـات بالولايات المتحدة، منها «مكتبة نيوبرى: Newberry library» ، في شيكـاغـو، و«مـكتبـة شيكـاغـو العـامـة: Chicago Public library» ، و«مكتبة اركان القوات البحرية الأمريكية: Library of USNA» . وقد عاش طوال حياته الأكاديمية والعلمية في خلاف حاد مع ملفل ديوي، حيث كان لكليهما وجهة نظر مختلفة عن الآخر تماما، فيما يتعلق بقضايا المجالات الفنية والفلسفية، ويُعد «كشاف بول للكتابات الدورية: Poole's Index to Periodecal literature» من أهم الأعمال التي قام بها في حياته العملية.

تشارلز أيمى كتر Charles Ammi Cutter

خدم كتر Cutter لسنين عديدة كمدير لمكتبة بوسطن أثينيوم Boston Athenaum ، وهي إحدى أشهر المكتبات الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنشأ أثناء عمله في هذه المكتبة نظام تصنيف لترقيم الكتب على الأرفـف طبقـا لمدخـل المؤلف، سمى «التصنيف التـوسعي أو التمـددي: Expansive Classification (EC)» ، كما طور نظام رمـوز يهدف إلى ترتيب الكتب هجائيا باستخدام رموز مختصرة سمى برقم كتر Cutter number ، ويسمى أيضا Cutter author (علامة/ رمز المؤلف). ولا زال كتابه «قواعد إعداد الفهرس القاموسى المطبوع «Rules for a Printed Dictionary Catalogue» ، الذي نشره عام ١٨٧٥م، يُعد من أهم الأعمال التي كتبت في مجال المكتبات. ويُعد كتر Cutter من مؤسسى جمعية المكتبـات الأمـريكية A.LA ، وقـد ساعد أيضا في إنشاء مجلة المكتبات Library Journal.

جون شو بيلنج (١٨٣٨ - ١٩١٣) John Show Billing

كان بيلنج طبيبا جراحا، ومع ذلك ساهم بشكل كبير في مجال المكتبات. عُين بعد الحرب الأهلية الأمريكية مسئولا عن مكتبة الجراحين العامة في العاصمة الأمريكية «واشنطون». وقد عمل «بيلنج : Billing» ، على تنمية مقتنيات هذه المكتبة لترتفع من (٦٠٠) مجلد إلى أكثر من (٥٠)ألف مجلد، خلال فترة عمله، وقد تزامن في هذه الفترة بداية ظهور الكشاف الطبي الشهير Index Medicus الذي تحول فيما بعد إلى Med-lers.ويعد (بيلنج) من مؤسسي «مكتبة نيو يورك العامة: New York» Public library ، وقد أشرف بنفسه على وضع التصميم والتنفيذ لعديد من مباني المكتبات في مدينة نيويورك، كما شارك بجهد فعال في تنمية مقتنياتها.

ملفل ديوى (١٨٥١ - ١٩٣١م) Melville louis Kossuth Dewey

ولد ديوي في العاشر من ديسمبر ١٨٥١م، وقد اختصر أسمه الى ملفل Melvil وأسقط الجزء الأول من اسمه، كما حاول أن يختصر اسم عائلته إلى Dui.كان ديوى رجلا متعدد الاهتمامات، وشغل العديد من المناصب في المكتبات التي التحق بها بعد تخرجه «من كلية أمهرست: Amherst College» ، بدأها بعمله بالكلية نفسها التي تخرج فيها كمساعد مكتبي. وقام خلال عمله هذا بوضع نظامه للتصنيف العشري (١٨٧٦م) الذي عُرف باسمه «تصنيف ديوى العشري: Dewey De-cimal Classification» ، ويختصر عادة إلى "D.D.C" ويُعد ديوى من المؤسسين لجمعية المكتبات الأمريكية A.L.A ، وعندما شغل منصب مدير مكتبة كلية كولومبيا Columbia College library في مدينة نيويورك، سعى الى تأسيس أول مدرسة مكتبات لتعليم وتدريس مهنة المكتبات، وتأهيل مكتبيين أكاديميين للمجال. ومن خلال تدريسه وكتاباته ومحاضراته استطاع أن يدعم مهنة المكتبات خلال هذه الفترة. يعد

تصنيفه الـذي وضعه عام ١٨٧٦م من أشهر التصنيفات العالمية، ويستخدم حاليا في معظم مكتبات العالم.

جون كوتون دانا (١٨٥٦ - ١٩٢٩م) John Cotton Dana

قام «كـوتـون دانـا» باستنبـاط العـديد من العمليات المكتبية التي ساعدت على قيام المكتبات بتقديم خدمات أفضل إلى المستفيدين. وكانت أفكار دانا Dana عن الكتب والمكتبات، تعد أفكاراً ثوريه بمقاييس عصره، فقد كان يؤمن أن الكتب يجب أن تكون في حالة حركة دائمـة، ومستخدمة بإستمرار Circulation ، بدلا من أن توضع على الأرفف حيث تظل في حالة سكون وغير مستفاد منها. وقد حاول تطبيق مفاهيمه هذه من خلال عمله في العديد من المكتبات التي شغل مناصب فيها، مثل «المكتبة العامة في دينفر: Denver Public library» ، و «مكتبة سبرنج فيلد: Springfield library» في ولاية ماسشوسيت Mas-sachusetts ، و«مكتبة نيوجرسى العامة: New Jersey Public library». يُعد دانا من مؤسسي جمعية المكتبات المتخصصة Special library Associ-ation ، وعمل أول رئيس لها، كما شغل منصب رئيس جمعية المكتبات الأمريكية A.LA ، خلال الأعوام ١٨٩٥-١٨٩٦م.

هنرى أفلين بليس (١٨٧٠ - ١٩٥٥م) Henry Euelyn Bliss

واضع ما يسمى «بالتصنيف البيليوجرافي: Bibliographic Classifi-cation (BC)» ويشار إلى خطة التصنيف هذه غالبا باسمه، فيقال: "Bliss Classification". لم ينشر بليس تصنيفه إلا بعد مرور ثلاثين عاما من وضعه، بعكس ما فعله ديوى الذي نشر نظامه العشري فور اكتماله. عمل بليس لسنوات طويلة في مكتبة كلية مدينة نيويورك. College of the city of New York. ، حيث طبق نظامه، وقد نشر التصنيف الببليوجرافي في أربع مجلدات، مابين ١٩٤٠ - ١٩٥٣م، كما أن الهيكل العام للتصنيف، نشر في مجلد واحد عام ١٩٣٥ ، بعنوان «نظام التصنيف

البيليوجرافي: A System of Bibliographical Classification» وقد أُعيد نشره عام ١٩٧٦م، وصدر في ثلاثة أقسام موضوعية من الأقسام الثمانية عشر التي يشملها التصنيف، مع مجلد يحتوي على المقدمة. ويتابع هذا العمل، مجموعة عمل مقرها لندن، العاصمة البريطانية.

س. ر. رانجناثان S. R. Ranganathan

صاحب واحد من التصنيفات الخمسة الشهيرة في العالم، وهو ما يسمى «بتصنيف الكولون: Colon» كان رانجناثان أحد المفكرين الهنود في مجال التصنيف المكتبي، وألف عدة كتب، كما كتب العديد من المقالات في التصنيف الوجهي والتكشيف. وتأثير رانجناثان في هذا المجال، يضاهي تأثير «ديوي» أو «كتر» في الولايات المتحدة، أو تأثير «جيمس براون» في انجلترا، فقد نشأت مدرسة كاملة نتيجة لمفاهيمه الأساسية في التصنيف، كما بدأ حديثا، وخاصة في أوروبا، اهتمام جدى بأنظمة التصنيف الوجهي. وهدف تصنيف كولون هو تحليل الموضوع الى عناصره أوجهه، وذلك على عكس أنظمة التصنيف الحصرية، فتصنيف الكولون هو تصنيف تحليلي تركيبي وليس تصنيفا حصريا. وقد نشرت طبعته الأولى عام ١٩٣٣م، ثم ظهرت له طبعات متوالية في الأعوام، ١٩٣٩، ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٧، ١٩٦٠، ١٩٦٣. ويطبق هذا التصنيف في عديد من مكتبات العالم، وخاصة في شبه القارة الهندية.

المراجـــع

١ ـ الإسـلام والحضـارة العربية/ محمد علي كرد .ـ ط ٢، مزيدة ومنقحة .ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠.

٢ ـ أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي/ سعيد أحمد حسن .ـ عمان: دار الفرقان، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣ ـ البستان/ عبد الله البستاني .ـ [د: ن]، ١٨٩٠م.

٤ ـ بيت الحكمـة في بغـداد وأثـره في الحياة العلمية والثقـافية العـربية/ خضر جاسم محمد الدروي، غانم عبد الله خلف .ـ التربية والتعليم ع، ٩، ١٤٠٩هـ .ـ ص١٦٧ـ١٨٣.

٥ ـ بيت الحكمـة في بغـداد وأثـره في النهضـة الفكـرية خلال العصر العبـاسي/ سليم طه التكريتي .ـ العربي، ع ٢١٣، أغسطس ١٩٧٩ .ـ ص ١٢٦ـ ١٣٠.

٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس/ محمد الحسن .ـ [د. ن]، ١٨٩٠.

٧ ـ تاريخ التربية الإسلامية/ أحمد شلبي .ـ بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٤.

٨ ـ تاريخ الفكر الأندلسي/ أنخل جنثالث بالنثياب؛ ترجمة حسين مؤنس .ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥.

٩ ـ تاريخ الفلسفـة في الإسـلام/ ت. ج. بور؛ تعـريب عبـد الهادي أبو ريدة .ـ ط٢ .ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧.

١٠ ـ تاريخ الكتـاب/ أريك دي جروليبه؛ ترجمـة خليل صابات .ـ القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٣.

١١ ـ تاريخ الكتاب/ ستيبثفيتش الكسندر؛ ترجمة/ محمد م. أرناؤط .ـ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والأدب، ١٩٩٣.

١٢ ـ تاريخ الكتابة وأدواتها/ ديمتري نقولا .ـ المقتطف، مج٥، ذو الحجة ١٣٣٢هـ ـ نوفمبر ١٩١٤م .ـ ص ٤٨٠ـ٤٨٦.

١٣ ـ تاريخ المكتبات/ الفرد هيسيل؛ ترجمة شعبان خليفة .ـ القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٣.

١٤ ـ تاريخ مصر في عهـد البـطالـة/ إبراهيم رضحى .ـ ط٣ .ـ القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦٦.

١٥ ـ ترتيب القـامـوس المحيط على طريقـة المصبـاح المنـير وأسـاس البلاغة/ الطاهر أحمد الزاوى .ـ ط ٥ .ـ القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٧٣م.

١٦ ـ ثورة الكتاب/ روبير أسكاربيه؛ ترجمة اللجنة الوطنية اللبنانية .ـ باريس: اليونسكو، ١٩٦٦.

١٧ ـ الحاكم بأمر الله الفاطمي ودار الحكمة/ محمد ماهر حمادة .ـ المجلة العربية، ع، ت ـ ص٥٩ـ٦١.

١٨ ـ حضارة الاسلام/ جوستاف جرونياوم ؛ تعريب عبد العزيز جاويد .ـ القاهرة : [د. ن)، ١٩٦٠ .
١٩ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ أدم ميتز؛ تعريب عبد الهادي أبو ريدة .ـ ط٢، مزيدة ومنقحة .ـ القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨ .
٢٠ ـ حضارة العرب/ جوستاف لوبون؛ تعريب عادل زعيتر .ـ ط٣ .ـ القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٦ .
٢١ ـ الخدمات المكتبية : تاريخ الكتابة والمكتبة/ عبد الله أنيس الطباع .ـ بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٦ .
٢٢ ـ خزائن الكتب في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة/ كوركيس عواد .ـ بيروت : دار الرائد العربي، ١٩٨٦ .
٢٣ ـ الخليفة الأموى الحكم المستنصر/ وفاء عبد الله المزروع .ـ جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع، [ـ١٩٨] .
٢٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية/ أحمد الشناوي .ـ بيروت : دار المعرفة، ١٩٣٣ .
٢٥ ـ دائرة معارف الشباب/ فاطمة محجوب .ـ القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٦٢ .
٢٦ ـ دائرة معارف القرن العشرين/ محمد فريد وجدي .ـ [د. ن]، ١٩٧١ .
٢٧ ـ دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة/ عاصم أحمد حسين .ـ القاهرة : غاديكو، ١٩٩١ .
٢٨ ـ دراسات في الحضارة/ لويس عوض .ـ القاهرة : دار المستقبل العربي، ١٩٨٩ .
٢٩ ـ دراسة موجزة في تاريخ الكتب والمكتبات/ جين كي جيتس؛ ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ .ـ: الكويت : مؤسسة الوحدة، ١٩٧٨ .
٣٠ ـ دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط/ يوسف الحسـ ترجمة عن الفرنسية نزار أباظة، محمد صباغ .ـ بيروت : دار الفكر المعاصر، ١٩٩١م .
٣١ ـ سابور بن اردشير وتأسيسه دار العلم ببغداد/ الحبيب الشاوس .ـ حولية الجامعة التونسية العدد ١٣، ١٩٧٦ .ـ ص ٥٨ ـ ٧٥ .
٣٢ ـ الصحاح في اللغة والعلوم/ عبد الله العلايلي .ـ [د. ن]، ١٩٧٤ .
٣٣ ـ الصحاح في اللغة والعلوم : معجم وسيط/ نديم المرعشلى، اسامه المرعشلى .ـ بيروت : دار الحضارة، ١٩٧٥ .
٣٤ ـ صور من المكتبات الوطنية حول العالم/ يونس عزيز .ـ بنغازي : جامعة قاريونس، ١٩٨٧ .
٣٥ ـ عصر الاسكندرية الذهبي : رواية مصرية علمية/ نبيل راغب .ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .
٣٦ ـ عصر المأمون/ أحمد فريد الرفاعي .ـ ط ٢ .ـ القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٢٨ .
٣٧ ـ العصر الهيلينيتي : مصر/ مصطفى العبادى .ـ بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨١ .
٣٨ ـ فتح العرب لمصر/ الفرد. ج. بتلر؛ ترجمة محمد فريد أبو حديد . القاهرة : مكتبة مدبولي، ١٩٩٠ .
٣٩ ـ قرطبة في العصر الإسلامي/ أحمد فكري .ـ الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣ .

٤٠ ـ قصة الحضارة/ ول ديورانت، تعريب أحمد بدران .ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ ١٩٥٠.

٤١ ـ قطر المحيط/ بطرس البستاني .ـ بيروت: مكتبة لبنان، [ـ ١٩].
٤٢ ـ الكتب الاسلامية/ محمد محمد أمان؛ ترجمة سعد بن عبد الله الضبيعان .ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٠.
٤٣ ـ لسان العرب/ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور .ـ بيروت: دار صادر، ١٣٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٤٤ ـ لمحات في تاريخ الكتب والمكتبات/ عبد الستار الحلوجي .ـ القاهرة: دار الثقافة للنشر، ١٩٨٥.
٤٥ ـ لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات/ عبد اللطيف الصوفي .ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧.
٤٦ ـ مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي .ـ بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨٧.
٤٧ ـ مشكلات الكتاب العربي من الصناعة الى القراء/ عبد الوهاب أبو النور .ـ عالم الكتاب، ع٦، مج١٤. ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. ص ٦٠٩-٦٢٧.
٤٨ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرفاعي/ أحمد بن محمد علي المقري الفيومي .ـ ط٦ .ـ القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٢٦م.
٤٩ ـ معجم فقه اللغة: موسوعة لغوية حديثة/ على رضا .ـ بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.
٥٠ ـ المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية .ـ القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٦٠، ١٩٦١م.
٥١ ـ مقدمة في تاريخ الكتب والمكتبات/ نسيبه عبد الرحمن كحيلة .ـ جدة: دار البيان العربي، [ـ١٩٧].
٥٢ ـ المكتبات الوطنية: تاريخها، وظائفها، واقعها/ عبد العزيز النهاري .ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، [ـ ١٩٨].
٥٣ ـ مكتبات بغداد وموقف المغول منها/ محمد صالح محي الدين محمد .ـ مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع ٥، ١٩٨١. ص ٨١ ـ ١١٣.
٥٤ ـ مكتبات خالدة: مكتبة بغداد العباسية/ محمد جبر أبو سعدة .ـ مجلة الأزهر، المحرم ١٣٨٨هـ، أبريل ١٩٦٨م. ص ٣٠١ـ٣٠٧.
٥٥ ـ المكتبات العربية في العصر العباسي/ أولجا بينتو .ـ الثقافة الإسلامية، مج٣، ١٩٢٩.
٥٦ ـ المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها/ محمد ماهر حمادة. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦.
٥٧ ـ المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين/ محمد ماهر حماده .ـ الرياض: دار العلوم، ١٩٨١.
٥٨ ـ المكتبات وهواة الكتب في أسبانيا الإسلامية/ خوليان ريبيرا؛ ترجمة حجال محرز .ـ مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٤، ج١، مايو ١٩٥٨.

٥٩ - مكتبة الاسكندرية القديمة/ مصطفى العبادى .- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧.

٦٠ - مكتبة الإسكندرية القديمة: لمحة تاريخية/ سعد عبد الله الضبيعان .- العصور، ع١، ١٩٨٩. ص ٧ - ٣٣.

٦١ - مكتبة الأمويين بالأندلس: كبرى مكتبات أوربا في العصور الوسطى/ عبد الرحمن بن حمد العكرش .- مجلة المكتبات والمعلومات العربية، س١٢، ع١، يوليو ١٩٩٢ .- ص ٥-٦٦.

٦٢ - مكتبة الحكم الثاني المستنصر وثقافة أسبانيا الاسلامية/ ديفيد داسر شتاين؛ ترجمة وتعليق عبد الرحمن العكرش .- مجلة مكتبة ا لملك فهد الوطنية مج١، ع١، المحرم - جمادي الأخرة ١٤١٦ - يونيو - ديسمبر ١٩٩٥. ص ٧ - ٣٨.

٦٣ - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية/ أحمد شلبي .- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦.

٦٤ - الموسوعة العربية الميسره/ محمد شفيق غربال .- بيروت: دار النهضة، ١٩٨٠.

٦٥ - موسوعة المورد: دائرة معارف أنجليزية عربية مصورة/ منير بعلبكي .- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.

٦٦ - Alexandria library, in: world book Encyclopedia of library and Information Services, 2nd. ed./Sydney L. Jacson.– Chicago: ALA, 1986.– p.p. 39-41.

٦٧ - Anotomie d'une Annee Internationalle: L'annee du livre 1972/ Unesco.– Paris: Unesco. 1975.

٦٨ - The Arab Conquest of Egypt and the Last thirty years of Roman Dominion/ Alfred J. Butler.– 2nd.ed.– Oxford: The Clarendon Press, 1978.

٦٩ - Archaeological Glossary: English-Arabic/ M. Kamal Sidqi–. Riyadh: K.S.Univ., 1988.

٧٠ - La bibliologie: Introduction historique a une Science de l'ecrit, Tome 1: la bibliometre/ Robert Estivals.– Paris: SBS, 1978.

٧١ - The book before Printing-Ancient Medievel and Oriental/ David Diringer.– New York: Dover Pub. Inc, 1953.

٧٢ - The book in the multi.– Paris: Unesco, 1978.

٧٣ - Books and readers in ancient Greece and Rome/ Fredric G Kenyon.– 2nd ed.– Oxford; The Clarendon Press, 1951.

٧٤ - The Decline and Fall of Roman Empire/ Edward Gibbon.– London: Dent, 1969.

٧٥ - Encyclopedia Americana.– New York: Americana Corp, 1972.

٧٦ - EncycloPedia Britanica.– 15th ed.– Chicago: William Bentown.– 15th ed.– 1965– 1989.

٧٧ - Encyclopedic Dictionary Of Library And Information Science Terms: English-Arabic/ Ahmed M.El Shami, Sayed Hassaballah.– Al-Riyadh, Dar Al-Marikh, 1988.

٧٨ - Encyclopaedia Of LibrarinShip.– 3d ed.– London; Bowes & Bowes, 1958.

٧٩ - Famous Libraries of the world, thier history, collections and administration/

Margret Burton.– London: Grafton & Co., 1937.

٨٠- La Grand Encyclopedie Larousse.– Paris: Larousse, 1976.

٨١- The Illustrated Columbia Encyclopedia .– 3d ed..– New York: Rockvill House Pub. Inc., 1969.

٨٢- An International Survey of book production during the last decades/ Unesco.– Paris: Unesco, Division Of Statistics on culture and Communication office, 1982. (statistical Report and Studies no. 26).

٨٣- The Librarians' Glossary/ Leonard Montago Harrod.– London: Andre Deutch, 1977.

٨٤- Libraries and Founders of libraries/ Edwards Edwards.– New York: Burt Franklin, 1969.

٨٥- Libraries and librarianship in the West: A Brief History/ Sindy L. Jakson.– New York: McGraw Hill Book Comp., 1974.

٨٦- Library History/ James G. Olle .– London: Clive Bingly, 1971.

٨٧- The Life of Greece: The story of civilization/ Will Durant.– New York: Simon and Schuster, 1966.

٨٨- Manual Pour les Systemes et services d'information/ P. Atherton.– Paris: UNESCO, 1977.

٨٩- Merit Students Encyclopedia.– New York. : Macmillan Educational. Corporation, 1977.

٩٠- Moslem libraries (Medievel) in: Enyclopedia of Library and Information Science, Vol. 36 .– New York: Bowker, 1972.

٩١- The New Book Of Knowledge .– Grolier, 1979.

٩٢- The New Encyclopedia Britannica: Micropaedia.– 15th ed.– Chicago: William Bention, Helen Benton, 1975.

٩٣- New Standard Encyclopedia.– Chicago: Standard Educational Corporation, 1977.

٩٤- The Origins of the English Library/ Raymond Irwin.– London: George Allen and Unwin, 1958.

٩٥- Readings in Library History/ Leslie Dunlop.– New York: Bowker, 1972.

٩٦- Revival of the Ancient library of Alexandria/ Mohammed M. Aman.– library Times International, vol. 4, no4, 1988.– pp. 50-51.

٩٧- Science et technique de l'information et de la documentation/ C. Ghenchat, H. Menon.– Paris: Unesco, 1981.

٩٨- The Story of libraries and book collecting/ Evenest A. Savage.– New York: Burt Franklin, 1969.

٩٩- Terminology de la documentation/ W. Gront, V. Neveling.– Paris: UNESCO, 1976.

١٠٠- Traite de la documentation: le livre sur le livre, theorie et pratique/ Paul Otlet.– Bruxelles: Van Kecrberglum, 1934.

١٠١- The World Book Encyclopedia.– World Book Inc, 1986.

صحارا للطباعة   المنطقة الحرة - مدينة نصر - القاهرة

هذا الكتاب

يعتبر مدخلا تاريخياً للكتب والمكتبات، كُتب أساسا لطلاب أقسام علوم المكتبات والمعلومات، وطلاب أقسام التاريخ والحضارة بالجامعات العربية.

وقد بدأ الكتاب بالفصل الأول الذي خُصِّص لتحديد المفاهيم التي تتعلق بتاريخ الكتب والمكتبات، فتم التعرف على مصطلحات: «الكتابة» و «وسائط الكتابة» و«أدوات الكتابة»، و«الكتاب» و «المكتبات»، بل والتأريخ لها، وذلك بعرض سريع لنشأتها وتطورها عبر الحضارات الإنسانية المختلفة.

بدءاً من الفصل الثاني، خصص كل فصل لمجموعة من الحضارات، ففصل للحضارات القديمة، التي تجمع حضارة مصر القديمة والحضارة السومرية والحضارة البابلية) والآشورية والحضارة الفينيقية، ثم الحضارة الصينية. وفصل للحضارات الوسيطة، التي تجمع الحضارة اليونانية، ثم الحضارة الرومانية، وأخيراً الحضارة الإسلامية. وفصل للحضارة الغربية الحديثة، بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي حتى القرن العشرين. وقد تناولنا في كل حضارة مز الحضارات، تاريخ الكتابة بها، وأدوات الكتابة والوسائط المادية التي كتبت ء وأخيراً تاريخ المكتبات بها، وربما أشهر الشخصيات الفكرية والمكتبية بهذه الحض

نأمل أن يرى زملاؤنا، والدارسين ـ في هذا الكتاب ـ رؤية جديدة وتناولا مخ لموضوع طالما تطلعنا فيه إلى كتاب يوجز هذا التاريخ، ويبيّن دور الكتابة والكتب والمك عبر الحضارات الإنسانية. وأيا كان الأمر فإن هذا الكتاب موجه، أيضا، للجمهور الا من القراء الذين يودون التعرف على قصة الكتاب والمكتبات عبر الحضارات الإنس نأمل أن تتحقق الفائدة المرجوة التي نبتغيها منه، والله من وراء القصد.

ردمك : ٣ - ٤٧٩ - ٢٤ - ٩٩٦٠